حياة بولس

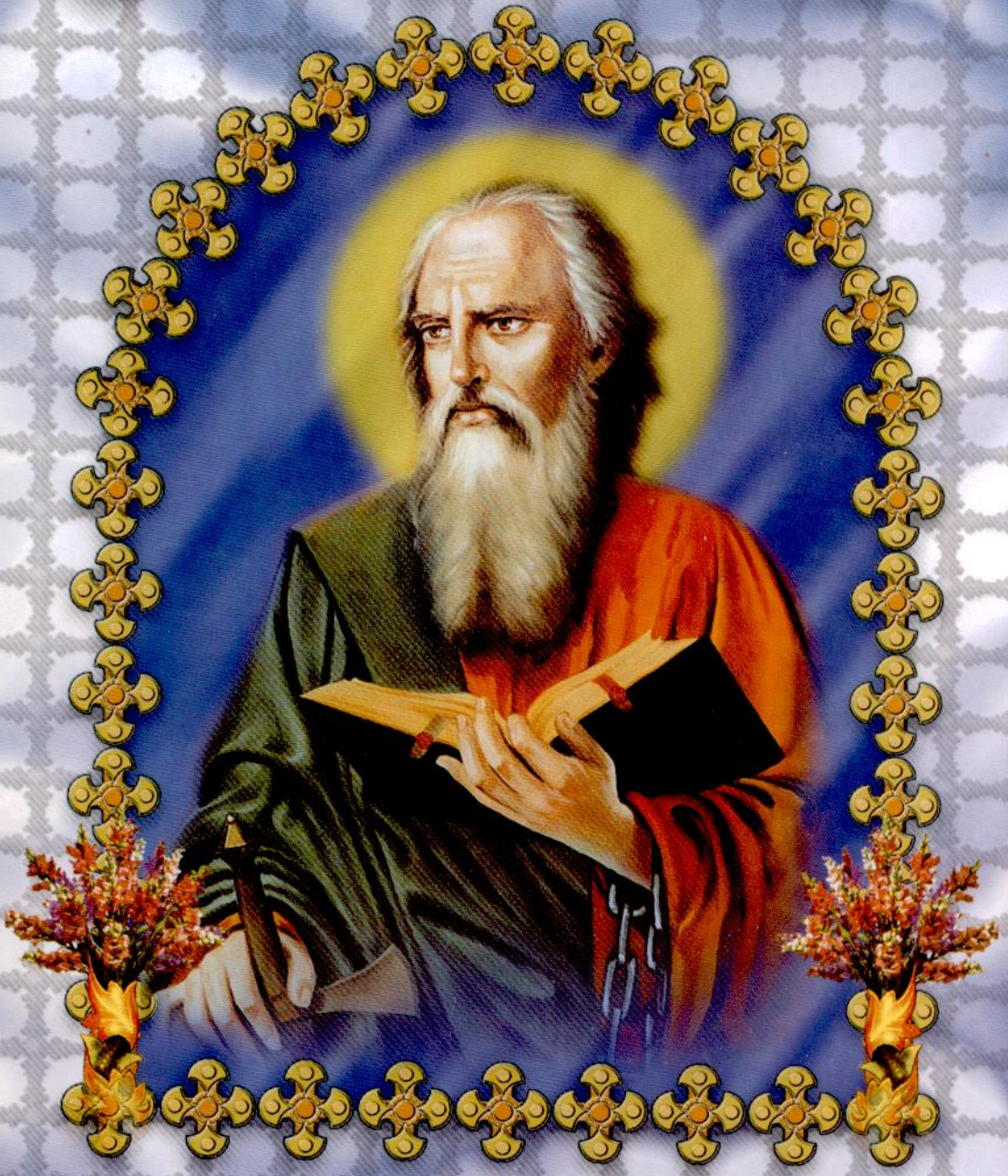

دكتور
ف.ب. ماير

تعريف
القمص مرقس داود

حياة بولس

تأليف

ف. ب. ماير

تعريب

القمص مرقس داود

مكتبة المحبة

مقدمة المؤلف

بين السِّيَر الكتابية الكثيرة التى كتبتها، تعد هذه أهمها كثيرا جدا. لقد عاشرت شخصية بولس المجيدة أياما وأسابيع، وكنت أشعر دواما أنه يسمو على أسمى تخيلات المرء. وكلما توغل الإنسان فى فيافى أخلاقه، ازداد الأفق أمامه اتساعا، كمن يتوغل فى سلسلة متسعة من الجبال.

فى هذا الكتيّب، لجأت إلى الرسائل أكثر مما لجأت إلى سفر أعمال الرسل، لأننى رغبت فى وصف حياته من الداخل، وكما كانت تبدو إليه هو. لذلك، فقد كانت الناحية التاريخية، فى كثير من الأحيان، ثانوية، بإزاء وصفه هو لحياته شخصيا.

كان لى الحظ أن طالعت بعضا من أحدث الكتب التى عالجت هذا الموضوع، ولكن أغلب ما تراه مدونا فى هذه الصفحات هو خلاصة لتأملاتى الشخصية وعظاتى على مدى بضع سنوات. وإننى إذ أبعث بها كما هى، أرجو أن تحفّز الكثيرين للتمثل ببولس كما تمثل هو بالمسيح، وتسليم حياتهم لله كما فعل هو.

ف. ب. ماير

بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد، آمين

مقدمة المعرب

لم تكد تظهر الطبعة الأولى لهذا الكتاب، حتى تلقفتها الأيدى، نظرا للمكانة السامية التى للرسول بولس فى قلوب جميع المؤمنين؛ فهو يمتاز بأنه تعب أكثر من جميع الرسل فى الجهاد لنشر الإنجيل، وكابد آلاما أكثر، وأسس كنائس أكثر، وكتب رسائل أكثر، إذ أن عدد رسائله أكثر من نصف عدد أسفار العهد الجديد.

ويتميز الرسول بولس أيضا بأنه هو الباحث المدقق، والكاتب المنطقى، والخطيب الحصيف، الذى عرف كيف يعامل الناس حسب مراكزهم، ويخاطبهم على قدر عقولهم، دون أن ينزل إلى مستواهم، بل محاولا أن يرفعهم إلى مستواه. ولا غرابة فى هذا، فقد كان أكثر من سائر الرسل علما، لأنه تعلم على يدى عالم من أعظم علماء اليهود.

ويتميز الرسول بولس أيضا بأنه دوّن لنا الكثير من اختباراته فى آلامه الوفيرة جدا. ولذلك، فإن رسائله تفيض بالتعزيات للمؤمنين. وإن كان خليقا به أن يُدعَى «رسول الأمم»، و «رسول الجهاد»، فخليق به أيضا أن يدعى «رسول الآلام».

ولم تكد تنفذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب، حتى انهالت الطلبات لإعادة طبعه. وتلبية لرغبة مكتبة المحبة بالقاهرة، أعدت قراءته مع تنقيحه، راجيا للمكتبة كل توفيق فى قيامها بنشر هذه الكتب الدينية.

وإننى أضعه بين يدى القدير، مبتهلا إليه أن يجعله بركة لمجد اسمه القدّوس.

القس

مرقس داود

السنة	الحَـدَث
٣٧	رجم استفانوس
٣٧	تجديد بولس
٤٠	أول رحلة لأورشليم
٤٥	الرحلة الأولى التبشيرية
٥٠	الاجتماع العظيم فى أورشليم
٥١	الرحلة الثانية التبشيرية
٥٣	وصول بولس إلى كورنثوس
٥٤	الرحلة الثالثة التبشيرية
٥٥	بولس فى أفَسُسَ
٥٨	سجنه فى قيصرية
٦١ - ٦٢	سنتان فى رومية

﴿ النعمة قبل أن يولد ﴾

﴿ ١ تى ١ : ١٤ ﴾

❖ «تطلّع إلى المدينة المرتفعة فى الأعالى التى لم تطأها بعد قدم إنسان... مدينة حياة الإنسان المكَمّلة فى الله... اللابسة النور، وأبوابها الذهبية لن تغلق قط!»

﴿ فيلبس بروكس ﴾

للبحث عن مصدر النهر لا نقتفى آثاره، حيث ينبع وسط الحشائش الخضراء، بين الآكام، مكوِّنا بحيرة صغيرة من المياه الصافية تشرب منها أغنام الجبال، بل فى البحر العظيم الذى تتصاعد مياهه متبخرة، أو فى السحب التى تتكثف ثم تتصادم بمنحدرات الجبال الباردة. هكذا الحال بصدد حياة الله فى داخلنا... فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنها نشأت - فى أدوارها الأولى - فى إرادتنا واختيارنا ورجوعنا إلى بيت أبينا. ولكننا، إذ نتطلع إليها فى أحقاب التاريخ، نكتشف بأننا اخترنا لأن الله اختارنا، وأننا أحببنا لأن الله أحبنا أولا، وأننا تركنا قبر محبة الذات وأكفان الموت، لأن ابن الله قد دوّت كلمته الرهيبة منادية إيانا للخروج من القبر، وصارخة: «هلم خارجا». إن التقوى الناضجة تعظّم نعمة الله... تلك المحبة التى لا نستحقها، التى

يظن كل إنسان أنها قد تفاضلت جدا فى حالته الشخصية... «بنعمة الله أنا ما أنا»، هذا هو الاعتراف الذى يصرّح به كل امرىء، عندما يصل إلى قمة الجبل، ويتطلع خلفه إلى مدن السهل التى نجا منها.

يشدد بولس التأكيد فى اعترافه عن هذه النعمة التى ترجع إلى ما قبل الحياة. فإنه يلذ له أن يعود بالذاكرة، لينسب كل ما فى قلبه وحياته من خير إلى المحبة التى غمرته قبل إنشاء الجبال، وقبل أن يصوّر الله الأرض والعالم. فى سكون الأزلية، كانت لذات الله معه كأحد بنى البشر.

﴿١﴾ سبْق العلم:

قال يعقوب، الجليل فى الرسل: «معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله» (أع ١٥: ١٨). وإن كانت أعماله معلومة من قبل، فكم بالأحرى قديسيه؛ ثم إن يوحنا الإنجيلى خبرنا أيضا أن يسوع «عرف من البدء من هم الذين لا يؤمنون، ومن هو الذى يسلمه» (يو ٦: ٦٤). إذن، فلابد أن يكون قد عرف من البدء من هم المؤمنون، كما عرف رسله ومحبيه. قبل أن يحل الزمن، كان معروفا فى السماء من هم الذين تجذبهم محبة الذى عُلّق على الصليب لحياة الثقة والمحبة والطاعة، ومن هم الذين يتشبهون به إلى الأبد فى موته وقيامته. وعن هؤلاء، قيل: «لأن الذين سبق فعرفهم، سبق فعيّنهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرا بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩).

ليس هذا حلا كاملا لمعضلة سبْق الاختيار، بل لعله يزيدها غموضا. ولكن، حين نعلم بأن الله قد أدرج فى المقاصد الأزلية للحياة، كل من سبق فرأى أنهم سوف يرتبطون بابنه برابطة الإيمان والحياة، التى لا تنفصم، فإن ذلك يسلّط نورا قويا على تلك الهوة السحيقة المتناهية فى الظلام. كل الذين يُقبلون إلى يسوع، يظهرون أنهم قد أُدمجوا ضمن عطية الآب لابنه، فإن الآب أعطاه كل الذين يُقبلون إليه فى ملء الأزمنة. ولكن، لماذا يقترب البعض من يسوع المصلوب دون الآخرين؟ لماذا يتقدم البعض، ويظل الآخرون بعيدين؟ لماذا تسمع بعض الخراف صوت الراعى وتتبعه... بينما يصر الآخرون على التيه؟ هذا أحد الأسرار التى لم تُعلن بعد لبنى البشر!

على أنه، إذ تطلعت عين المحبة العليمة بكل الأشياء خلال الأجيال، فإنها لابد وأن تكون قد استقرت بسرور ممتاز على نفس بولس الكريمة العزيزة المتّقدة غيرة. وإذ سبق الله فعرفه، فإنه سبق فعينه. وإذ سبقت المقاصد الأزلية، ورأت أن كفاءته خليقة بالأمور الأسمى، اختارته لها واختارتها له. وحينما يعود بذاكرته ليتأمل، من سجنه الرومانى، فى تلك الحركات الأزلية للمحبة، يلمع وجهه بضياء المجد، فيكتب: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» (أف ١: ٣ و٤).

﴿٢﴾ مخلوقون فى المسيح يسوع لأعمال صالحة:

بيّن الناموس مركز الأعمال فى عقيدة الإنجيل، مؤكدا بكل أنواع التأكيد، إنه لا يصح أن يكون خلاصنا أو إيماننا موضوعا للافتخار، فصرّح بولس قائلا: «هو عطية الله ليس من أعمال» (أف ٢: ٨ و٩)، بعد ذلك تقدّم إلى الاعتراف الخطير: «لأننا عمله، مخلوقين فى يسوع المسيح لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها» (أف ٢: ١٠).

إن الكلمة اليونانية المترجمة «عمله» معناها «قصيدته الشعرية»، فنحن شعر الله. وعندما نراجع حياتنا بعد مر السنين، يتضح لنا أنه كانت هنالك من وراء الستار خطة، نتج عن تنفيذها حلقات تزايدت فى الاتساع، إلا فى الحالات التى فيها تعمدنا التعدى على مقاصد خالقنا الواضحة... «نطقتك وأنت لم تعرفنى» (إش ٤٥: ٥)، هذه الحقيقة التى قيلت عن كورش، إذ أقيم لتخريب بابل وتحرير شعب الله، تنطبق على حياتنا نحن أيضا. إن لله فكرة خاصة عن حياة كل إنسان، فهو يخلق كل امرىء لقصد معيّن. وكما أن الشاعر العظيم يراعى أنواعا مختلفة من القوافى والأوزان حسبما يتفق مع فكرته، ولكنه رغم ذلك، له قصد معيّن فى كل قصيدة تصدر عن مخيلته المبدعة. هكذا يراعى الله قصدا معينا إذ يبدع كل نفس ويقذف بها فى سكون الأبدية. وإن كنا لا نعطّل عمله، فإنه يراقب تنفيذ هذا القصد، جاعلا حياتنا بجملتها - من المهد إلى اللحد - قصيدة شعرية موزونة، رائعة، تسودها فكرة واحدة، وإن كان يتم إخراجها فى تفاصيل لا حصر لها.

فى القصيدة الشعرية، ينطبق التعبير على الفكرة. فالنغمة الشديدة القوية تناسب التفكير القوى، والنغمة العذبة تناسب التفكير الهادىء الرقيق. وعلى هذا القياس، ربما نستطيع تعليل الاختلافات التى تميّز حياة البشر... هنالك نجد قطعة من الشعر الحماسى، وهناك نجد قصيدة غنائية أو رواية تمثيلية، وهنا نجد مرثاة. قد تكون حياتك ناعمة ناضرة، أو متحطمة فوق صخور الأحزان، أو مندفعة نحو بعض أخطار محققة، لأن قصد الله يجب أن يتمشى وفق المقياس الأكثر مناسبة للتعبير عنه. تذكرنا حياة بولس بـ «الأوديسّة» أو «الإلياذة» أو «الفردوس المفقود»، أو فكرة دانتى الرائعة. إنها كالمحيط فى العمق والتنوع والتغيير. وكما نشاهد فى النشيد الدينى، هكذا نرى هنا جميع التعابير تستخدم للإفصاح عن قصد الخالق وعواطفه.

يقضى حذق الشاعر ألا يكون أى وصف أو أية عبارة فى السطور الأولى عقيمة أو زائدة عن الحد. فإن كنت تملأ الرقعة البيضاء بصور وأشكال لا تمت بصلة للقصد الأساسى من الصورة، عُدَّ هذا منتهى الحماقة. دقق الفحص فى الفصول الأولى لأية قصة عظيمة، تلاحظ أن الأوصاف والأهداف فى كل فقرة تمهد للكشف عن القصة، وتؤدى إلى الغاية الأسمى التى تسارع إليها الصفحات الأخيرة.

هكذا الحال فى الحياة البشرية، فالله يعرف الأعمال المعدّة لكى نسلك فيها. وكما أنه خلقها لنا، هكذا خلقنا لها فى المسيح يسوع. إن تاريخ ميلادنا، ومكان الطفولة ومناظرها، وسلالتنا، وتربيتنا، والمؤثرات التى تطبعنا بطابع خاص، سواء كانت كتبا أو فنا أو حالة الأعمال اليومية... هذه كلها رُتّبت بحكمة لن تخطىء قط، وتدبير سابق «لكى يُعَرَّف... عند الرؤساء والسلاطين فى السماويات... بحكمة الله المتنوعة حسب قصد الدهور الذى صنعه فى المسيح يسوع ربنا الذى به لنا جراءة وقدوم بإيمانه عن ثقة» (أف ٣: ١٠-١٢).

إذن، فقد كان مما يهنأ عليه الرسول بصفة مستمرة، ألا يمهد هو طريقه أو ينشئه بنفسه، بل أن يكتشف - بكل بساطة - الطريق الذى أعده الله لخطواته منذ القدم. وإذا تبينه، فإنه لا يجده فقط مناسبا لمركزه فى جسد المسيح الرمزى، بل يجده أيضا هو نفس الطريق الذى يتفق مع صفاته ومواهبه.

﴿٣﴾ قام بقيامة المسيح:

كانت ثقافة بولس تختلف اختلافا بيّنا عن ثقافة زملائه الرسل؛ فإنهم تربوا مع المسيح. وكان المسيح يعرف الكثيرين منهم قبل أن يدعوهم. فلم ينزل أى واحد من مرتفعات الناصرة إلى مياه بحر الجليل الزرقاء، دون أن يكون متأكدا كيف كانت حياة المسيح هادئة ورزينة وطيبة خلال تلك السنوات الثلاثين الصامتة. إذن، فقد كانوا يتقدمون تدريجيا فى تفهّم أسرار موته وقيامته. كانوا يعرفون الإنسان يسوع قبل أن أدركوا المسيح المسيّا. كانوا يصعدون إلى جبل الرب من وادى الأردن، ولذلك فلم يتعجبوا كثيرا عندما باغتتهم منحدرات الجلجثة المظلمة، التى أعقبتها مرتفعات القيامة والصعود المملوءة بهجة ومجدا.

أما بولس، فإنه - من الناحية الأخرى - إذ رأى يسوع لأول مرة، رآه فى مجده. كان يعرف يقينا أن يسوع صُلب على عهد پيلاطس البنطى، لأن هذا كان حديث جميع الشعب أثناء إقامته فى أورشليم. أما الآن، فقد رآه مقاما، حيا، متكلما، وجهه يضىء بنور أفضل من لمعان الشمس؛ كان هذا منظر لا يمحى من ذاكرته. لأنه، علاوة على حل كل معضلاته، فإنه حقق إيمانه الذى لم يتزعزع أبدا. يا له من تعبير رائع، إذ نقرأ: «بل بالحرى قام أيضا» (رو ٨: ٣٤). كان عليه أن يعود بذاكرته من مجد الصعود والقيامة إلى الجلجثة وچثسيمانى، ومناظر ولادة الرب وأيامه الأولى على الأرض.

والأكثر من هذا، أن بولس كانت له ثقة أكيدة فى اندماج كل المؤمنين بالرب المقام، وذلك منذ اللحظة التى قام هو فيها. فقد كان يعتقد وينادى بأن جميع الأعضاء فى الجسد الرمزى اشتركوا فى اختبارات وأعمال رأسهم. فإن ما اختبره هو، اختبروه هم أيضا؛ اختبره كل واحد منهم. إذن، فليس هنالك مؤمن واحد لا يستطيع أن يصرّح بأن كل ما اختبره يسوع، اختبره هو أيضا.

لم يسمح بولس الرسول قط لآرائه عن الاتحاد الشخصى بالمخلّص، أن تتصادم مع وصفه للمميزات الفريدة لذلك الموت، الذى يفضله فعل الرب للبشر، ما لن يستطيع فعله أى إنسان، بل كل البشر مجتمعين. كان ينادى دواما بأن ذبيحة الصليب كفّارية

عن خطايا العالم كله... ذبيحة تقف فريدة فى مجدها الرائع. على أنه لم يفته أن يتأمل فى الناحية الأخرى لموت المخلّص، التى بها يعتبر كل من يؤمنون به - حسب المقاصد الإلهية - واحدا معه فى موته وقيامته وصعوده إلى السموات.

وفى إحدى الآيات الخالدة، نراه يقرن معا هاتين الناحيتين اللتين للصليب، فإن هذه الكلمات: «أحبنى، وأسلم نفسه لأجلى»، ترتبط بحلقة ذهبية بهذه الكلمات: «مع المسيح صُلبت» (غل ٢: ٢٠)؛ هو على الدوام واضح وجلى، حين يقول: «ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا. صولحنا مع الله بموت ابنه». وهو أيضا واضح وشديد التأكيد، حين يقول : «ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح... وأقامنا معه، وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح يسوع» (أف ٢: ٥ و٦). كان من ضمن تعاليمه اليقينية أن «الواحد مات لأجل الجميع»؛ على أنه كانت هنالك حقيقة أخرى، هى : «إن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية، كى لا نعود نُستعبَد أيضا للخطية» (رو ٦: ٦). كان يحب بأن يعتبر نفسه أنه مات مع المسيح، وأن يطالب بأن ينال يوميا قوة حياته المقامة. وكان يتوق أن يعرف المسيح وقوة قيامته، إذ كان على أتم الاستعداد ليذوق شركة آلامه، متشبها بموته، إذ كان كل يوم يتوق إلى أن يبلغ قيامة الأموات (فى ٣).

وهذه الفكرة عن اتحاده بالمسيح فى الموت والقيامة، هى أساس كل نصائحه، وحثه على الحياة النقية المكرسة... إنكم «قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق... لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح فى الله، متى أُظهر المسيح حياتنا...» (كو ٣: ١-٤).

كانت هذه رؤيا مجيدة، لم يملّ منها الرسول قط. لم تكن تعزّى لأى سبب آخر سوى المحبة العظمى التى أحبه بها الله حينما كان مجدفا ومضطهِّدا ومفتريا، عائشا فى شهوات جسده - حسب اعترافه - وكان بالطبيعة ابن الغضب كالباقين أيضا (أف ٢: ٣). وهذه الرؤيا تنتظرنا نحن أيضا. وفى حروبنا ضد شهوات الجسد، وإغراءات العالم، وقوة الشيطان، لا يوجد يوجد مركز يقودنا إلى النصرة الأكيدة أكثر من موقفنا هذا بصدد القيامة، وامتيازنا الجليل الذى أُعطيناه. لما يحاول العالم أن يقذفك بسموم إغراءاته، قف إزاء تحديه بأن تؤكد لنفسك أنه لم يعد له سلطان عليك، طالما كنت قد

انتقلت من مملكته وسلطانه بفضل اتحادك بذاك الذى بالموت «الذى ماته قد ماته للخطية مرة واحدة والحياة التى يحياها فيحياها لله» (رو ٦: ١٠).

اصعدوا إلى الجبال العالية يا أبناء الله المؤمنين، وتطلعوا إلى محبة أبيكم نحوكم فى يسوع. تأملوا فى كل ما جلبته لكم هذه المحبة قبل أن تأتوا إلى عالم الوجود. أيعقل أن تتخلى عنكم الآن، إن رأت فيكم عدم استحقاق لها؟ أيمكن أن يظهر فينا أى شىء لم يسبق أن عرفه ذاك الذى جلس وحسب حساب النفقة قبل أن يتخذنا ضمن خاصته؟ ألا تتعزى نفسك، إذ تعرف أن سفينة حياتك يقودها ذاك الذى يعمل كل شىء حسب مسرة مشيئته، ويحملك إلى قلبه؟ «يا لغنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء... لأن منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد، آمين» (رو ١١: ٣٣-٣٦).

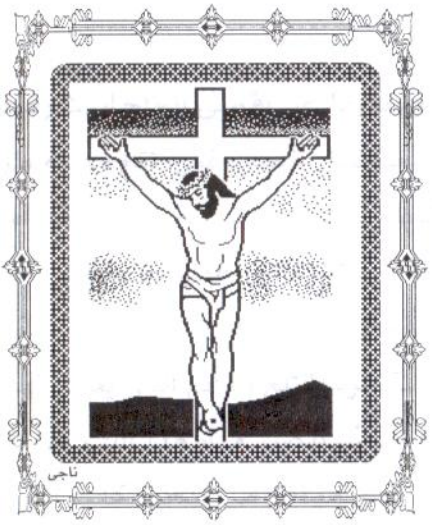

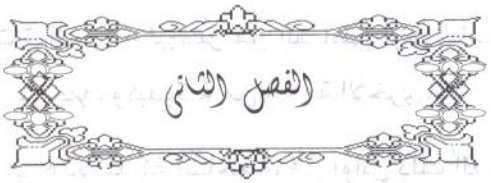

﴿ لما كنت طفلا ﴾

﴿ فى ٣ : ١ - ١١ ﴾

❖ «رُبِّيتُ فى المدينة العظيمة مغلَقا علىّ فى صومعة مظلمة، فلم أر شيئا بهيا سوى السماء والكواكب.»

﴿ كولردج ﴾

ليس بعيدا عن أقصى الخلجان شرقا فى البحر الأبيض المتوسط، وفى وسط سهل خصب غنى، تقع مدينة طرسوس، التى يقول عنها واحد من أعظم بنيها إنها «مدينة غير دينية». أما فى العصر الذى نكتب عنه، فكانت مركزا تجاريا عظيما، وملتقى للحضارتين العالمية والدينية. على حافة السهل فى الجهة الشمالية، قامت جبال طرسوس العظيمة بقمتها المكسوة بالثلج الدائم الذى يغذى نهر سيدنوس بمياهه بصفة مستمرة. وبعد أن تتكسر مياه هذا النهر فى شلال عظيم، يجتاز وسط المدينة، ثم تتدفق مياهه فى البحر. كانت أكبر السفن تجرى فى الجزء الأخير من هذا النهر، حاملة كنوز الشرق والغرب إلى الأرصفة على جانبيه. هنا كانت تُكَوّم البضائع والسلع من كل نوع، إذ كان يؤتَى بها لاستبدالها بأقمشة شعر المعزى التى اشتهرت بها المدينة، والتى كانت

تُصنع من شعر قطعان المعزى التى تُرَى على منحدرات جبل طرسوس، والتى يرعاها سكان الجبال. كانت طرسوس أيضا تستقبل البضائع التى تتدفق من أبواب سيلسيا، وهى ممر مشهور يخترق الجبال، ليوصّل من الشاطىء إلى أواسط آسيا الصغرى، ثم إلى فريجية وليكاؤنية من جهة، وكبدوكية من الجهة الأخرى.

فى حى يهودى فى هذه المدينة الناجحة، فى أوائل ذلك العصر (لعله عام ٤م)، إذ كان يسوع لا يزال طفلا على ذراعى أمه فى الناصرة، وُلد طفل، كان معيّنا أن يكون عظيما فى كل الأجيال التالية بحياته وكلماته، وأن يبعث فى نفوس البشر نورا جديدا بصدد اعتقاداتهم الدينية. ولعله، عند ختانه، قد اكتسب اسما مزدوجا: اسم شاول، وهو اسم العائلة، واسم بولس لعالم التجارة والحياة المدنية.

ترك طابع المدينة العظمى أثرا لا يمحى فى نفس الصبى وهو فى طور النمو، وفى هذه الناحية، كانت أيامه الأولى تختلف كل الاختلاف عن أيام سيده الأولى، فيسوع تربى فى قرية بسيطة، مرتفعة، متجنبا المدن، وكان يحلو له أن يعلم على سفح الجبل، ويستمد تشبيهاته من حقل الطبيعة. أما بولس، فإنه تربى وسط شوارع طرسوس المكتظة، وأسواقها المزدحمة والتى تعج بالتجار والطلبة والبحارة من كل أنحاء العالم. وكان، وهو فى طور النمو، يستعد - دون أن يشعر - لكى يفهم الحياة البشرية فى كل أوضاعها، ويألف أفكار وعادات البيوت التجارية، ومخيمات الجنود، وساحات الألعاب الرياضية، والهيكل. صار إنسانا لم يغب عنه أى شىء يمس الحياة البشرية. أحب حياة المدن، واستمد استعاراته من مهامها.

نشأ من أصل عبرانى قح: «عبرانى من العبرانيين»، كانت أنسابه أصيلة من كلتا الناحيتين. لم يكن هنالك أصل أممى فى دمائه، ولا نسب غريب فى تحدّره. ولابد أن أباه كان ذا مركز ممتاز، وإلا لما وصل إلى الرعوية الرومانية التى كان يطمع فيها الكثيرون. ومع أنه كان يعيش بعيدا عن فلسطين، فإنه لم يكن يهوديا يونانيا، بل كان عبرانيا أصيلا كأى واحد من سكان المدينة المقدسة نفسها. ولعله [أباه] كان متعودا القسوة على بنيه، وإلا لما خطر على بال ابنه أن يحذر الآباء - فى السنوات التالية - من

إغاظة أبنائهم لئلا يفشلوا. ومع أننا لا نعرف شيئًا بالضبط عن أمه، إلا أنها لا شك كانت متصفة بتلك الصفات الممتازة التى نتلمس آثارها فى أمهات صموئيل ويوحنا المعمدان والرب يسوع. ولعلها ماتت فى أيام طفولته الأولى، وإلا لما فكر ابنها فيما بعد أن يدعو أم روفس أمه (رو ١٦: ١٣).

والأرجح أن لغة التخاطب العادية فى ذلك البيت كانت اللغة العبرانية، وهذا يفسر - إلى حد ما - دراية الرسول بالأسفار العبرانية التى طالما اقتبس منها الكثير. بهذه اللغة العبرانية تكلم يسوع معه فى الطريق إلى دمشق (أع ٢٦: ١٤)، وبهذه اللغة العبرانية تحدث هو إلى الجماهير من على دَرَج القصور (أع ٢١: ٤٠). كانت أورشليم فى نظره أعظم من أثينا أو روما، وكان إبراهيم وداود وإشعياء أحب إليه من أبطال الإليـاذة. كان يحسبه شرفًا عظيمًا أن يكون أجداده أولئك البطاركة والأنبياء القديسون الذين اتبعوا الله من أور، وصارعوا مع الملاك فى يبوق، وتكلموا مع الله فى حوريب وجها لوجه. كان قلبه يسرع النبض كلما تذكر أنه ينتمى إلى الجنس المختار، بِكْر الله، الذين كان لهم التبنى والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد. وكلما ذُكرت أمامه الأنساب الرفيعة والثروة العظيمة، تذكر أنه ولد من نسب أرفع، وأنه يُنسَب إلى أرستقراطية أسمى؛ من سبطه خرج أول ملك لإسرائيل، وكان يفخر بأنه سَمَيّه.

وكانت ثقافته الأولى دينية: كان فريسيا ابن فريسى. فى أيامنا الحاضرة، تعبّر كلمة فريسى عن الغطرسة الدينية والرياء المجسم. ولكن، يجب ألا ننسى أبدًا أن الفريسى، فى تلك الأيام القديمة فى عصر الناموس، كان يمثل أرقى التقاليد للشعب اليهودى؛ فالفريسيون كانوا يعيشون حياة دينية مدققة وسط تلك الأيام التى سادت فيها روح الفتور وعدم الاكتراث. وبعكس الصدّوقيّين المتشككين الذين لم يؤمنوا بالأرواح أو بالعالم غير المنظور، كان الفريسيون يعتقدون بقيامة الأموات وحياة الدهر الآتى. وفى وسط الأخلاق الفاسدة، التى سرت عدواها إلى أورشليم، بدرجة تكاد تماثل درجة فساد روما، كان الفريسى مدققًا فى مُثُله العليا، نقيًا فى حياته. كانت الآيات الكتابية التى كان قد لجأ إليها تدل على الأقل على إلمامه بالكتاب المقدس، وكان تعشيره

للنعناع والكمون والشبث يظهر على الأقل تدقيقه فى إطاعة الناموس. أما صلواته، فربما كانت لمجرد حب الظهور، على أنها كانت برهانا واضحا على اعتقاده فى غير المنظور.

هكذا كان والد هذا الرسول العتيد. كان بيته الأول يحتفل بهذه المعتقدات الدينية الصارمة التى تشبعت بها نفس الولد، فعاش فريسيا حسب مذهب عبادته الأضيق (أع ٢٦: ٥). وكان يفخر بأنه فى أول لحظة مناسبة، قبل شعائر وامتيازات ديانته، إذ خُتن فى اليوم الثامن. وحيثما كان يسمع عن الذين ينضمون إلى عهد آبائه وهم كبار، كان يهنىء نفسه بأنه قُبل فى عهد الشركة مع الله منذ طفولته.

وكان بلا لوم فى حياته الخارجية: كان بلا لوم من جهة البر الذى بالناموس فيما يتعلق بالممارسات الخارجية، لم تكن هنالك وصية تعمّد إغفالها فى الناموس الأدبى أو الطقسى. ومع أن معلّمى اليهود بنوا على ناموس موسى عددا لا يحصى من التفاسير الثانوية والوصايا الدقيقة، فإنه، بكل شجاعة، تغلّب عليها. كان يعتبرها جريمة أن يدخل بيت أممى. ولدى مغادرة السوق أو السير فى الطريق، كان يحرص على غسل يديه من أى دنس اتصل بهما بسبب لمس أى شىء يكون قد لمسه غير المختونين.

ولطالما شكر الله لأنه لم يكن كباقى الناس. وقد تعلّم أن يصوم مرتين فى الأسبوع، ويعشّر كل ما يقتنيه. كان يحفظ السبت والمواسم بكل حرص وتدقيق. قال مرة فى إحدى المناسبات: «أيها الإخوة، إنى بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم» (أع ٢٣: ١).

كانت نفس ذلك الشاب الفريسى الغيّور تميل إلى الوقوف فى صفوف القديسين الأولى. ففى فجر حياته، وضع فى قلبه أن يربح جعالة رضاء الله، لم يكن يتصور شيئا أحب من هذا. لذلك، فإنه حينما سأل معلمى اليهود، وعلم منهم أن الطاعة المطلقة لكلمات الربيين هى الطريق الوحيد للحصول على أمنية قلبه، عزم بكل ما فى وسعه على تسلّق هذه المرتفعات الخطرة والجبال الشديدة الانحدار. ولعله فشل منذ البداية. ولعل هذه الصرخة: «ويحى أنا الإنسان الشقى!» كانت تدوّى فى أعماق قلبه قبل أن

يصير مسيحيا بوقت طويل. ومع أن سلوكه الخارجى كان مثاليا، إلا أن نفسه كانت معذبة فى صراع أدبى. كثيرا ما كان يرى الخير فيستحسنه، ولكنه كان يفعل الشر؛ وكثيرا ما كان يحزن ويكتئب بسبب عواطفه وضعف إرادته. كان شاعرا بتقصيراته التى لم ترها عين أخرى، تائقا للقوة التى تعينه على أن يعيش يوما واحدا فى قداسة كاملة، إذ كان الربيّون ينادون بأنه إن عاشها إسرائيلى واحد، فقد مهّد لسرعة مجىء المسيا.

ولابد أن طبيعته كانت نارية ملتهبة منذ البداية: فالدموع التى انسابت فى ميليتس، والقلب الذى كد يتحطم فى رحلته الأخيرة إلى أورشليم، والتوسلات والإشارات التى تفيض رقة وعذوبة فى رسائله، وقدرته على خلق صداقات ملتهبة مستمرة - هذه لم تكن وليدة أيامه المتقدمة، بل كانت كامنة، أو على الأقل كانت نواتها كامنة - منذ الطفولة؛ فإنه لابد كان دائما حساسا جدا للعواطف الراقية. والفارق العظيم بين تذكره أصدقائه بعد وفاتهم، وبين صمته التام نحو والديه وإخوته وأخواته، يدل على المرارة التى أحس بها، إذ هجرهم نهائيا بعد اعتناقه المسيحية. ولابد أن هذه الكلمة التى قالها: «لأجله خسرت كل الأشياء»، تحمل فى طياتها أثرا أعمق مما يبدو فى ظاهرها.

أما الغيرة التى دفعته لاضطهاد الكنيسة فيما بعد، فكانت قد بدأت تتحرك فى صدره وقتئذ. قال مرة: «أنا رجل يهودى، وُلدت فى طرسوس كيليكية، ولكن رُبّيت على تحقيق الناموس الأبوى، وكنت غيّورا لله» (أع ٢٢: ٣).

كان صادقا حينما أخبرنا بأنه تقدم فى الديانة اليهودية على الكثيرين من أترابه وبنى جنسه، لأنه كان أوفر غيرة فى تقليدات آبائه. إنه لم يتمسك بالحق سطحيا، أو فى بلادة وعدم إحساس، أو كضرورة لازمة لتربيته الأولى، بل لأنه تعمق فيها كل العمق.

ولعله كان يردد فى نفسه تلك الكلمات القديمة: «غيرة بيتك أكلتنى». وهل كان يخطر بباله أى أمل بأن تكفّر غيرته عن تلك النقائض التى كان يحس بها متألما، وتزكّيه أمام الله؟ لقد عرف بالاختبار الشخصى ماذا يعنى أن تكون له - كباقى إخوته وأنسبائه فى الجسد - غيرة لله، ولكن ليس حسب المعرفة.

وكطفل، حفظ (تث ٦: ٤-٩ ؛ مز ١١٩: ١١٣-١١٨). ولابد أن أيام الطفولة قد تقضت على الوجه الآتى: فى سن الخامسة بدأ يقرأ الكتاب المقدس، وفى السادسة أُرسِل إلى مدرسة أقرب معلّم، وفى العاشرة تعلم الناموس الشفوى، وفى الثالثة عشر صار ابنا للناموس بموجب طقس معيّن. ويبدو أنه لم يتعلم الفلسفة اليونانية التى اشتهرت بها طرسوس، فقد كان هذا يعد مستحيلا بسبب وجهة النظر الجامدة التى لا تلين، والتى تطلّع بها اليهود الذين فى الشتات نحو الجالية الأممية التى تحيط بهم. وبين سن الثالثة عشر والسادسة عشر أُرسِل إلى أورشليم لاستئناف دراسته لوظيفة ربى التى كان يطمع له فيها أبوه. ومما هونّ على الصبى أن يفعل هذا، أنه كانت له أخت متزوجة فى أورشليم، وكان ممكنا أن يقيم معها أثناء دراسته على يدى المعلّم العظيم غمالائيل... استمع إليه وهو يقول فيما بعد: «رُبّيت فى هذه المدينة مؤدَّبا عند رجلىّ غمالائيل» (أع ٢٢: ٣).

ويجب ألا نغفل بأن نذكر أنه فى أيام الصبوة هذه، تعلم حرفة أفادته كثيرا عندما كانت تضغط عليه سبل المعيشة. كان المثل اليهودى القديم يقول: «من لم يعلّم ابنه حرفة، علّمه أن يكون لصا».

كان كل يهودى يتعلم حرفة، وكانت هذه عادةً حرفة أبيه. والأرجح أن أسرة بولس كانت لأجيال طويلة تعمل فى نسيج قماش داكن من شعر المعزى. ولابد أنه كان، منذ الطفولة، قد ألف أصوات الأنوال التى كان يُنسَج فيها شعر المعزى لإخراج قماش قوى يصلح لملابس الصناع الخارجية أو للخيام، وكان يطلق عليه اسم القماش «الكيليكى» نسبة للمقاطعة التى كانت فيها طرسوس، كانت هذه الحرفة قليلة الأجر؛ أما لبولس، فقد كانت مناسبة جدا لمقتضيات شخص متجول، ، فالحرف الأخرى تتطلب مصنعا مستقرا، وآلات باهظة التكاليف، أما هذه، فكانت صناعة بسيطة، يمكن تأديتها فى أى مكان، ولا تحتاج إلا لأبسط العدد والآلات.

❖ ❖ ❖

بعد فترة من الزمن، تقرب من الخمسين عاما، أمكن لبولس أن يتأمل - وهو سجين فى أحد السجون الرومانية - فى هذه الأمور التى كان فيما مضى يحسبها ربحا، اقتربت مرة أخرى تلك المناظر البعيدة، مناظر حياته الأولى، إلى عينه الفاحصة، فتفرّس فيها. وإذ تأمل فى أرباحها الوفيرة، كتب تحتها: خسارة ونفاية... «لكن ما كان لى ربحا، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إنى أحسب كل شىء أيضا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى» (فى ٣: ٧ و٨).

لم يكن أمرا قليل الشأن أن ينحدر من أبوين شريفين تقيين، أن يكون ابنا لإبراهيم، وارثا للمواعيد التى أعطيَت لنسله؛ **ولكنه حسبها خسارة!**

لم يكن أمرا قليل الشأن أن يبنى لنفسه صيتا عظيما، واسما لا تشوبه شائبة بالطاعة الكاملة المستمرة للناموس، والتدقيق الشديد، **ولكنه حسب ذلك خسارة!**

كان هنالك شىء من الاتزان فى نغمته: قد يكون الشباب مندفعين ومتعجلين، أما من تكلم هكذا فليس شابا، بل رجلا حنكته الأيام وزادته حكمة، وامتلأ قلبه باختبارات أشخاص كثيرين تجمعوا فى شخصية واحدة. لقد صرف سنوات طويلة فى السجن، حيث كان هنالك متسع من الوقت للتأمل فى الذكريات السابقة، وفرصة مناسبة للموازنة بين الماضى والحاضر. ولكن، رغم كل هذا، ورغم أن المرء يميل عادة إلى التصغير من شأن صعوبات الماضى، والتهويل فى صعوبات الحاضر، فقد قال مرتين، عن الامتيازات التى كانت موضوع فخره فى أيامه الأولى، بأنها خسارة ونفاية.

لم يكن هنالك شىء من التحقير فى إشاراته لطقوس العبادة الموقرة التى رُبّىَ عليها. لقد ظل سنوات طويلة يرى فى اليهودية التعبير الوحيد للاهوت، والشبع الوحيد لغرائزه الدينية. أما الأمور التى كان يتكل عليها فيما مضى، وأصبح يراها فيما بعد غير كافية، فكانت على الأقل هى التى رآها أساسا للسمو والنمو. لم يكن ينسى أن الله نفسه هو بانى البيت الذى وجدت فيه نفسه ملجأ ومسكنا، وأن صوته تكلم فى الأنبياء... وأن أفكاره هى التى ألهمتهم، وأن مقاصده قد تمت. لا يمكن لإنسان عاقل أن يتكلم باحتقار عن كتابه الأول الذى بدأ يتعلم فيه، أو عن معلميه

الأوائل؛ ولعل هذه هى الأساس الذى بنى عليه كل ما تعلّمه فيما بعد. ولكن، رغم كل ما تحمله نفس الرسول من احترام وتوقير، فلم يسعه إلا أن يؤكد بأن ما كان له ربحا قد حسبه خسارة.

وأساس هذه النتيجة التى وصل إليها: يوجد فى ناحيتين. فمن الناحية الأولى، اكتشف بأن الذبائح اليهودية تعيد الخطايا إلى الذاكرة، كما هو واضح من تكرارها المستمر، ولكنها لا تستطيع أن تلاشيها. اكتشف بأن الطقوس الخارجية - مهما مورست بكل حرص - لم تفلح فى تطهير الضمير. اكتشف بأنه لا توجد فى اليهودية قوة للخلاص، لا شىء لتنشيط وتجديد قوى النفس الخائرة. ومن الناحية الأخرى، وجد شيئا أفضل.

ترك الشاب الفنان وطنه القروى يملأ جوانبه الكبرياء والخيلاء بسبب ما حصله، فإن أقرانه البسطاء لم ينعموا بمثل هذا؛ لقد دعوه فلتة من فلتات الطبيعة، أما هو، فقد قبل هذه التسمية بكل سرور. فى اقتناعه الداخلى، كان يرى نفسه أهلا للنزول إلى العالم ليحرز قصب السبق فيه. وهكذا، خرج كأنه خارج إلى باريس أو ميلان أو روما. ولكنه فى كل شهر كان يزداد فى تحقير نفسه والتقليل من شأن مواهبه. وللحال، صار تلميذا للمعلم العظيم غمالائيل. وعندما عاد إلى وطنه، بعد انقضاء عدة سنوات، وفتح سجلاته المتضمنة دراساته القديمة، أغلقها للحال بسخط شديد، متعجبا كيف تجاسر سابقا بأن يدعوها فنا؛ فإن كان له ربحا وقتذاك، فهو الآن خسارة فى ضوء ما قد رآه وتعلمه.

هكذا رأى بولس يسوع. أمام مجد تلك الرؤيا السماوية، تضاءلت كل الأشياء الجذابة الأخرى. لقد حسب كل الأشياء خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربه. كانت كل جهوده الشخصية لا شىء بالمرة بالنسبة لعمله الذى أتمه. كانت نجدة له أن يتحوّل، من بره الذى بالناموس، إلى طريقة الله للبر الذى بالإيمان بالمسيح. عندما كان يظن أنه يمكنه إتمام مطالب قداسة الله الكاملة بمجهوده الشخصى، كان يغشاه خوف من أن يفشل فشلا ذريعا. ولكنه، للحال، تعلّم أنه يقدر أن يربح المسيح بترك كل شىء،

وأنه، بترك جهوده والاتكال على المسيح، يقدر أن يوجد فيه، ويحصل على البر الذى بلا لوم، الذى تم بطاعته حتى الموت، وأنه باعترافه بالعجز عن أن يفعل الخير الذى يريده، وارتضائه الموت مع المسيح، يقدر أن يعرف قوة قيامته ويتشبّه بها يوما فيوما. لذلك فإنه، بكل شكر، ترك جهوده الشخصية، وحسب كل ما كان له فى الماضى ربحا أنه نفاية وخسارة، لكى يربح المسيح، وكل ما يمكن أن يهبه المسيح ويفعله.

يا له من اختبار مروّع، حينما يستيقظ المرء فيجد أنه كان سالكا مسلكا خاطئا فى أهم الأمور، وأنه كاد أن يفقد أعمق معانى الحياة، حينما يكتشف أن القواعد التى وضعها لنفسه، والبناء الأخلاقى الذى تعب فى بنائه، ليست إلا خشبا وقشا وعشبا، حينما يتبيّن له أنه إنما كان يبنى على أساس خائب، وأن كل حجر وضعه يجب أن يزال. يا لله! حينما يحصل هذا الاكتشاف فى أوائل الشباب، فإنه يشل الجسم كله، ولو إلى لحظة، ونسقط على الأرض، ونقضى ثلاثة أيام وثلاث ليال منذهلين لا نبصر. وإن حصل فى أواخر الحياة، نجده مليئا بالحسرة والندم. وإن تم فى العالم الآخر، نجده مكتفا بسواد وظلمة اليأس الذى لا يُنطَق به؛ فالدود لا يموت والنار لا تُطفأ.

هنالك محك واحد به نتبيّن إن كنا على خطأ أم صواب، هو موقفنا بإزاء الرب يسوع المسيح. إن كانت حياتنا الدينية تدور حول محور آخر سواه، حتى ولو كان ذلك المحور العقائد اللاهوتية أو النظم المسيحية، فإنه لابد أن يسبب لنا الفشل. أما إذا كان هو الألف والياء، إن كان إيماننا - مهما ضعف - يتطلع إليه، إن كنا نصر على أن نعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه، إن كنا نحسب كل الأشياء خسارة من أجل فضل معرفته، فإننا نجد أنفسنا فى سلام وسط ألغاز الحياة، والمطالب السامية التى يطلبها العرش الأبيض العظيم.

الفصل الثالث

﴿ مُفرَز من البطن ﴾

﴿ غل ١ : ١٥ ﴾

❖ «إن ما نراه ظلاما، يراه هو نورا، والنهاية يعرفها هو ولا سواه.

«والروح لا يسير فى طريق خاطىء، وكل المقاصد محبوكة بدقة.»

﴿ هويتير ﴾

لما صار بولس رجلا، أبطل ما للطفل. لكن، كانت هنالك بعض النواحى التى لم يستطع أن يبطلها، ولم يكن هنالك ما يدعو لإبطالها، لأنها سبق أن رُتّبَت من الله كمؤهلات خاصة وإعداد لخدمته. فوق مهده، فى الحى اليهودى المزدحم بمدينة طرسوس، كانت المقاصد الإلهية ترفرف، ولعله جاءته الكلمة التى جاءت إرميا، قائلة: «قبلما صوّرتك فى البطن عرفتك. وقبلما خرجت من الرحم قدّستك. جعلتك نبيا للشعوب». كانت هذه الكلمة ماثلة أمامه حينما كتب لأهل غلاطية: «لما سر الله أفرزنى من بطن أمى، ودعانى بنعمته أن يعلن ابنه لأبشر به بين الأمم».[١]

(١) «لما سرَّ الله الذى أفرزنى من بطن أمى، ودعانى بنعمته أن يعلِن ابنه فىَّ لأبشر به بين الأمم» (غل ١: ١٥ و ١٦). ﴿مكتبة المحبة﴾

لله غرض فى كل حياة. وحينما تخضع النفس خضوعا كاملا وتستسلم له، فإنه يقينا يتمم هذا الغرض... فطوبى لم لا يعطل إتمام المقاصد الإلهية.

من أهم الدراسات فى الحياة البشرية، أن نرى كيف أن كل ظروف وحوادث أدوارها البدائية قد رُتّبَت بإرادة سامية، وقُصد بها أن تخدم قصدا صالحا. كل خيط لازم للأنموذج الكامل، وكل قطعة من الأدوات المختلفة يتبيّن فى الاختيار النهائى أنها صالحة.

كان يجب أن يتعلم رسول المستقبل الناموس اليهودى بتعمق:

و «الناموس» هنا لا يُقصَد به فقط الناموس الأدبى والناموس الطقسى كما ورد فى توراة موسى، بل أيضا الإضافات الوفيرة والدقيقة التى أضافها الربيون - كما قالوا هم عن أنفسهم - طلوا الآلة الموسيقية الجميلة بطلائهم الذهبى إلى الحد الزائد الذى يكتم نغماتها الموسيقية. كان البر بالناموس قائما «بأطعمة وأشربة وغسلات مختلفة وفرائض جسدية فقط» (عب ٩: ١٠)، بطول الأذيال وعدد الأهداب، بتصفية الخمر لئلا تكون فيها ذبابة ميتة، بتعشير أعواد النعناع وأوراقها، بالتدقيق فى قياس الأرض لكى لا يخطو المرء خطوة واحدة أزيد من سفر السبت الشرعى... قضى أحد عظماء الربيين الأسبوع كله متأملا: كيف يقضى السبت التالى!

لا يستطيع أحدا أن يدرك كم كان هذا النير ثقيلا جدا لا يُحتمل، ذلك الذى قال عنه بطرس نفسه إنه «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحوّله»، إلا إن كان قد تعلّم كبولس «على تحقيق الناموس الأبوى» (أع ٢٢: ٣).

كان ينبغى أن يظل بولس فى النظم، التى لطالما تحدث عنها فى رسالة غلاطية، ليستطيع أن يعظّم الحرية التى حررنا المسيح بها.

كان فى حاجة أن يكون كفؤا فى اقتباسه من الأسفار العبرانية وتطبيقها:

كان يضع كل مسألة فى الحياة اليهودية والحياة العادية فى وضعها الصحيح بالالتجاء إلى الأسفار المقدسة. لم يكن ممكنا لأى متكلم أن يفوز بالإصغاء التام من

الشعب اليهودى لحظة واحدة، إلا إن كان قادرا على أن يبيّن بأن الحقائق التى ينادى بها تستند إلى كلمة الله، وكلما زادت مقدرته فى هذه الناحية، كان ذلك أفضل... إلى الشريعة وإلى الشهادة ينبغى أن تُرد كل قضية، وأمام هذه المحكمة الموقرة ينبغى أن يمثُل كل معلّم.

فوق كل اعتبار آخر، كان ينبغى أن يبيّن بأن المسيحية لم تأت لهدم، بل لتكميل، الناموس القديم - تلك الزهرة البيضاء التى بزغت من الغرس الذى نقله الله من أور الكلدانيين، وذلك النهار الكامل الذى بزغ فجره على جبل المُرَيّا - وإن ما جعل بولس مجنونا ضد المسيحية، هو ما كان يبدو له فيها من إنكار وتجاهل للمعانى الواضحة لنبوات ورموز العهد القديم. لم يكن، هو أو أى واحد من أقرانه من رجال الدين، مستعدا أن يقبل مسيحيا متواضعا متألما مائتا، إلا إذا تبيّن، بدون أى نقص، أن فكرة كهذه هى ما يعلّم به حقا موسى والأنبياء والناموس. لو أن مجموعة من اليهود المخلصين الغيّورين سئلوا هذا السؤال: «أما كان ينبغى أن يتألم المسيح بهذا ويدخل إلى مجده؟» (لو ٢٤: ٢٦)، لما ترددوا فى الإجابة: «لا»، ولاحتاجوا إلى شخص متعلم تعليما كاملا، لا فى الكتاب المقدس فحسب، بل أيضا فى تفاسير الربيين العويصة، ليبرهن لهم، من جميع صفحات العهد القديم، أنه كان يليق بالمسيّا أن يتألم.

أُعطيَت لبولس هذه الموهبة أيضا مدة تربيته على يدى غمالائيل. فخلال كل مدة دراسته، كانت «الأقوال المقدسة» هى الكتاب الوحيد الذى يُدَرّس، وكان يقضى كل يوم فى التأملات الدقيقة فى الكلمات والسطور والحروف، مع تفاسير الربيين المختلفين.

قد يكون هنالك من اعترض على تفسيره لأسفار العهد القديم، ولكنهم لم ينكروا عليه سعة اطلاعه وعلمه الغزير؛ فقد كان ملما بها كل الإلمام. لم يكن هنالك موضوع واحد للمناقشة لم يلم بكل أطرافه، ولم يكن مستعدا للإجابة عليه فى الحال. كان فلاحا ماهرا للكتاب المقدس، حرثه مرارا بعقله الحاد، وجمع حصاده فى ذاكرته الحافظة. هنالك فقرات من كتاباته مقتبسة من العهد القديم، ومركبة الواحدة فوق الأخرى. وحججه مدعمة بالكلمة الإلهية، كأنها بدونها تصبح عديمة الجدوى. ولتقديم

الأمثلة، لم يلجأ إلى صحيفة الطبيعة المنيرة - التى يبدو أنه لم يتطلع إليها - بل إلى الحوادث. كانت هذه هى القوة التى أهّلته لدخول كل مجمع، وألهبت قلوب الكثيرين من اليهود المخلصين. وكم أُعجِب بها الكثيرون من دارسى الكتاب المقدس، كأولئك الذين التقى بهم فى بيرية.

وكان فى حاجة أن يكون له محيط متسع من الآراء الحرة:

إن مغالاة اليهود فى تحفظهم، أقامت حجابا كثيفا بينهم وبين الأمم. كان اليهود لا يعاملون السامريين، وبالأحرى الأمم، الكلاب، التى كانت تهيم تحت مائدة البنين الغنية. قال أحد معلمى الناموس: «إن سقط أممى فى البحر، فلا يليق باليهودى انتشاله، لأنه مكتوب: لا تكن مجرما بدم قريبك، أما الأممى فليس قريبك.»

كان معظم الرسل متأثرين بروح التعصب هذه، ولم يكن أمرا يسيرا أن يحطموا هذا السياج، الذى بُنى مع تعاليمهم الأولى، رغم التعاليم التى تلقوها فيما بعد من الرب نفسه. ولو تُرك لهم أمر ترتيب الكنيسة الأولى، لأقاموا عمليا - رغم اعترافهم نظريا بأنه لا فرق بين اليهود والأمم فى نظر الله - حاجزا بين اليهود المتنصرين والخراف الأخرى التى كان يأتى بها الراعى ولم تكن من حظيرة الخراف العبرانية. فبطرس لم يرتض الذهاب إلى بيت أممى ويأكل مع الغلف إلا تحت ضغط الرؤيا السماوية. ولكن، عندما خبا نور ذلك اليوم المجيد، وأتى قوم من عند يعقوب، وجد حجة ليؤخر ويفرز نفسه، خائفا من الذين هم من الختان. إذن، فقد كانت الحاجة ماسة إلى شخص آخر خلاف يعقوب، أو بطرس نفسه، يجرؤ على المناداة بالمساواة التامة بين جميع الذين بالإيمان صاروا حجارة فى الكنيسة الواحدة أو أبنية فى الهيكل المقدس الواحد الذى ينمو مسكنا لله. كانت الحاجة ماسة لصوت قوى ينادى بأن يسوع أبطل بنفسه العداوة، ليخلق الاثنين فى نفسه إنسانا واحدا جديدا صانعا سلاما.

وبترتيب العناية الإلهية، أُعطِيت هذه الموهبة أيضا لرسول الغرلة العتيد.

لقد كان عبرانيا بالمولد كما رأينا. وبغير هذا لم يكن ممكنا أن يؤثر على اليهود، أو يُسمح له بدخول مجامعهم. ولكنه رُبّى عند رجلى ذلك المعلم العظيم الذى، علاوة على أن الجميع كانوا يحترمونه كـ «بهاء للناموس»، فإنه كان أيضا معروفا كأعظم معلمى اليهود وأوسعهم عقلية. كان حفيدا لهليل العظيم، وكان أحد قادة السنهدريم كرواية سفر الأعمال: «فقام فى المجمع رجل فرّيسى اسمه غمالائيل، معلّم للناموس، مكرّم عند جميع الشعب» (أع ٥: ٣٤). ولكنه ذهب إلى أبعد من هذا، ولم ير ضيرا من دراسة الآداب اليونانية. ففى حديثه أمام السنهدريم، المدوّن فى (أع ٥)، نتلمس آثار حركات عقلية راجحة، واسعة، مستعدة للاعتراف بأعمال الروح القدس، متخطيا حدود التعصب الممقوت، ومتتبعا شعلة الحق مهما أدى به الأمر - هذا رجل مبارك، متصل اتصالا وثيقا بديانة شعبه. ومع ذلك، تعوّد أن يتطلع إلى كل الأمور من وجهة نظر الثقافة العالية والمحبة السامية.

لابد أن تأثير معلم كهذا كان قويا فى نفس شاب طرسوس الذى أتى ليجلس عند قدميه، والذى احترمه بحماسة لا حد لها. فى هذه التربة الخصبة، التى لم تُفلَح من قبل، زُرعت هذه الثمار: « ليس يهودى ولا يونانى... لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع» (غل ٣: ٢٨).

وكانت الحاجة ماسة لمعرفة متسعة للعالم:

كان يجب على من يُرسَل للبشر أن يعرفهم. وكان يجب على من سيكون للكل كل شىء. لكى يربح على كل حال قوما، كان يجب أن يكون خبيرا بطرق معيشتهم وأفكارهم. لم يكن ممكنا لأى يهودى أورشليمى أن يمازج اليونانيين المثقفين، والرومانيين العمليين، البربرى والسكيثى، العبد والحر، فستوس الحاكم الإمبراطورى وأغريباس الملك العبرانى، أنسيمس العبد وفليمون السيد، كما فعل بولس.

على أن هذه الموهبة أيضا أُعطيت إليه دون أن يتحقق من قيمتها. فإنه، منذ الصبوة، كان أليفا بتيار الحياة الأممية الذى فاض فى نهر سيدنوس إلى مدينته مسقط رأسه. فقد كان يفد إليها الناس من كل أرجاء العالم لأغراض تجارية. وكانت أرصفتها

وحمّاماتها ومتاجرها تكتظ بهم، وكانت تدوّى فيها لغاتهم المختلفة. وهكذا اتسعت عقلية الصبى - دون أن يشعر - لكى تتسع للعالم الخرجى العظيم.

ولما انتهت دراسته فى أورشليم، لابد أن يكون قد عاد إلى طرسوس. كان هذا يقينا قبيل ظهور يوحنا المعمدان مباشرة، وكرازته بالتوبة فى برية الأردن. لأنه لو كان بولس فى اليهودية فى ذلك الوقت، لما كان قد أغفل أن يشير إلى خدمته العجيبة ونهايته المفجعة. وبنفس هذه الطريقة، لابد أن يكون قد حُرم من أن يشهد خدمة يسوع الناصرى وصلبه، وبدء تكوين الكنيسة الأولى. على أن هذه الفترة كانت فترة ثقافته. ولعله قد تزوج فى هذه السنوات، وإلا لما كان قد أُعطِى له كرسى فى السنهدريم فيما بعد، ولما كان قد استمر فى متابعة مهنته، أو مارس وظيفته كربّى فى المجمع المحلى، أو سافر فى إرسالية دينية بعيدة، يطوف البر والبحر، ليكسب دخلاء لديانته.

لكن، تأمل ماذا فعلته تلك السنوات السبع أو الثمان لذلك الفرّيسى الشاب. أكان ممكنا للشاب القوى العضلات أن يكبح جماح نفسه عن التصادم مع النظم المحيطة به؟ كانت هنالك مدرسة للفلسفة الدينية تبحث عن الخير الأسمى. ألم يفكر فى مناقشة معلّميها؟ وكانت هنالك عبادة وثنية واسعة الانتشار، سيما عبادة البعل. ألم يفكر فى أن يتحاجج مع من نذروا أنفسهم لها، مبرهنا أن التى تُصنَع بالأيادى ليست آلهة؟ وكانت هناك قبائح أدبية، ورذائل شهوانية. ألم يفكر فى أن يقارن بينها وبين طهارة شعبه النسبية؟ وفى كل الوقت، كان يلاحظ بتدقيق أنواعا مختلفة من العبادة الوثنية. لذلك، فإن الصورة التى صورها لذلك العصر، والمبيّنة فى الإصحاح الأول من رسالة رومية، والرسالة الأولى لأهل كورنثوس، وفيها يشير إلى فجور الأمم، لا يمكن أن تصدر إلا عن شخص شاهد عيان. ويا لها من إشارة واضحة فى نصيحته لأهل أفَسُسَ أن لا يسلكوا «فيما بعد كما يسلك سائر الأمم أيضا ببطل ذهنهم إذ هم مظلمو الفكر ومتجنبون عن حياة الله. الذين إذ هم قد فقدوا الحس، أسلموا نفوسهم للدعارة ليعملوا كل نجاسة فى الطمع» (أف ٤: ١٧-١٩).

وكان أيضا فى حاجة إلى أن يحصل على ما يؤهله ليكون سائحا عظيما:

وفى هذه الناحية، كانت تلزمه ثلاثة أمور: الخطابة، الأمن، الإعالة؛ وكل هذه كانت مقبلة.

الخطابة:

كانت اليونانية هى اللغة العالمية، وواسطة التفاهم بين الطبقة المتعلمة. وكان بولس خبيرا باليونانية أكثر من خبرته بالعبرانية المقدسة. عندما كان يقتبس من الأسفار المقدسة، كان يقتبس من الترجمة السبعينية (أى الترجمة اليونانية). وكان فى استطاعته أن يخاطب بهذه اللغة بكل طلاقة وسهولة، بدرجة تكفى لكى يسترعى التفات فلاسفة أثينا.

الأمن:

كان كل العالم رومانيا. حكام رومانيون فى كل مقاطعة، معاملات رومانية فى كل مدينة، عملة رومانية، ضرائب رومانية، موظفون رومانيون. وإذا ما حصل المرء على الرعوية الرومانية، صار له مركز ممتاز فى أى مكان من الإمبراطورية الرومانية. فلا يُضرَب بدون محاكمة، وإلا عرّض القضاة أنفسهم لخطر الفصل من وظائفهم، وربما لخطر الموت. وكان فى استطاعته أن يلجأ لقيصر ليحاكَم أمامه؛ إذا رفع دعواه لقيصر، فإلى قيصر يجب أن يذهب. وكان فى استطاعته أن يدافع عن نفسه أمام العدالة الرومانية. كانت الامتيازات عظيمة جدا، حتى أن ليسياس الأمير رأى أن الرعوية الرومانية تستحق أن يُدفع من أجلها مبلغ كبير. إذن، فقد كان امتيازا عظيما جدا أن يقول المرء ما قاله بولس: «أما أنا فقد وُلدت فيها» (أع ٢٢: ٢٨)، وربما تكون عائلته قد استقرت أصلا فى طرسوس كجزء من مقاطعة رومانية. وكان اليهود يُعتبَرون دواما مهاجرين ممتازين، لذلك فإن هذا الامتياز الذى لا يقدّر بثمن كان يبسط حمايته على هذه الشخصية الفذة.

الإعالة:

وهذه أيضا توفرت لديه. ففى أى مكان حلّ فيه وُجدت الأغنام دواما، ووجدت دواما الحاجة إلى الأقمشة الخشنة التى تعوّد صنعها منذ صباه.

فى كل هذا، كان واضحا جدا أن المقاصد الإلهية عملت عملها، مرتبة كل الأشياء حسب المشورة الإلهية. وما تم مع بولس، يمكن أن يتم معنا أجمعين. هنالك عناية ترتب غاياتنا، وخطة سرمدية تَنْفذ إلى حياتنا، وشخصية متناهية فى الحكمة والمحبة تسخّر كل الأشياء لكى تعمل معا للخير. فى نهاية حياتنا، سوف نجد أنه كان هنالك معنى وضرورة لكل الحوادث السابقة، عدا تلك التى كانت نتيجة جهلنا وحماقتنا وخطيتنا! وحتى هذه قد استُخدمت لتعمل للنتيجة الختامية. فاتكلوا عليه يا أولاد الله، لأنه يقودكم فى طريق مستقيم إلى المدينة السماوية. وحينما تقفون على عتبة الأبدية، وتتأملون فى الطريق الذى سلكتموه منذ الطفولة، سوف تعترفون أنه قد صنع كل شىء حسنا.

﴿ استفانوس شهيدك ﴾

﴿ أع ٢٢ : ٢٠ ﴾

❖ «لم يبال بكلمات التحقير... ولم يحمّل قلبه
أى فكر شرير، مع أنه لُعِنَ واستُهزِئَ به،
ورُجِمَ بالحجارة...
«بل تطلّع إلى فوق ممتلئا نعمة وطهارة،
وصلّى، فشع مجد الله على وجهه بغزارة.»

﴿ تينسن ﴾

تختلف كل الاختلاف طرق الله فى تقديم خدّامه الأبطال إلى العالم بعضها عن بعض. ففى بعض الأحوال، يُقَدَّمون تدريجيا، وبعظمة كالفجر من بصيص نور وعد قديم، إلى نهار القوة الكاملة والخدمة المنتجة. وفى حالات أخرى، يومضون كالبرق فجأة فى ظلام الليل البهيم. فى بعض الأحيان، يُحَمِّل الله شخصا رسالة ما، ويدفع به فجأة مزوَّدا بقوة لا تقاوَم. هكذا كان إيليا الذى تقدّم بكلماته: «هكذا قال الرب الذى أنا واقف أمامه»، ويوحنا المعمدان بكلماته: «لا يحل لك أن تكون لك امرأة أخيك»، وكثيرون غيرهم؛ وهكذا كان استفانوس.

لا نعرف إلا القليل، بل لا نعرف شيئا عن حياته السابقة. والأرجح أنه كان يهوديا يونانيا، ويكاد يكون من المؤكد أنه عرف شخصيا، بل عاشر، ابن الإنسان الذى رآه فيما بعد فى مجده. أما عن أبيه وأمه ومكان مولده وتربيته، فلا نعلم شيئا، إذ أن الكتاب يروى لنا رواية يوم واحد، ويسجّل لنا حديثا واحدا؛ هذا اليوم هو نفسه الأخير، وهذا الحديث هو احتجاجه ودفاعه عن نفسه.

إنه ليذكّرنا بسحابة لا تتميّز بميزة خاصة عن زميلاتها التى غطّت السماء فى مساء أحد الأيام. نحن لم نلاحظ هذه السحابة، فالشمس غربت دون أن تمسها. على أنها تشبّثت بأشعتها الذهبية وهى تغرب، وتشبّعت بها، فبدت كأنها تلتهب نارا. تأمل كيف تلتهب بالمجد! لقد تحوّل قلبها إلى نار تتلظّى... والنور يبقى لحظات ثم يختفى. هكذا كان الحال مع استفانوس؛ فإنه لبرهة وجيزة عاين مجد الرب. وإذ تأمل فيه، تغيّر إلى تلك الصورة عينها «وشخَص إليه جميع الجالسين فى المجمع، ورأوا وجهه كأنه وجه ملاك».

لابد أن تكون حياة وموت استفانوس قد جذبتا أنظار الكثيرين دواما، ونالت تقديرهم وتوقيرهم. ولكن، كم تستحق من تقدير أعظم، وتوقير أوفر، حينما نقتفى آثار تأثيره العجيب فى حياة وتفكير وأخلاق هذا الرسول العظيم، الذى كانت حياته خليقة بأن تحمل، إلى الأبد، تلك الصفات النادرة جدا، والفائقة السمو، التى توفّرت فى شماس الكنيسة الأول، وشهيدها الأول.

﴿١﴾ إن النهضة التى كان استفانوس ثمرة من ثمارها، والتى كان يمثّلها، تسترعى التفاتنا:

إنها تلقى نورا على حياة «الشاب شاول».

﴿١﴾ كان هنالك **يهود من حزب الفريسيين** يمثلهم غمالائيل وشاول الطرسوسى وغيرهما من الشخصيات النبيلة. كانوا يتميزون بحياة دينية متطرفة تلتف حول أنسابهم وطقوسهم الأصلية وناموسهم، وهيكلهم... ألم يكونوا أبناء إبراهيم؟ ألم يدخل الله معهم فى عهد خاص كان الختان علامته وختمه؟ ألم يكونوا غيّورين فى ممارستهم

الناموس الذى أعطِىَ وسط رعود جبل سيناء، لا من أجلهم فقط، بل من أجل العالم؟ ألم يُزِدْ عليه ربّانيّوهم عددا وافرا جدا من القواعد الدقيقة جدا التى أطاعوها طاعة عمياء؟ أما الهيكل، فكانت كل حياتهم كأمة، وكل آمالهم، معقودة على المكان الذى قام فيه. هنالك كان المذبح الوحيد، وقدس الأقداس الوحيد ــ هذه التى تعترف بها ديانتهم. ورغم أن الهيكل كان مغارة لصوص، وأورشليم مملوءة نجاسة، إلا أنهم اعتقدوا أنهم لم يصبهم ضرر، ولن تجتاحهم عاصفة هوجاء. لقد اتكلوا على الكلام الكذب، كآبائهم فى أيام إرميا، حين قالوا: «هيكل الرب، هيكل الرب، هيكل الرب هو» (إر ٧: ٤)؛ ولكنهم لم يفكروا فى إصلاح طرقهم وأعمالهم. كانت الطبقة اليهودية المحافظة فى ذلك الوقت ضيّقى التفكير، لا يتمسكون إلا بالقشور، متعصبين، يفتخرون بامتيازهم العام كشعب مختار دون تلبية نداء أعاظم أنبيائهم، يتكلمون على سلطان ديانتهم الواسع، دون الاهتمام بأخلاقهم الشخصية.

﴿٢﴾ ثم جاءت بعد ذلك **الكنيسة المسيحية العبرانية**، يتزعمها ويمثلها الرسل، لم يعيروا أهمية للثقافة أو الفصاحة، ولم يفكروا فى وضع نظام دينى جديد. ولعلهم أيضا لم يخطر ببالهم أت يعيشوا حتى يروا تعاليمهم قد غطّت على الديانة اليهودية، أو أن تعيش المسيحية بمعزل عن الديانة التى تربوا فيها. فمعلّمهم حفظ بالتدقيق الطقوس والأعياد اليهودية؛ وهم اقتفوا خطواته، وتركوا ذات التأثير فى نفوس تابعيهم. والكنيسة ظلت وقتا تعقد اجتماعاتها فى أروقة المجمع. وكان التلاميذ يراعون أوقات الصلاة، ويحضرون خدمات الهيكل، وختنوا أبناءهم، وكانوا لا يحلمون بأن يتخلّصوا من النظم التى كانت تقيّد اليهودى العادى كما بقيود من حديد. ويبدو أنه لو لم يحدث شىء، كاحتجاج استفانوس ودفاعه، لظلّت الكنيسة شيعة يهودية أخرى تتميز بتقوى وطهارة تابعيها، وباعتقادهم أن المسيا هو يسوع الناصرى الذى صُلب على عهد بيلاطس البنطى.

﴿٣﴾ وأخيرا، كان هنالك **المتنصرون من بين اليهود اليونانيين**. فى (أع ٦: ١)، يشار إلى هؤلاء إشارة واضحة، وفى (ع ٩) تُذكَر المجامع المختلفة التى اعتادوا الاجتماع فيها، وكان استفانوس خطيبهم القديس الفصيح.

يرجع أصل اليهود اليونانيين إلى السبى الذى استخدمه الله لإذاعة الآراء والمعتقدات اليهودية فى كل أرجاء العالم. لم يرجع إلى أورشليم، مع نحميا وعزرا، إلا أقلية ضئيلة ـ أما الأغلبية الساحقة، ففضلوا أن يبقوا فى أماكنهم لأغراض تجارية. وببطء، انتشروا فى آسيا الصغرى إلى المدن الساحلية والأقاليم المرتفعة الداخلية، وبنوا المجامع فى كل مكان لتشهد بوحدانية الله وروحانيته. وقد ألّفت مصر، سيما الإسكندرية، واليونان بموانيها التجارية، وروما بتأثيرها العالمى ـ ألّفت ما تميّز به الشعب العجيب من القدرة على معرفة الشخص من ملامحه، وألّفت عوائدهم ومحاولتهم دائما الحصول على نصيب كبير من ثروة البلاد التى يحلّون فيها. على أن احتكاكهم بشعوب البلاد الكثيرة أحدث فيهم تغييرا كبيرا.

فبينما كان يهود أورشليم واليهودية يحذرون من أن يتدنسوا برجسات الوثنية، الأمر الذى لأجله كثفوا الحجاب الفاصل بينهم، وكانوا يزدادون كبرياء ومرارة وضيقا فى التفكير، صار اليهود الذين تشتتوا فى كل أرجاء العالم أكثر اتساعا فى العقلية، وصاروا يعتبرون كل الأرض وطنا لهم... فاستبدلوا لغتهم الأصلية باللغة اليونانية، وكانوا يقرأون الترجمة السبعينية للكتاب المقدس، وتأثر أبناؤهم بالثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية، واستطاعوا أن يدركوا مقاصد الله التى تتحرك فى قنوات التاريخ العالمى العام، وتعلموا أنه كان آباؤهم قد تسلموا الأقوال الحية للبشرية، إلا أن الله لم يترك نفسه بلا شاهد فى أى مكان. وإذ اضطروا لهجر الهيكل بمراسيمه المقدسة ـ فى الأحوال النادرة والمناسبات العظيمة، عندما كانوا يرحلون من أقصاء الأرض لحضور أحد الأعياد الكبيرة ـ فإنهم، عوَض الهيكل، عظّموا من شأن المجمع بعبادته وقراءاته للناموس ونصائحه، ورحبوا بكل من أرادوا الاقتراب منه للانتفاع بامتيازاته والاتجاه بقلوبهم نحو إله إبراهيم. وقد عاد إلى أورشليم واستقر فيها الكثيرون من هؤلاء اليهود اليونانيين المتسعى الإدراك، بعد أن قضوا زهرة العمر فى تجارة موفقة. أما الممالك التى عادوا منها، فكانت تمثلها المجامع المختلفة: واحد للّيبرتيّين الذين تحرروا من العبودية، وواحد للقيروانيين، وواحد للإسكندريين، وآخر للذين من كيليكية وآسيا. أما ذكر الأخير، فإنه يزداد أهمية حينما نذكر أن طرسوس كانت أهم مدينة فى كيليكية.

وبعد غيبة بضع سنوات، عاد بولس ليستقر فى أورشليم، ولعل قادتها اليهود، بعد أن أُعجِبوا بمواهبه الممتازة وغيرته لليهودية، استدعوه ليقود، أو يشترك، فى الحملة ضد المسيحية التى كانت كل يوم تفضحهم بما لا يدع أى مجال للشك. والمرجح أيضا أنه، تسهيلا لمأموريته، أُعطِىَ فى ذلك الوقت كرسيا فى السنهدريم مكّنه من أن يعطى صوته ضد أتباع يسوع (أع ٢٦: ١٠).

أما فكرته الأولى عن أتباع «الطريق» (وهذا ما كان يلقّب به التلاميذ الأوائل)، فلم تكن فكرة طيبة على الإطلاق، فقد كان يبدو له أنه من الحماقة، بل من الجنون، أن يكون الناصرى المصلوب هو المسيا الذى طال انتظاره، أو أنه قام من الأموات. لذلك ألقى بنفسه فى الميدان، وتزعّم مناقشة استفانوس الذى كان قد أُعطِىَ فى ذلك الوقت مباشرة مركزا فى الكنيسة الحديثة العهد، والذى لم يرتض بالوقوف موقف الجبن كباقى المحافظين فى الكنيسة، بل تقدم إلى الأمام ليشق الطريق متبعا سياسة جريئة.

﴿٢﴾ شهادة استفانوس التى قدّمها بكل حكمة ونعمة فى مجامع أورشليم، سيما فى مجمع الكيليكيين:

ويتبين ثِقَل هذه الشهادة وخطورتها من احتجاجه الذى، وإن قصد به الدفاع عن نفسه، وإن تبيّن منه أنه مجرد سرد للتاريخ الماضى، إلا أنه ألهب قلوب السامعين، ووصل إلى أعماقها. يا له من خطاب رائع، لا يتبيّن عمق معناه، إلا حينما نذكر موقفه وظروفه.

كانت هذه أول محاولة لسرد رواية معاملة الله لإسرائيل فى ضوء المسيح، وأول تفسير للعهد القديم بواسطة العهد الجديد، والأساس الذى بُنِيَت فوقه رسالة العبرانيين، والفكرة التى أوحاها على الأقل لأحد سامعيه لزيادة التعمق فى دراسة التعاليم الموسوية. لقد أُعلِن لهذ اليهودى اليونانى المسيحى السر الذى ظل مخفيا عدة قرون وأجيال، والذى ربما كان لا يزال مخفيا عن الرسل. كانت عيناه أول العيون التى تفتحت لترى أن العهد القديم عتق وقرب من الاضمحلال، لأنه قد سما عليه رجاء أمجد، به يقترب كل البشر إلى الله.

ألا يمكن أن نتصور تلك المناقشات الحادة فى مجمع الكيليكيين بين هاتين الشخصيتين الناريتين القريبتين من بعضهما ـ كما سيتبيّن فى المستقبل ـ ولو بدا أنهما الآن متباعدان، كل منهما ملم إلماما كاملا بالكتاب المقدس؟ كل منهما قوى الحجة، قوى الشخصية... كل منهما متمسك بتقليدات الآباء. ولكن الواحد أُسدلت على عينيه غشاوة كثيفة، أما الثانى فكانت السماء مفتوحة أمام عينيه، وله أُعلِن ابن الإنسان قائما عن يمين الله.

أسىء فهم استفانوس جدا، كأغلب الذين ينطقون بحق الله لأول مرة. وهذا نستخلصه من التهم التى وجّهها إليه شهود الزور الذين سندهم السنهدريم. فقد اتهموه بالتجديف على موسى والهيكل والناموس، والمناداة بأن يسوع الناصرى سينقض الهيكل ويغيّر العوائد التى سلّمها موسى. وعندما نتأمل باهتمام فى احتجاجه، نتبيّن كيف تكوّنت هذه الآراء.

كان شاول يطنب فى أمجاد الهيكل، فالهيكل ـ فى نظره ـ باقٍ فى مكانه، حيث ظل يهوه يُعبَد أجيالا طويلة. أما استفانوس، فأكد بأن أى امرىء تقى يستطيع عبادة الله فى هيكل نفسه، وأنه لم يكن هنالك فى القديم حين كلم الله إبراهيم والآباء، وأن داود يئس من بناء هيكل، وأن سليمان، فى وقت تكريسه، اعترف صراحة بأن الله لم يسكن فى هياكل مصنوعات بالأيدى.

وشاول كان يصر على ضرورة فريضة الختان. أما استفانوس فقد صرّح بأنها ليست فريضة جوهرية، طالما أن الله قد أعطى المواعيد لإبراهيم قبل تأسيس هذه الفريضة.

وشاول كان يرى بأنه لا يُعقَل أن يكون يسوع هو المخلّص المختار من الله، لأنه لم يعترف به قادة إسرائيل ورعاتهم. أما استفانوس فقد بيّن أنه لا غرابة فى هذا، طالما كان يوسف قد بيع حسدا، وموسى قد رُفض فى ثلاث مناسبات «أىّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم؟»

وشاول قال أن كل الأنبياء أشاروا إلى مجىء المسيا فى مجده. أما استفانوس فقد اقتبس من موسى والأنبياء والمزامير، مبينا أنه كان يليق بالمسيح أن يتألم.

وشاول أكد بأنه لن يفوق موسى أحد. أما استفانوس فقد اقتبس من موسى نفسه الذى أكد بأن الرب الإله يقيم نبيا أعظم منه.

كل هذا أكده استفانوس بوقار واحتشام. فقد تكلم عن إله المجد، عن أبطال العهد القديم، داعيا إياهم «آباءنا»، عن الملاك الذى تكلم فى سيناء، عن أقوال الله الحية. ومع ذلك، لا ينكر أنه رأى بعين مفتوحة أن يسوع الناصرى يجب أن يغيّر العوائد التى سلمها موسى، ويقود كنيسة الحق بروحانية أعمق.

كان لا يخطر بباله أن يلقى البذار فى قلب عدوه اللدود، الذى كان مرتّبا أن يأتى بحصاد مائة ضعف، بل ملايين الأضعاف فى كل الأجيال، وفى حقل العالم الفسيح الأرجاء. هكذا قد يحمل النبات زهرة واحدة بيضاء، ولكن البذار التى تتناثر منها قد تأتى بمحصول لا يُعدّ من الكثرة.

ولكن، إذ نشب العراك بين جدران ذلك المجمع الكيليكى، فقد كان عراكا عجيبا. هنا سلطة عاتية، وهناك مسئولية فردية. هنا عبودية الحَرف، وهناك حرية الروح. هنا حرف الناموس، وهناك تعليم الروح القدس وإرشاد الله. هنا التعصب والكبرياء، وهناك التواضع والبصيرة الحادة. هنا قيود سجن النفس، وهناك السماء المفتوحة. كان ذلك العراك صورة مصغرة لمعركة الأجيال، الصراع الدائم بين المظهر والجوهر، بين التديّن الزائف وتديّن النفس التى تقف بوجه مكشوف أمام الله.

﴿٣﴾ الاستشهاد:

لا نعرف إلا القليل جدا عن حياة استفانوس ـ كما بيّنّا فيما سبق ـ أنه عرف يسوع مدة حياته على الأرض، لأنه عرفه فى الحال فى الرؤيا السماوية. ولعله اتبعه فى الفترة الأخيرة من مدة خدمته، فقد استطاع على الأقل بأن يصفه بأنه هو البار. كأنه قد وجد الفرصة سانحة ليمتدح برّه الذى بلا لوم. يقينا أنه رآه عند موته، لأن ملامح

جمال موته ظهرت عليه فى ساعته الأخيرة... يا لها من وداعة أن يحمل صليبه ويصلى من أجل قاتليه بمحبة إلهية، ويلفظ نسماته الأخيرة مسلّما حياته للأيدى غير المنظورة، ويجد فى الموت باب الحياة... ووسط ثورة الجماهير الجامحة وصخبهم، يجد سر الطمأنينة والسلام... هذه كلها أشعة من النور، اقتبسها من الصليب حيث سكب معلّمه للموت نفسه.

وهذا أيضا ما أثر بشدة فى نفس بولس، ذلك النور على وجه الشهيد، تلك النظرة الواضحة التى بها رأى القدّوس غير المنظور، تلك الكلمات، ذلك الصبر، وذلك الصفح، ذلك السلام الذى تدثّر به جسده الممزق المهشم الدامى، إذ رقد، لم يكن ممكنا أن ينسى هذه قط. بعد ذلك بسنوات طويلة، لما جاز فى ظرف مماثل من الحقد والضغينة، رجع بذاكرته إلى شهيد المسيح استفانوس، وحسبه شرفا رفيعا أن يقتفى آثاره. لم يكتف بأن يصوغ أحاديثه العظمى فى نفس قالب ذلك الخطاب الذى لن يُنسَى، ولم تؤثر فقط على كل تعاليمه وخدمته المستقبلة تلك الفكرة عن روحانية طبيعة ملكوت المسيح، بل يبدو أن نفس النور الذى شع من تلك الشخصية القوية، العذبة، النبيلة، قد تشبعت به نفسه، فأعاد إشعاعه «فى صبر كثير، فى شدائد، فى ضرورات، فى ضيقات، فى ضربات، فى سجون، فى اضطرابات، فى أتعاب، فى أسهار، فى أصوام، فى طهارة، فى علم، فى أناة، فى لطف، فى الروح القدس، فى محبة بلا رياء» (٢ كو ٦: ٤-٦).

هكذا غلبت دواما الكنيسة المستشهدة بكلمة شهادتها، لأن القديسين لم يحبوا حياتهم حتى الموت (رؤ ١٢: ١١). إن دماء الشهداء هى بذار الكنيسة، وتحطيم الزهرة هو نثر حبوب اللقاح التى تحملها، والمطرقة قد تحطمت على السنديان، وقوة الظالم الغشوم المضطهد تُغلَب بصبر فريسته. وشاول، الذى خلع الشهود ثيابهم عند قدميه، أمسك بعباءة النبى القديس الراحل وتدثّر بها.

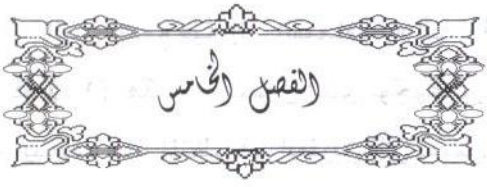

﴿ نور من السماء ﴾

﴿ أع ٢٦ : ١٣ ﴾

❖ «أما قلب رسولك... فإن وجهك المنير، قد ألهبه النور نار غيرة لا تنطفىء.»

﴿ كبل ﴾

إن كانت أهمية الحوادث تُقدّر بنسبة الحيّز الذى تشغله من الكتاب المقدس، فإن ظهور الرب المقام لشاول الطرسوسى، ليوقفه عن متابعة حياته الأولى، يجب أن يحتل المكان الثانى من رواية العهد الجديد. فالكتاب يتحدث عن ثلاث مرات بكل تدقيق فى تفاصيله: الأولى يرويها لوقا، والمرتان الأخريان يرويهما الرسول نفسه. وتحتل الرواية حيزا أكبر من أية رواية أخرى سوى صلب الرب يسوع.

وهذا يعزَّى أولا إلى الدور الهام الذى لعبه الرسول فى بنيان الكنيسة الأولى. والسبب الثانى هو لأن تجديده يعزَّى إلى فاعلية الرب المقام نفسه، الذى ظهر له بنفس الهيئة التى كان يظهر بها مدة الأربعين يوما. لم تكن مجرد رؤيا كالتى أعلنت ليوحنا لما كان فى الروح، ولا تأثيرا عابرا على المخيلة، ولا أوهاما تخيلية سريعة الزوال، بل إعلانا من الرب المقام، كالظهور الذى ظهر به إلى توما وأزال شكوكه.

من أقوى اقتناعات الرسول الداخلية، فى أيامه التالية، أنه رأى الرب حقا ويقينا. ولذلك، صار خليقا بأن يكون شاهدا لقيامته، كأى واحد ممن عاشروه، مبتدئا من معمودية يوحنا، إلى اليوم الذى ارتفع فيه إلى السماء... «ألست أنا رسولا... أما رأيت يسوع المسيح ربنا؟» (١ كو ٩: ١)، هذا هو السؤال الذى يوجهه. وبعد أن ذكر عدد مرات ظهور الرب بعد قيامته، يضيف هذا المنظر فى الطريق إلى دمشق، واضعا إياه فى نفس مستوى المرات الأخرى «وآخر الكل كأنه للسِّقْط[١] ظهر لى أنا» (١ كو ١٥: ٨). ويستخدم حنانيا نفس التعبير، عندما دخل الغرفة المظلمة التى ارتمى فيها الرسول كنسر محطم الجناحين، إذ قال: «قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق الذى جئت فيه» (أع ٩: ١٧).

ترك شاول أورشليم قبل ذلك بستة أيام ومعه حاشية صغيرة أمده بها رئيس الكهنة لحراسته. كانت الرحلة طويلة وموحشة، فأعطت فرصة للتأملات الهادئة التى لم يعهدها إلا نادرا خلال الحوادث الصاخبة فى الشهور السالفة. فقد كان منشغلا جدا بتلك الزيارات التفتيشية، والمحاكمات المستمرة، والجَلد المستديم، والتعذيب، والاستشهادات المتوالية. وفى هذه المشاغل الجارفة، كان مندفعا بشدة فى تيار تلك الحوادث، دون أن يجد وقتا ليتنفس فيه الصعداء، أو التفكير فى اتجاهها الحقيقى.

كان الوقت ظهرا... وبعكس أغلب المسافرين، رفض أن يقضى حتى ساعة واحدة للاستراحة فى خيمته، والاحتماء من حرارة الشمس الخانقة. كان متعبا جدا من تأملاته، متعطشا للبدء فى مهمته. وبغتة، ترك الركب فى الصحراء القفراء التى سار فيها طويلا، وبدأ يسير تحت ظلال أشجار الزيتون العتيقة، وبدأت دمشق تبدو للناظرين فجأة من بعيد، وسط الخضرة اليانعة بحدائقها الغناء وبساتينها الهيفاء.

---

(١) السِّقْط: الولادة قبل الأوان (ميّتا). ويقصد بولس الرسول وكأنه طفل وُلد فى غير أوانه، فقد كان يعتبر نفسه أصغر الرسل شأنا، وليس أهلا لأن يُدعَى رسولا، لأنه اضطهد كنيسة الله.

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

والآن، قربت نهاية المرحلة الطويلة... بعد ساعة أو اثنتين يدخل أبواب المدينة، ويعبر الزقاق الذى يقال له «المستقيم»، ليسلم رسائله إلى السلطات المسئولة، ويبحث عن أحسن الطرق للبدء فى إجراءاته. لكن، بغتة، أبرق حوله نور عظيم أفضل من لمعان الشمس. ووسط النور، سمع صوتا باللغة الآرامية يدعوه باسمه، كان واضحا لديه كل الوضوح، رغم أن رفقاءه لم يفهموه قط (أع ٢٦: ١٤).

وفى ضوء ملاحظاتنا السابقة، لم يكن هناك أقل شك فى مصدر هذا النور، فقد جاء من وجه المخلّص المجيد. بمثل هذا النور أضاء على جبل التجلى عندما أضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور، وعكست كل الثلوج المحيطة مجده وبهاءه. يحدثنا يوحنا عن هذا المجد والبهاء إذ يصف الرؤيا التى أُعطِيَت له فى بطمس. ولكن، لعل ظهور السيد الفعلى فى طريق دمشق كان أمجد وأعظم. ففى الحالة الأولى (رؤيا يوحنا)، كان «وجهه كالشمس وهى تضىء فى قوتها» (رؤ ١: ١٦)؛ أما فى الحالة الثانية، فقد كان مجد وجهه «أفضل من لمعان الشمس» (أع ٢٦: ١٣).

فى نور تلك اللحظة، أبصر الرسول أشياء كثيرة. كان كبرق خاطف أبرق فى هاوية، فكشف أمورا خبيئة كانت مختفية تماما، أو لم يُعرَف عنها إلا القليل.

فى مجد هذا النور، اقتنع بحقيقة المسيحية. لم يكن اعتراضه على المسيحية أن يسوع الناصرى قد صُلب. لو كان هذا هو كل ما فى الأمر، لكان الفرّيسى الشاب بجّله. فإن حياته التى كانت بلا لوم، وتعاليمه عن روحانية طبيعة الله ووحدتها، وعن قيامة الأموات، وعدم خوفه من فضح كل ما كان باطلا ورذيلا ــ كل هذه كان من الممكن أن تنال إعجابه. ولكن الأمر الذى لم يحتمله أن يدّعى بأنه هو المسيا، أو أن يتهم أتباعه الحكام بقتل الملك الذى طال انتظاره.

لم يكن هنالك ما يقنعه سوى أمر واحد، كان يجب أن يرى يسوع الناصرى هذا ــ الذى كان يعلم بأنه صُلب ــ حيا فى العالم الآخر، ويتمكن من التحقق من شخصيته، ويسمعه يتكلم. إن أُعطِىَ مثل هذا الدليل، أصبح دليلا قاطعا. ولكن، لم يكن ممكنا أن يجدى معه أى دليل آخر. إن أمكن أن يتكلم إليه من السماء الإنسان الناصرى وصليبه،

يشع منه النور، ومستخدما قوته الإلهية، تبددت كل اعتراضاته، واضطر أن يشترك مع أحد أتباعه الذى صرخ قائلا: «ربى وإلهى».[١]

وقد أعطى إليه نفس هذا الإعلان... لم يكن ممكنا أن يكون حلما، أو رؤيا، أو وهما. وكان فى كامل وعيه وصحوه، لأنه لم يكن ممكنا أن يسمح بأن يكون تغيير حياته برمتها مؤسسا على أوهام باطلة. وفى كتاباته، نراه دواما يميز بين هذه الأوهام وبين ظهور الرب له فى طريق دمشق. وكما قال بَرنابا فيما بعد مفسرا للرسل أنه «أبصر الرب فى الطريق وأنه كلمه» (أع ٩: ٢٧). لقد أحس فى الحال أن الحياة ينبغى، منذ تلك اللحظة، أن يكون لها معنى جديد، وغرض جديد، وأنه ينبغى أن يعيش لكى يثبّت هذا الإيمان الذى تسرّب إلى قلبه بمثل هذه القوة.

فى مجد ذلك النور، رأى الإعلان الأسمى عن الله. تعلن الطبيعة بعض الحقائق عن الله؛ فمجده ظاهر فى العوالم السيارة، وفى المتسع اللانهائى للمحيطات والبحار، وفى مباهج الطبيعة المختلفة بالليل والنهار، فى الحقول والأزهار، فى وجه السماء والقفار. من البدء «مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد، وهو يفعل خيرا، يعطينا من السماء أمطارا وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعاما وسرورا» (أع ١٤: ١٧)، والسموات تحدّث بمجده، والفَلَك يخبّر بعمل يديه... يوم إلى يوم يذيع كلاما، وإن كان لا يوجد هنالك قول أو كلام. وليل إلى ليل يبدى علما، وإن كان لا يسمع صوتهم (مز ١٩: ١-٣). وهكذا، فإن «أموره غير المنظورة تُرَى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته» (رو ١: ٢٠). على أن هذا النور (الذى ظهر لشاول) كان أفضل من لمعان الشمس، وتضاءلت بجانبه كل عجائب الطبيعة، كما يتضاءل نور الكواكب أمام نور الفجر.

---

(١) هذا التابع هو «توما» أحد الاثنى عشر، والذى لم يكن موجودا مع التلاميذ عشية أول الأسبوع، ولم يصدقهم حين قالوا له أن الرب ظهر لهم. وبعد ثمانية أيام، ظهر لهم يسوع وتوما معهم، فقال له الرب: «هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدىّ، وهات يدك هنا وضعها فى جنبى...» فأجاب توما: «ربى وإلهى» (راجع يو ٢٠: ١٩ - ٢٩).

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

وكان هنالك إعلان آخر لإسرائيل. فإن النور الذى أضاء على وجه موسى، كان يرمز إلى الإعلان الأكمل الذى أعطاه الله لشعبه المختار عن نفسه. كان ذلك النور عظيما حتى أن بنى إسرائيل لم يستطيعوا النظر إلى موسى بسبب مجد وجهه، فاضطُر أخيرا إلى تغطيته بالبرقع. ولكن هذا البرقع أيضا كان يرمز إلى عمى إسرائيل عن أن يروا عظمة الإعلان الذى أُعطِيَ إليهم.

على أن مجد الله على وجه يسوع كان أفضل من لمعان أى عهد سابق. كان ذلك عهد الحرف، أما هذا فعهد الروح... كان ذلك خدمة الموت، أما هذا فخدمة الحياة... كان ذلك وقتيا وقد زال فعلا، أما هذا فهو الضياء اللانهائى الدائم لمحبة الله. لا توجد طريقة مفهومة للإعلان الإلهى تفوق النور الذى يشع من وجه يسوع. كانت ملامح الوجه الذى تطلّع من فوق، من باب السموات المفتوح، على ذلك المضطهد، ملامح بشرية، ولكنها كانت تتأجج بنور الحضرة الإلهية الذى اجتاز بين قطع ذبائح إبراهيم، والذى اشتعل فى العليقة، والذى أنار الطريق لإسرائيل لعبور البحر الأحمر، والذى دفع الكهنة بتيار مجده الرهيب من القدس إلى الدار الخارجية عند تكريس هيكل سليمان... لقد رأى مجد الله فى وجه يسوع الذى كان يضطهده.

أتريد أن تعرف الله؟ يجب أن تراه فى يسوع. كان ابن الإنسان يعزو أقواله وأعماله إلى الآب لكى نعرف الآب فيه... «الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم» (يو ١٧: ٨)، «الأعمال التى أعطانى الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها» (يو ٥: ٣٦)، «ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى» (يو ٩: ٤). وعمل المصالحة الذى تم للإنسان الخاطىء، أتمه الآب فيه، إذ أنه «كان فى المسيح مصالحا العالم لنفسه» (٢ كو ٥: ١٩). ونحن لا نريد شيئا آخر غير هذا، كما أنه لا يوجد شىء آخر غير هذا. وفى السماء نفسها، سوف نرى نور مجد الله فى وجه يسوع، لأن أبصارنا سوف تصير أقوى لاحتماله، وبصائرنا أعمق وأكمل. لقد أضاء النور قبل أن تُخلَق الشمس، وسوف يضىء عندما تُظلم الشمس والقمر والكواكب وتَبيد.

وفى إعلان ذلك النور، رأى شاول الطرسوسى الطبيعة الحقيقية للحرب التى أثارها ضد ديانة يسوع. كان أول اسم أُطلِق على هذه الشيعة الجديدة ــ كما رأينا ــ هو «الطريق»، وفى السنوات التالية، كان الرسول فخورا باستعماله «ولكننى أقر أننى،

حسب الطريق الذى يقولون له شيعة، هكذا أعبد إله آبائى» (أع ٢٤: ١٤)؛ كانت تسمية رقيقة ممتازة. إن تلك الجماعة الجديدة البسيطة وجدت «طريقا جديدا حيا» لمعرفة الله وعبادته، وتقدّست بواسطة جسد المسيح الذى أسلمه للصلب كهنتهم ورؤساؤهم.

كان الشاب شاول فى حالة جنون شديد ضد رواد ذلك «الطريق»، وكان «يسطو» عليهم، وهذه الكلمة تستعمل عادة عندما «تسطو» الخنازير البرية على الكروم الرخصة لاستئصالها. كان يحاول إبادتهم بكل ما أوتى من قوة. لم يقنع بالهجوم على اجتماعاتهم العامة، بل يتفقدهم فى بيوتهم، ويجر النساء الوديعات القديسات والرجال غير المتذمرين، ويجلدهم، ويزج بهم فى السجون، ويدفع بهم للموت، ويحاول أن يلزمهم أن يجدفوا على الاسم المقدس الذى دُعوا به... كان ينفث تهديدا وقتلا كوحش مفترس.

وقد بلغت به درجة الجنون ضدهم أنه، إذ رأى كنيسة أورشليم قد أقفرت، اتبع نفس الطريقة فى المدن البعيدة. وفى هذه الفرصة الخالدة، الراهنة، أخذ رسائل إلى دمشق، حتى إذا وجد أناسا من «الطريق»، ساقهم موثقين إلى أورشليم للقصاص.

تفتحت أمام المضطهد مشاريع عظيمة. ورغم أن طبيعته الرقيقة لابد أن تكون قد نفرت من جهوده الوحشية الدموية، ورغم أن مناظر التعذيب الذى قاساه المسيحيون بسببه كانت بغيضة جدا، إلا أن المدح الذى كان يكيله له أقرانه، والتشجيعات الحماسية التى لقيها منهم، دفعته دفعا لمتابعة السير فى الطريق الذى دخله.

وعلى أى حال، فقد كان هناك باعث أعمق لمتابعة عمله: «هذا يقينا ما يحتمه الواجب على شخصى»، فإن عملية الاستئصال هذه بدت أمامه جزءا من واجبه الدينى. كان اعتقاده بأنه مدين لله بأن يلاشى أتباع يسوع، وأنه، على قدر ما كانت هذه العملية منفرة لطبيعته، زاد جزاؤه من السماء. ألا يمكن أن تكون هذه الجهود شفيعة له للتجاوز عن إهماله فى تتميم كل مطالب الناموس، الأمر الذى كان يعذب ضميره بين الآونة والأخرى؟ ألا يمكن أن يكون تغلّبه على اشمئزاز ضميره مكفرا عن سقطات كثيرة؟ ولكنه كان يجهل ما يفعل، كجنود الرومان الذين، إذ صلبوا الرب، كانوا «لا يعلمون ما يفعلون»... «أنا الذى كنت قبلا مجدفا ومضطهدا ومفتريا . ولكننى رُحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان» (١ تى ١: ١٣).

وإذ سطع هذا النور على طريقه، استيقظ ليرى أنه، بدلا من خدمة الله وعبادته، كان يتصادم معه، وكان فعلا يستأصل ويُتلف ما بذل فى سبيله ابن محبته الدموع والدماء. كان باضطهاده شيعة الناصريين، يضطهد ابن الله. وكل ضربة لطم بها الكنيسة الفتية، كان بها يمزق هاتين اليدين، ويطعن ذلك الجنب. وكل الأنات والتنهدات التى تصاعدت من أعضاء ذلك الجسد، كان يتجاوب صداها فى الرأس فى السماء، فيردد له فى كل مرة: «شاول، شاول، لماذا تضطهدنى؟» كان هذا اكتشافا مرعبا ومروعا؛ فقد بدت الأرض أمامه كأنها تئن وتتوجع. وقد تبيّن له أن ديانته دفعته إلى التصادم مع الله فى شخص أولئك الذين أحبهم. وبدلا من أن يكونوا هم على خطأ وهو على صواب، فقد اتضح له أنهم على صواب وهو على خطأ. وبدلا من أن تكون غيرته العمياء مرضية لله، اتضح له أنها محزنة، وأنها تذخر له غضبا فى يوم الغضب. يا له من اكتشاف مروّع، حينما يبيّن نور عظيم من السماء أن ما كان يعتبره المرء واجبه الخطير إنما هو خطية، طال بها العهد، ضد أعز مقاصد الله.

وهذا النور أيضا أعلن قصور حياته الدينية. كان يعتقد أنه يحيا الحياة المرضية، فلم تكن هنالك وصية من وصايا الشيوخ لم يتممها، وكان يظن أنه بلا لوم حسبما تقتضيه ديانته. نعم، ألم يذهب إلى مدى أبعد من وصايا الشيوخ بغيرته التى حاول بها هدم الكنيسة؟ ولكنه اضطر أخيرا للاعتراف بعدم راحة ضميره وعدم شبع نفسه. وقد بذل كل جهده لمقاومة هذا الشعور بالتمادى فى الاضطهاد. ومع ذلك، ظلت الحالة على ما هى عليه، بل كان فى بعض الأحيان يرى حالته تزداد سوءا (حسب اعتقاده) عندما يرى كل جهوده عديمة الجدوى.

كان عدم راحة الضمير يُعزَّى لسببين:

الأول: أنه أحس أن ديانته لم تُشبع نفسه، لم تعطه فكرة رقيقة عن محبة الله، كما فعلت فى نفس موسى أو دانيال، وبدت لديه أنها عاجزة عن كبح جماح إغراءات الخطية؛ فكثيرا ما وجد أن الخير الذى يريده لا يفعله، أما الشر الذى لا يريده فإياه يفعل، وكثيرا ما أحس أنه عبد مبيع تحت الخطية، وكثيرا ما صرخ صرخة مرة بأنه

إنسان شقى موثق بنير لا يُحتمل، أتعبه فى الصميم. وهنا، بدا له أنه لا أمل فى النجاة. كان كل ليلة يتأمل فى ساعة المساء فى إيجاد حل لمشاكله. فعلى الدوام تتكرر الفرائض الخارجية، وعلى الدوام يتكرر نفس الشعور المضنى بالعجز عن قضاء يوم واحد فى طاعة كاملة. ألم يكن هنالك شىء أفضل؟

الثانى: أنه بدا له أن تلاميذ يسوع الناصرى الودعاء هؤلاء لديهم شىء أفضل. فالوداعة التى بها تحملوا آلامهم كانت وداعة حقيقية لا عنادا، والطهارة التى اتسمت بها حياتهم العائلية زكّت ديانتهم، والنور الذى شع من وجوههم ساعة الاحتضار، وصلواتهم لأجل مضطهديهم، التى قدموها وهم يلفظون النفس الأخير، هذه بيّنت أنهم يمتلكون سرا عرف هو أنه خلوا منه. أيمكن أن تكون قويمة تلك الديانة التى زجت به فى خصومة مع هذه الشخصيات الحلوة المحبوبة؟ وفضلا عن هذا، فإنه كثيرا ما سمعهم يتحدثون عن معلمهم وعن حياته الكريمة الجوادة، وعن تعاليمه النقية السامية، وعن مُثُله العليا للحياة الداخلية، وعن إرشاداته لسلوك أتباعه. عندما فعلوا كل هذا، فإنهم حركوا أعمق إحساسات نفسه الداخلية. كان يبدو إليه بعض الأحيان أن هذا الناصرى قد اكتشف اللؤلؤة الكثيرة الثمن، وأن فى حوزته سر الحياة المباركة. ولكن كيف يمكن أن يكون هو المسيا مَن انتهت حياته هذه النهاية؟ ويا لها من سخافة أن يقال إنه قام ! مع أن الحراس الرومانيين صرحوا بكل تأكيد أن تلاميذه سرقوا جسده وهم نيام.

ولكن، كل هذه الأسئلة عن حياته الدينية، قد تركّزت وتأيّدت، عندما رأى بغتة يسوع الناصرى جالسا عن يمين العظمة فى الأعالى، يشع منه نور أفضل من لمعان الشمس. ماذا يمكن أن يقول عن بر دفع به إلى رفض ابن الله واضطهاده؟ وما هى قيمته؟ يقينا أن الذى دفعه لرفض واضطهاد ابن الله نفسه، فى أشخاص أتباعه، لابد أن يكون خداعا قاتلا وبيلا. كان يظن فى نفسه أنه بلا لوم، ولكنه، فى ضوء هذا النور، تبيّن له أنه أول الخطاة، وأنه ليس أهلا أن يُدعَى ابنا، بل يكون شاكرا إن حُسِبَ كأحد الأُجَراء.

واكتشف أيضا علة تعب قلبه وعدم راحة ضميره. إلى ذلك الوقت، ربما يكون قد عزا هذا إلى عنصر معتل فى تكوينه، أو إلى حالة نفسية فيه تميل إلى الحزن والكآبة، أو إلى رد الفعل الذى تُحدثه مناظر المتألمين، أو إلى ضعف يجب التخلّص منه بأسرع ما يمكن. أما الآن، فقد رأى أن ثورة الضمير هذه هى المناخس التى لطالما حاول الله بها إيقاظ ضميره، واقتياده للقيام بهذه المهمة الخطيرة التى أُعدّت له منذ تأسيس العالم.

عندما قال السيد: «صعب عليك أن ترفس مناخس»، فإن هذه الكلمات كشفت عن حقيقة المتكلم. فقد قيل عنه أثناء مدة خدمته على الأرض أنه بدون مَثَلٍ لم يكلم شعبه. والآن، نراه من السماء ينهج على نفس المنوال. فقد شبّه نفسه بشخص اشترى عِجْلة صغيرة بثمن كثير، وأتى بها إلى الحقل لجر المحراث فى اتجاه معيّن، ولكنها قاومت واتجهت اتجاها آخر، واضطرت قانيها لاستخدام المنخاس الحاد، وضغطه على جسمها إلى أن تطيع أمره. استيقظ شاول فجأة ليدرك أنه صار ملكا للرب الذى كان يحاول منذ مدة أن يرشده إلى الطريق المعين، وأن كل وخزات الضمير القاسية كان يقصد بها هذا الغرض الوحيد؛ كانت فكرة جديدة عن الحياة الدينية. منذ ذلك الوقت، يجب ألا يتمم إرادته، بل إرادة الله. يجب ألا يكتسى ببره، بل ببر الله. يجب ألا يقلع ويهدم، بل أن يبنى. يجب ألا يقاوم الناصرى، بل أن يحمل نيره ويتمم إرادته.

وهذا النور أيضا أعلن له طريق حياته المستقبلة. منذ تلك اللحظة، كان يجب أن يكون خادما وشاهدا لتلك الأمور التى رآها، والتى كان سوف يظهرها له المسيح. كل ما كان مطلوبا منه هو أن يعيش فى صلة دائمة وسلام مستمر مع المخلّص المقام، ناظرا إلى جماله، متفرسا فى هيكله، متقبلا رسائله لينقلها للآخرين.

هذا يكفى. لقد سأل بوداعة عما يجب أن يفعله، ماذا يريده منه أن يفعله معلم حياته الجديد الصادق. وإجابة لهذا السؤال، قيل له أن يتخذ الخطوة التالية التى كانت تنتظره أمامه، وأن يسمح بأن يُقتاد إلى المدينة. لم يخطر بباله تلك الآلام الجسيمة التى كان ينبغى أن يتحملها (أع ٩: ١٦)، قد كان هذا سرا همس المسيح به فى أذن صديقه

حنانيا، لأنه كان يكفى لهذا المولود الحديث أن يعرف ذلك فيما بعد. وعلى أى حال، فإن الخدمات التى يؤديها المرأ بالآلام لا تقل عن تلك التى يؤديها بالجهود العلمية، والعالم مدين لشهدائه بآلامهم، كما هو مدين لخطبائه وعماله بكلماتهم ومجهوداتهم.

وبعدئذ، مَثل أمامه فى سرعة البرق ـ فى الطريق، ثم بإعلان أكمل فى بيت يهوذا مدة ثلاثة أيام عزلته ـ المثل الأعلى الذى رسمه الرب لحياته: إنه يجب أن يُرسَل لليهود والأمم، وأنه، بشهادته، سيُستخدَم لفتح أعين العميان كى يرجعوا من ظلمات إلى نور، ومن سلطان الشيطان إلى الله، حتى ينالوا، بالإيمان به، غفران الخطايا، ونصيبا مع المقدسين (أع ٢٦: ١٨). هذه الفكرة كيّفت حياته، ظلت دواما فى ذاكرته، وكانت الأساس الذى بنى عليه أحد تصريحاته الرائعة (كو ١).

وكانت جعالة دعوته العليا التى بدأ يسعى إليها، هى أن يعلم المشيئة الإلهية، أن يبصر البار، أن يسمع صوتا من فمه، وأن يكون شاهده وإناءه المختار، أن يحمل اسمه أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل (أع ٩: ١٥ ؛ ٢٢: ١٤). لقد أحس بأن الله أدركه، وتحقق من بعض الغرض الذى لأجله أدركه، وبصبر الإيمان اعتزم أن يدرك هذا الغرض.

لم يكن ممكنا إلا أن يطيع الرؤيا السماوية التى دعته لحياة الجهاد وتكريس الذات. وكعلامة لوداعته وخضوعه، سمح لرفقائه باقتياده إلى المدينة التى كان يتوقع أن يدخلها كبطل مغوار، وانحنى خاضعا ليتقبل الإرشاد من أحد أولئك المؤمنين البسطاء الذين كان يتوقع أن يجرهم إلى أورشليم موثقين.

هذه عينة من انتصار نعمة الله التى تفاضلت فى حالة شاول.

﴿ إعلان المسيح الداخلى ﴾

﴿ غل ١ : ١٥ - ١٧ ﴾

❖ «كان قلبى متعجرفا، فأخضعته أنت يا ربى. وكانت إرادتى جامحة لتهين اسمك، وتنضم لأعدائك، ولكنك كبحت جماحها. فلتكن، لا إرادتى، بل إرادتك. منذ الآن كرّست لك نفسى، معترفا بك، يا مخلّصى الحى، ربا وإلها، وليكن صليبك علامتى.»

﴿ و. هون ﴾

فى هذه الآيات العجيبة الثلاث، نرى خلاصة لحياة الرسول بولس. فأولا: نرى إفرازه من بطن أمه حسب المقاصد الإلهية للعمل العظيم المبارك، أى خدمة الإنجيل. ثم نرى دعوته بنعمة الله عندما ناداه صوت من السماء، تبيّنته أذنه المستعدة، بينما كان كالرعد بالنسبة للآخرين. بعد ذلك، نرى الثلاث الخطوات المتوالية التى سنتأمل فيها الآن، وهى إعلان المسيح، خدمة العطف البشرى والمعرفة البشرية، عُزلته فى بلاد العرب. وفوق الكل، نرى بيانا لخدمته الجليلة، أى الكرازة بين الأمم، بغنى المسيح الذى لا يُستقصَى.

كان دخول شاول إلى دمشق يختلف كل الاختلاف عما كان يتوقعه. لعله كان يمنّى نفسه، أثناء رحلته المضنية التى استغرقت ستة أيام، بالاستقبال العظيم الذى يقابَل به من الرجال المسئولين فى دمشق، لدى وصوله إلى مدينتهم كسفير لرئيس الكهنة، مكلَّفا بمهمة استئصال الهرطقة الناصرية. ولكن، بدل المجد والكرامة، هناك الفزع والدهشة. لم يكن أحد يستطيع أن يفسر تماما أو يعرف ما حدث... وإذ نزل عن جواده وسار على قدميه، عوضا عن مظهر العظمة والكبرياء، كان هنالك مظهر الضعف والمسكنة لرجل أعمى يتلمس الأيدى التى تقوده. وبدلا من كل مظاهر الترحيب والتبجيل، كان يريد فقط الوصول إلى غرفة منزوية يسترد فيها قواه من النتائج المروّعة لذلك التصادم بين طبيعته الفاسدة الخاطئة، وابن الله القدّوس المجد الذى اضطهده بكل ما فيه من قوة.

وإذ كان مرتعبا ومنذهلا، بدا كأنه خائر النفس، كسير القلب. ولكن روحه كان يشع عليها نور مجد الله الذى رآه فى وجه يسوع، وتلك النار التى تلألأت فى العليقة المشتعلة التى أضاءت عليه فجأة. وكما يسطع البرق الخاطف فى ظلام الليل البهيم فيكشف عن الهوة التى يكاد يهوى فيها المسافر، ويُظهر المدينة الجميلة لحظة واحدة، أو القرية بغاباتها ونهرها ومراعيها... هكذا، فى لحظة، رأى شاول الله والمسيح، وأسفار العهد القديم، والخطأ الذى كان يسير عليه فى ماضى حياته.

ويلذ لنا أن نكشف، فى رواية تجديده، مصدر الكثير من التعاليم التى نادى بها الرسول فيما بعد.

«أنا يسوع الذى أنت تضطهده». هنا نجد تعرّف المؤمن للرب، متضمنا كل ذلك التعليم العجيب عن وحدة الرأس والأعضاء.

«لأنتخبك خادما وشاهدا». هنا أصل إشارته المستمرة عن حمل الشهادة.

«الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم». على هذه بنى دعوته ليكون بصفة خاصة رسولا للأمم. ولعله، فى ذلك الوقت، قد مر أمام عينى قلبه، للحظة، هذان الإعلانان العظيمان، اللذان ازدادا نورا فى السنوات التالية؛ **الأول**: أن الأمم ينبغى أن يكونوا

متساوين فى العضوية والميراث والشركة مع الأمة المختارة فى كل امتيازات الإنجيل وحقوقه. **والثانى:** لكى يرى جميع البشر شركة السر المكتوم منذ الدهور فى قلب الله، وغنى مجد هذا السر الذى هو: المسيح فيكم رجاء المجد (أف ٣)، وأنه حتى قلوب الأمم يمكن أن تكون مسكنا وهيكلا للمخلّص (كو ١).

فى (أع ٢١: ١٧ و١٨)، نجد خلاصة للإصحاح الأول من رسالة كولوسى. هاتان الآياتان، فى الواقع، هما مصدر آراء الرسول عن تبرير النفس وتقديسها. وتكاد كل رسالته تدور حول هاتين النقطتين: غفران الخطايا، وميراث مع المقدسين، وذلك بالإيمان بالمسيح الحى.

فى ذلك الوقت الذى تكونت فيه حياته، كانت هنالك ثلاثة عوامل أثرت فيه: عمل الله فى قلبه، الاتصال بحنانيا، تهذيب عزلة الصحراء.

﴿١﴾ عمل الله فى قلبه:

«سُرَّ الله أن يعلن ابنه فىّ»... عرف الرسول كثيرا جدا عن الحياة الإلهية، لدرجة مكّنته من أن يعرف بأن التغيير العظيم الذى تم فى حياته، يعَزَّى كله لما رآه بعينى جسده اللتين انطمستا وقتئذ.

كان واثقا من أن العمل الحقيقى الدائم لا يمكن أن يتم، إلا إن أبصرت العين الداخلية الأشياء التى تخفى عن الحواس الجسدية. وبعبارة أخرى: إن الله الذى قال أن يشرق نور من ظلمة، لابد أن يشرق فى القلب لإنارة معرفة مجده فى وجه يسوع المسيح (٢ كو ٤: ٦).

تصور وفرة الإعلانات التى أعلنت لذلك الشخص الذى سبق أن انطمست عيناه مدة الثلاثة أيام والثلاث ليال التى قضاها فى صمت وعزلة فى بيت يهوذا. أهو عجيب أن تغافل عن حاجيات الجسد، ولم يأكل ولم يشرب؟ هنالك ساعات نفقد فيها كل الإحساسات الأرضية ونعيش فى السماويات، نغافل فيها النفس عن إحصاء الدقائق التى تمر وتبسط قلاع سفينتها لتبحر من الأرض، فتجد ذاتها فى عرض محيط الأبدية. هكذا كانت اختبارات نفس شاول.

يا لها من أسرار عميقة، تلك التى بدأت تمر أمامه، كمنظر هيبة الله عندما أعلن اسمه لموسى على الجبل. فى بعض الأحيان، ندعو هذا اكتشافا، والأحرى أن ندعوه كشفا. هل هنالك ما يسمى اكتشافا؟ فالاكتشاف يطلق بالأحرى على كل اختراع، على كل إعلان جديد فى الطبيعة. عندما يُصعِد الله الإنسان إلى جبل الرؤى، ويريه ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، ويأمره بكتابتها فى سفر للأجيال القادمة. فى تلك الساعة العجيبة، كشف الله لعبده أسرارا كانت مكتومة فى الأزمنة الأزلية، ولكنها أُعلِنَت إليه، حسب أمر الله الأزلى، لكى يعلنها لجميع الأمم لإطاعة الإيمان (رو ١٦: ٢٥ و٢٦).

ولكن الإعلان الذى كان تاجا لكل الإعلانات، هو هذا الذى يضع عليه تشديدا خاصا: كان أمرا عظيما أن يتعلم بأن يسوع الناصرى هو فعلا ابن العلىّ، وأن المسيح كان يجب أن يؤَلَّم ويكون أول قيامة الأموات لينادى بنور للشعب والأمم (أع ٢٦: ٢٣). وكان أمرا عظيما أن يتعلم بأن غفران الخطايا، وميراث الحياة المقدسة، هما عطية الله لكل من يطلبها بالإيمان. وكان أمرا عظيما أن يكتشف بأنه لا فرق بين اليهودى واليونانى، بل إن الله هو رب واحد للجميع، غنى للجميع (رو ١٠: ١٢). ولكن، كان أعظم من الكل أن يكشف له حلول المسيح وسكنه فعلا فيه بروحه. وأنه، بينما يكون هو فى المسيح، فالمسيح يكون فيه أيضا، كما أنه إن كان الغصن موضع فى الكرمة، فالكرمة تعيش بالغصن.

أيتها النفس البشرية، هل أُعلِنَت لك هذه الرؤيا؟ أتدركين أن المسيح فيك؟ إن كنت تؤمنين حقا، فإنك لا تشكين فى أن المسيح فيك... «أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم إن لم تكونوا مرفوضين؟» (٢ كو ١٣: ٥). مع هذا، فإنكم قد تجهلون هذه الحقيقة الرائعة. فاطلبوا من الله أن يعلن ابنه فيكم، أن يهبكم بأن تعرفوا اختبار غنى مجد هذا السر. عندئذ، يمزق الله حجاب الحياة الداخلية إلى اثنين من فوق إلى أسفل، وفى قدس أقداس روحك يكشف عن حلوله الإلهى. وعليكم إتمام شرطين فقط، هما: **أولا**: يجب أن تكونوا مستعدين لإخضاع إرادتكم للصليب، **وثانيا**: يجب أن تنتظروا أمام الله فى صمت أرواحكم وعزلتها.

لقد سُرَّ الله أن يعلَن لشاول الطرسوسى، وهو يُسَرّ بنفس القياس أن يعلَن لك، لأنه يريد أن يمجّد ابنه، ويهب ملء البركة لأبنائه. فاطلب من النعمة السماوية أن تزيل عن عينيك كل غشاوة، وتعلن لك الضياء الكامل.

﴿٢﴾ الاتصال بحنانيا:

إن الله يسمح لعبيده القديسين الودعاء بمساعدة النفوس التى على وشك تحطيم قيودها. فالفتاة الصغيرة،[١] إذ قامت من الموت، كانت فى حاجة للطعام. ولعازر، عندما أقامه الرب، كان فى حاجة إلى أن تُفَكّ أكفانه. والخدمات التى يمكن للمرء أن يقدمها للآخرين، نراها واضحة بكيفية رائعة فى هذا القديس البسيط القلب ـ حنانيا ـ الذى دعاه الرب فى تلك اللحظة للظهور فى هذا المنظر، والذى ائتمنه على مفاتيح الملكوت، لكى يفتح الطريق للدخول إلى حياة السلام التام.

لا نعرف إلا قليلا جدا عن حنانيا، لا نعرف سوى أنه كان رجلا تقيا، سالكا حسب الناموس، مشهودا له من اليهود. لكن، واضح أنه كانت له معرفة وثيقة بسيده، وكان الرب مستعدا أن يزيده إيضاحا وتأكيدا قبل إرساله... إن الفتيلة الصغيرة جدا تشعل الفنار العظيم.

﴿١﴾ رحب به ترحيبا أخويا: رغم أنه كان يعرف تماما الغرض من زيارة شاول للمدينة، إلا أنه حياه التحية العذبة الرقيقة، داعيا إياه أخاه: «أيها الأخ شاول». يا له من تأثير رائع، ذاك الذى بعثه هذا الأسلوب من الحديث فى قلب المتجدد الجديد... لم تعرف الفرّيسيّة مثل هذه اللهجة. وإذ أحس باقتراب هذا الأخ الجديد منه، واقفا بجواره، وواضعا يده على جبهته المرتعشة، تأكد بأن المحبة البشرية كانت علامة ورمزا للمحبة الإلهية... آه، أيتها المحبة الإلهية، إن كانت محبة الإنسان قوية ورقيقة بهذا المقدار، فكيف لا تكونين أقوى وأرق، حتى وإن كنت (أنا) قد اضطهدتك إلى هذا الحد؟

---

(١) ابنة يايرُسُ رئيس المجمع (انظر لو ٨: ٤١ و٤٢ و٤٩-٥٦).

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

﴿٢﴾ **وأوصل إليه بركات لا تُقَدَّر قيمتها:** لأنه أولا، بوضع يديه، عاد البصر إلى العينين اللتين لم تبصرا شيئا منذ بهرهما مجد ذلك النور. وكانت أيضا لمسة ذلك الرجل التقى، مصحوبة بطبيعة الحال بصلاة الإيمان، علامة على قبول نعمة الروح القدس، ليملأه ويمسحه ويعدّه للخدمة المباركة.

﴿٣﴾ **وعمّده:** يا لها من معمودية مباركة... يا له من تأثير قوى غمره إذ تحقق أنه اتحد مع يسوع بشبه موته. فكانت ذكريات تلك اللحظة الرهيبة جديدة أمامه، بعد ذلك بسنوات طويلة، وهو يشير إليها فى مرارة بكلمة «نحن» أو حرفىّ «نا» فى (رو ٦)... «إننا، كل من اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته»، «فدُفِنَّا معه»، صرنا متحدين معه بشبه موته». وكانت تلك المعمودية الحد الفاصل بينه وبين حياته الماضية، وبين جماعة الفريسيين، وبين اضطهاده لأتباع «الطريق». منذ تلك اللحظة، صار واحدا من أتباع الناصرى جهارا. منذ ذلك الحين، حمل صليبه، وبدأ يتبع سيده. يجب أن يكون صليب يسوع وقبره الآن، حائلا بينه وبين كل ما كان فى الماضى: كل أصدقائه، مطامعه، آرائه. وفى الوقت نفسه، يجب أن يحوّل وجهه نحو الكد والتعب، والجوع والعطش، المخاطر والاضطهادات، مع تسليم نفسه للموت كل يوم من أجل يسوع.

كانت هنالك فكرة أعمق. كان يعلم أن أصل الخطايا هو الخطية، الأنانية، الجسد. كان هذا هو المحرك له فى كل أيام حياته. كانت جهوده نحو البر، وغيرته ضد الكنيسة، دليلا على مبدأ الأنانية الذى تملّك عليه. لذلك اعتمد، منذ ذلك الوقت، أن يموت عنه، ويقبل الوضع الذى قُدِّمَ إليه فى الرب المقام من الأموات، ويبطل جسد الخطية الذى كان محور الدائرة فى كيانه، إذ حل محله روح الحياة الساكن فيه الذى فى المسيح يسوع...

نعم، بالحياة أو بالموت أو الأحزان أو الآلام

سوف أجد فيه كل كفايتى

يسوع هو النهاية لأنه هو البداية

يسوع هو البداية لأن النهاية هى يسوع

ربما كان يَخفَى عن حنانيا كل ما كانت تعنيه تلك المعمودية لأخيه الجديد شاول، فهذا الشخص البسيط لم يكن بعد قد سلك طريق الصليب الشائكة. نحن نجهل ما يجول بخاطر أقرب الناس إلينا فى مدرسة الحياة الغريبة. على أن خدمته الأمينة لابد كانت معزية جدا لهذا التلميذ الجديد إذ اتحد بصليب المسيح، وبدأ منذ تلك اللحظة يكمل نقائص شدائد المسيح. كان كل ما عرفه حنانيا أن الرب قال له: «إننى سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمى».

﴿٣﴾ تهذيب عزلة الصحراء:

«للوقت لم أستشر لحما ودما، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلى، بل انطلقت إلى العربية». ليس واضحا تماما إن كان قد بدأ الكرازة قبل ذهابه لبلاد العرب، والأرجح أنه لم يبدأ، لقد أراد أن يكون فى عزلة ليتأمل فى كل ما رأى، ليوفق بين القديم والجديد إن أمكن، بين الحاضر والماضى. لهذا، فلابد أنه لم يمل فرصة الهدوء، لأنه كان متعطشا لعزلة البرية.

كان ممكنا لأمثال حنانيا أن يزيدوه تأكيدا، وكان ممكنا لرسل الرب أن يقدموا إليه الكثير من تعاليم المخلّص وأنباء خدمته العجيبة، وكان ممكنا لجمال حياة الكنيسة المبتدئة أن يهدّىء روحه وينعشها. ولكنه أراد، قبل كل هذا، أن يختلى بيسوع ليعرفه وقوة قيامته، والمسحة التى لا تدع مجالا لتعليم البشر لأنها تُعلِّم كل شىء. لا شك فى أن ثلاث سنوات تُقضَى فى تعليم كهذا تجعله فى غاية الاقتدار، لدرجة أنه عندما التقى بعد ذلك بالمعتبَرين بين الرسل لم يستطيعوا أن يزيدوه علما (غل ٢: ٦).

والأرجح أن المقصود بالعربية شبه جزيرة سيناء بسكانها القلائل جدا، ومناظرها الطبيعية الجميلة، بذكرياتها عن موسى، والخروج، وإيليا.

لابد أن تلك النفس، المتقدة غيرة، قد تعمقت فى تفهّم المعانى الداخلية لكل المناظر التى حفل بها هذا الجبل الرهيب. هنا اشتعلت العليقة بالنار التى اضطرمت فى قلبه الآن... هنا رأى موسى الله كما رأى هو يسوع... هنا أُعلِنت صورة خيمة الاجتماع

كما أُعلنت له صورة الكنيسة... هنا تدفقت المياه من الصخرة التى ضربها موسى، وتلك الصخرة كانت المسيح... هنا وقف إيليا فى باب المغارة ونفذ الصوت الهادىء الخفيف إلى قلبه؛ وهل لم يسمع هو نفس ذلك الصوت؟ تحت سماء ذلك المكان، بشمسها المحرقة نهارا ونجومها المتلألئة ليلا، تحرك عمود السحاب ليقود شعب الله. وفى نفس البرية وجد نفس القيادة. من شهر إلى شهر كان يتجول هنا وهنالك ليشترك مع الأسينيين فى حياتهم الخشنة أحيانا، أو مع إحدى عائلات البدو، أو يحلّق فى شركة سماوية أحيانا، أو يغوص فى تأملات روحية أحيانا أخرى. إن «مركبات الله ربوات، ألوف مكررة» (مز ٦٨: ١٧)، وكلها كانت رهن إشارته لتحمله إلى فوق، إلى السماويات.

والأرجح أن أهم عمل له فى تلك السنوات، كان مراجعة كل حقائق العهد القديم من وجهة النظر الجديدة إزاء آلام وموت المسيا. لم يكن لديه أقل شك فى أنه «وإن كان قد صُلب من ضعف، لكنه حى بقوة الله» (٢ كو ١٣: ٤). ولكن، كيف يمكن أن يتفق هذا مع نبوات الرائين والأنبياء فى العهد القديم، الذين خُيِّل لكثير من الربيّين أنهم تنبأوا عن رئيس ظافر منتصر؟ كيف تأمل، بكل حرص وتدقيق، فى جميع الآيات المشهورة التى تشير إلى المسيا؟ يا له من فرح عظيم غمره، إذ تبيّن له أنها كلها تتفق مع آلام المسيح حتى الموت كطريق لدخول مجده. ويا لها من دهشة عظيمة عن المعنى الواضح كل الوضوح للكلمة الإلهية (٢ كو ٣).

نستطيع أن نعرف تماما كيف أنه، لدى عودته إلى دمشق مباشرة، كان يجب أن يذيع أن يسوع هو ابن الله، وكان يجب، بصفة خاصة، أن يُقنع اليهود الساكنين فيها محققا أن هذا هو المسيح. فى تلك التأملات الهادئة فى «الكلمة»، كان يختزن الكثير من الحجج لاستخدامها فى مجامع كثيرة مدة العشرين سنة التالية، ليستطيع تقديم البرهان، من الكتب المقدسة، مؤكدا أنه كان يليق بالمسيح أن يتألم ويقوم ثانية من الأموات، وأن يسوع هذا هو المسيح.

ويكاد يكون من المؤكد أيضا أن الروح أرشده، فى ذلك الوقت، لتفهّم العلاقة بين الناموس والعهد الأسبق الذى قطعه الله مع إبراهيم. إلى تلك اللحظة كان ابنا للناموس، باذلا كل جهده لإتمام كل مطالبه، ولكنه كان يئن تحت شعور مستمر بالفشل

والدينونة. والآن، أرشده الله ليرى أنه وكل شعبه قد استخفوا بالوعد الذى أُعطِىَ لإبراهيم، الذى لم تُشترط فيه الأعمال، بل الإيمان. وحسب تعبيره، أنه تحقق أن الناموس الذى صار، بعد أربعمائة وثلاثين سنة من قطع العهد، لا ينسخ هذا العهد أو يبطل الموعد (غل ٣: ١٧). لقد تدرّج إلى الوراء من موسى إلى إبراهيم، ومن مرتفعات ممرا رأى خدمة الناموس، المؤقّتة والمحدودة، الذى «زيد بسبب التعديات إلى أن يأتى النسل الذى قد وُعد له [أى الذى له الوعد]» (غل ٣: ١٩).

فى ضوء هذه الرؤيا، استطاع أن يزداد فهما لدعوته أن يكون خادم الأمم، لأن هذا كان ضمن ما احتواه العهد الإبراهيمى «فيك وفى نسلك تتبارك جميع أمم الأرض» (تك ١٢: ٣ ؛ أع ٣: ٢٥ ؛ غل ٣: ٨).

على أن عمل الله فى نفسه كان أعمق من كل هذا. فقد كان يتلاشى منه تدريجيا كبرياؤه واعتماده على ذاته وتسرّعه. وما حصل مع موسى، مدة الأربعين سنة التى قضاها فى رعاية الغنم فى البرية، حدث مع شاول الطرسوسى؛ فإنه لم يعد معتدا بذاته، بل كان، منذ تلك اللحظة، مكتفيا جدا أن يكون عبدا ليسوع المسيح، يذهب أينما أُرسل، ويفعل كل ما أُمر به، ومسلّما ذاته ليكون أداة لإتمام مشيئته.

كلنا فى حاجة للذهاب إلى البرية لنتلقى دروسا كهذه. فالرب نفسه «كان يقتاد بالروح فى البرية»، وكل نفس أتمت عملا عظيما فى العالم، مرت عليها ــ بهذه الطريقة أو تلك ــ فترات مماثلة، جازت فيها الانزواء والآلام ومرارة الفشل أو العزلة.

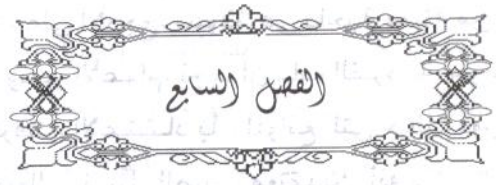

﴿ الاستعلان الفجائى للغرض من الحياة ﴾

❖ «أما أنت فَتَطَّقْ حقويك وقم وكلمهم بكل ما آمرك به. لا ترتع من وجوههم... لأنى أنا معك يقول الرب لأنقذك»

﴿ إرميا ﴾[١]

تعنى الأم عناية بالغة الحد بأن تراقب تدرج صفات ابنها من الطفولة إلى الرجولة. على أنه مما يتطلب عناية أشد، أن نراقب الخطوات المتتابعة للاستعلان الفجائى للغرض من الحياة لنفس وُلدت جديدا. عند تجديد الحياة، ينبعث من شفاهنا بطبيعة الحال سؤالان؛ **الأول**: من أنت يا سيد؟ **والثانى**: ماذا تريد أن أفعل؟ **أما عن السؤال الأول**، فليس علينا إلا انتظار الإعلان التدريجى، كظهور نور الفجر تدريجيا، فالأمر يحتاج إلى الأبدية[٢] لكى ندرك ماهية يسوع المسيح، وكل ما يمكن أن يفعله لخاصته. **وأما عن السؤال الثانى**، فإننا أيضا فى أشد الحاجة لليد الإلهية لتعلن لنا الطريق الذى نسلكه، والخطة التى رسمها لنا الله بتدبيره.

---

(١) إر ١: ١٧-١٩. ﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

(٢) أى إلى زمن لا حد له.

فى بداية الحياة الجديدة، كثيرا ما حاولنا أن نتكهن العمل الذى نرجو إتمامه، وعملنا حسابا لأمزجتنا وميولنا، ومواهبنا ووزناتنا، ظروفنا الداخلية والخارجية. ومن هذه نستنتج أننا، على الأرجح، سنوفق فى ناحية معينة من نواحى نشاطنا. ولكن، إذ يطول بنا الزمن، وتمر الأعوام، نجد أن باب الفرصة موصد فى هذه الناحية. ويا لمرارة الفشل! ونرفض الاعتقاد بأن الموانع التى حالت دون إتمام أمانينا العذبة ستدوم إلى النهاية. ونعلل أنفسنا بالصبر، معتقدين أنه يذلل كل عقبة. ونعتقد أنه، إن كان الباب ضيقا، فإنه، يقينًا، يمكن اجتيازه، وأننا أخيرا سنصل إلى المجال الرحب الذى فيه نجد كل توفيق. فنندفع إلى الباب المغلق اندفاع طيور البحر على زجاج الفنار المنير، ولكننا نسقط على الأرض متحيّرين ومرتبكين. وعندئذ، وعندئذ فقط، بعد مرور فترة من الفشل كهذه، نستطيع أن ندرك بأن طرق الله ليست كطرقنا، ولا أفكاره كأفكارنا، وأنه أعد لنا عملا آخر كان يُعدّنا له دون أن نعلم. لما كنا أكثر حداثة، كنا نمنطق ذواتنا، ونمشى حيث نشاء. ولكننا، فى السنوات الأخيرة، يمنطقنا آخر، ونُحمل حيث لا نشاء.

فى حياة هذه الشخصية، موضوع درسنا، نجد إيضاحا لهذه الحقائق الاختبارية. فلا شك أن الرسول، فى بداية حياته المسيحية، أحس أنه مدفوع بقوة نحو خدمة شعبه. لأنه كان عبرانيا من العبرانيين، فى عروقه كان يجرى دم الجنس المختار، معذبا نفسه بذكريات الماضى. وماذا كانت تعنى نشأته فى قلب الديانة اليهودية، وتربيته فى مذهب عبادتهم الأضيق، وتحت رجلى غمالائيل؟ أكانت حقا خاصا لخدمة أولئك الذين احتفظوا بتلك الجوهرة النفيسة (الناموس) بكل احترام ووقار؟

ولكنه كان لابد أن يكتشف أن سيده، الذى عرفه أخيرا، قد أعد له غرضا آخر لحياته، وأنه، هو، قد أُعدّ إعدادا خاصا، ودُعِىَ ليكرز بين الأمم بغنى المسيح الذى لا يُستَقصَى، وينير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور فى الله. ويهمنا جدا كيف أعلنَ هذا السر له، لأنه، رغما عن أن الرب نفسه أخبره صراحة، وقت ظهوره له، بأنه سوف يُرسَل إلى الأمم، إلا أنه يظهر أن تفكيره لم يعقل أن جهوده ووقته يمكن أن توقَف على خدمة أولئك الذين كانوا وقتئذ أجنبيين عن رعوية إسرائيل، وغرباء عن عهود الموعد، لا رجاء لهم، وبلا إله لهم فى العالم.

﴿١﴾ رجاء بولس:

﴿١﴾ يحق لنا أن نعتقد بأنه، أثناء إقامته فى شبه جزيرة سيناء، قد اتجهت نفسه نحو شعبه برغبة ملتهبة. ألم يكن إسرائيليا، من نسل إبراهيم، من سبط بنيامين؟ وهل كان ممكنا أن يتغافل عن احتياجات إخوته حسب الجسد؟ يقينا أنه لم يكن عسيرا أن تتكشف له معانى الرموز المقدسة لتهذيب آبائه فى هذه البرية. فالصخرة كانت المسيح، والمياه التى سالت فوق الرمال كانت تنبىء عن إرساليته للعالم، والناموس الذى أُعطى من جبل سيناء قد أُكمل، وجُدد فى يسوع الناصرى، والذبائح التى قُدّمت على هذه الرمال كانت تشير إلى موت الصليب، والنار التى اشتعلت فى العليقة سطعت على وجهه أيضا. كان رجاؤه الوحيد، وأمنية قلبه، أن يعلّم شعبه هذه الحقائق كلها، وأكثر منها، وأن يقودهم من برية الفرّيسيّة إلى السماويات التى كانت ترمز إلى كنعان؛ وأى عمل كان ممكنا أن يتفق مع أمزجته وميوله ووجهة نظره أكثر من هذا؟

ولدى عودته إلى دمشق، بدأ فى الحال جهاده فى المجامع. فالكتاب يخبرنا أنه «للوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله. فبُهِت جميع الذى كانوا يسمعون. وأما شاول، فكان يزداد قوة، ويحيّر اليهود الساكنين فى دمشق، محققا أن هذا هو المسيح».

لابد أن هذا النجاح المبكر قد شجعه كثيرا. وقد بدا له بوضوح أن الله قد صادق على آرائه. كانت نفسه المتقدة غيرة تتخيل نهضة عامة، وسط كل شعبه، لتوبة وتجديد الحياة، بل لقد تجاسر على أن يرجو أنه سوف يعيش حتى يرى أن العظام الجافة أصبحت جيشا عظيما لله.

ولكن هذه الأحلام سرعان ما تبددت. فإن الحقد الذى قوبل به من بنى جنسه، كان عنيفا جدا، لدرجة أنه عرّض حياته للخطر. ويبدو أنهم استمالوا حاكم مدينة دمشق ليعينهم بإمدادهم ببعض الجنود. وكانت الأبواب تراقَب نهارا وليلا، وأنزلوه من سور المدينة مدلين إياه فى سل (أع ٩: ٢٣ -٢٥).

ورغم ذلك، لم ينثن عن عزمه. فإنه ذهب إلى أورشليم بقصد رؤية بطرس. والأرجح أنه لم يكن ممكنا أن ينجح فى هذه المهمة لولا توسط بَرنابا، الذى تقول بعض التقاليد أنه كان زميلا له فى التلمذة، وتربى معه عند رجلى غمالائيل. وبحسن مسعاه، قرّبه إلى بطرس ويعقوب، وأدخله بيت مريم أم مرقس وأخت ذلك القبرصى الصالح (كو ٤: ١٠). تلا ذلك أسبوعان مباركان. كان معهم يدخل ويخرج من أورشليم، منشغلا بصفة خاصة فى عشرة مباركة مع بطرس، أقوى شخصية فى الكنيسة.

جميل جدا أن نتخيل هذين الاثنين جالسين معا، أو يتمشيان معا على السطح فى غروب الشمس، متحدثين عن الماضى العظيم. فى إحدى المناسبات، يكون موضوع الحديث عن خدمة الرب المبكرة فى الجليل، المتصلة مباشرة بشبوبية بطرس. وفى مناسبة أخرى، يتحدثان عن أحاديث ومناظر الساعات الأخيرة قبل صلبه. وفى مناسبة ثالثة، يتحدثان عن الموت العجيب، والدفن المهيب، والقيامة المجيدة، والصعود الرهيب، والظهور مدة أربعين يوما. ولعل السؤال الذى طالما تكرر من ذلك التلميذ الجديد إلى ذاك الذى كان له الامتياز أن يكون شاهدا لسر المحبة، كان هكذا: «حدثنى عن كل ما تذكره عن السيد.» ولابد أنه كثيرا ما اقترب إليهما يسوع نفسه وهما يتحدثان عن جميع هذه الحوادث، فالتهب قلباهما فيهما.

وما لم يستطع بطرس أن يخبره عنه، أخبره به يعقوب، لأنه كان من نفس مدينة المخلّص (الناصرة)، ولكن لم يثبت إيمانه إلا بعد القيامة، وكان ممكنا أن يروى كل ما حدث فى السنوات الأولى، ويعزز رواية بطرس عما حدث من فجر القيامة إلى يوم الخمسين.

على أن شاول كانت له خدمة أخرى فى تلك الأيام السعيدة. فيبدو أنه تجنّب الكنائس المسيحية التى فى اليهودية، ولجأ مرة أخرى إلى المجامع «وكان يخاطب ويباحث اليونانيين» (أى اليهود اليونانيين). وفى كثير من المواضع التى وقف فيها سابقا ليناقض استفانوس، وقف وقتئذ ليدافع عن الحقائق التى سمعها أولا من ذلك الشهيد

العظيم. لقد استطاع أن يفهم لماذا كانت كلماته تقابل بالسخط الشديد. وكان يتمنى أن يستخدم كل مهارة وحكمة، ليسدد إلى القلوب تلك المناخس التى اضطر أن يخضع لها هو شخصيا. ولكن، هنا أيضا، قوبلت جهوده بالمعارضة الشديدة «فحاولوا أن يقتلوه» (أع ٩: ٢٩).

ورغم ما قوبل به من الجفاء والصد، فإنه تمسك بقوة بوجهة نظره العزيزة عليه. كان له حزن عظيم، ووجع فى قلبه لا ينقطع، كان يود لو يكون هو نفسه محروما من المسيح، لأجل إخوته أنسبائه حسب الجسد. وعندما جثا على ركبتيه بكل هدوء فى الهيكل، وسمع يقينا من شفتى السيد أن أورشليم لن تقبل شهادته، عز عليه أن يصدق هذا، وظل متمسكا برأيه، مقاوما الفكرة أن الباب مغلق فى وجهه، وكان لسان حاله: «يقينا أن أورشليم لا يمكن أن ترفض كلامى، فإن لديها الدليل الكافى على إخلاصى، ولابد أنها مستعدة على الأقل للإصغاء لحججى المقنعة. ويقينا أن تغييرى العجيب سوف يلفت نظرها، ويبعث فيها تأثيرا عظيما. إذن، فلا مناص من البقاء فيها، ولا يمكن لأية قوة أن تحوّلنى عن غرضى، فإننى أستطيع أن أؤدى خدمة أكثر توفيقا هنا بين الشعب الذى يعرفنى معرفة وثيقة، والذى أعرف أنا ظروفه. هذا أجدى من أى مكان آخر فى العالم.»

لعلنا جميعا كنا نمنى أنفسنا بأحلامنا الجميلة بنفس هذه الطريقة، فقد تنبأنا بمستقبلنا على أساس اتجاه معين، وتمنينا جدا لو تحققت الأحلام. وعندما قامت الصعوبات فى طريقنا، وعندما قوبلنا بالمقاومة الشديدة والصد العنيف، ظللنا متمسكين بوجهة نظرنا، ولم نخضع للأمر الواقع، ولم نقبله إلا بكل تلكؤ وبطء، لأن التخلى عن وجهة نظرنا كان يبدو كأنه تمزيق لقلوبنا. وكان لابد أن تمر السنوات الطويلة، حتى ندرك أن طريقة الله أحكم وأجل من طريقتنا.

وفجأة، استيقظنا لنكتشف أننا، بينما كنا نرغب أن نتمم عملا معينا، كان الله يدفعنا لنتمم غيره. وأن ما كنا نعتبره ثانويا، كان جوهريا لمجده وسعادة قلوبنا الدائمة.

﴿٢﴾ الباب المغلق:

بدأ الباب يُغلَق فى دمشق، وازداد غلقه لما بدأ الاضطهاد فى أورشليم، ولكنه أُغلِق نهائيا لما كان بولس يصلى فى الهيكل (أع ٢٢: ١٧ - ٢١).

يبدو أنه ذهب إلى الهيكل ليعتزل هناك بعيدا عن الأصوات الكثيرة التى كانت تحاول تقديم النصيحة إليه، لأنه رغما عن أنه لم يكن قد لبث فى المدينة سوى أيام قليلة، إلا أن الاستياء منه بلغ أشده، حتى أن حياته كانت معرضة للخطر. وكان من الضرورى أن يفكر جديا ماذا يفعل؛ أيبقى فى المدينة، أو يخرج منها؟ أيقاوم هذه العاصفة بكل شجاعة، أم يهرب أمامها؟ كان البعض يشيرون عليه بهذه المشورة، والآخرون بضدها. فأربكته بلبلة الأصوات. وقد شوشت الآراء البشرية أفكاره عن أن ينصت تماما لإرشادات الله. لذلك اتجه إلى الهيكل، الذى طالما ذهب إليه سيده، والذى كان يحفل بالرموز الكثيرة التى ترمز إليه، والذى كان يحفل بالكثير جدا من الذكريات المقدسة. وإذ جثا على ركبتيه فى صلاة عميقة فى موضع هادىء، رأى من تحبه نفسه ومن تطلبه. ما أكثر الذين يدخلون الهيكل دون أن يروه! أما إن كنا نراه، فإننا لا نبالى بأى شخص آخر. هنالك من هو أعظم من الهيكل. وإذ رآه بولس، أعطاه إرشادات واضحة كل الوضوح، كما يفعل دواما مع الذين يستطيعون أن يقولوا مع المرنم: «الله انتظرَت نفسى. من قِبَلِه خلاصى» (مز ٦٢: ١)... «وحدث لى بعدما رجعت إلى أورشليم، وكنت أصلى فى الهيكل، أنى جُعلت فى غيبة، فرأيته قائلا لى: أسرع واخرج عاجلا من أورشليم، لأنهم لا يقبلون شهادتك عنى» (أع ٢٢: ١٧ و١٨).

من السهل أن نفسر لماذا لم يقبلوا شهادته، فإنه أكثر فيها من ذكر الصليب. لقد اكتشف بعض النواحى فى موت يسوع، مما لم يتفق مع مبادىء الفرّيسيّين . كان لا يتفق مع كبريائهم أن النجار هو المسيا الذى طال انتظاره، وكان لا يُحتمل قط أن يتعلموا أيضا بأن الحياة الحقيقية لا تُنال إلا بإنكار الذات إنكارا تاما. هذه ناحية من المسيحية لا تُقَدّر تماما الآن، وهكذا بطلت عثرة الصليب. ولكن، حيثما نُودِىَ بهذه الناحية، وطُبّقَت عمليا، فلابد أن تثير أشد الاعتراض.

لم يقبل شاول، كما رأينا، الإعلان الذى أُعطى إليه كقرار نهائى، بل ظل يرجو أن تكون أورشليم أنسب مجال لخدمته. من الخطأ أن نحاجى الله، كأن نحاول أن نخضعه لإرادتنا «ويل لمن يخاصم جابله. خزف بين أخزاف الأرض» (إش ٤٥: ٩). [١] على أن كل حجة أُبطِلَت أخيرا بهذه الكلمات: «اذهب، فإنى سأرسلك إلى الأمم بعيدا» (أع ٢٢: ٢١).

آه يا شاول، لقد حاججت، وجاهدت، وحاولت إتمام رأيك. لقد رجوت أن يقتنع الرب بآرائك، ولم تشأ أن تصدق بأنها لن تفلح. لقد قرعت بشدة على الباب المغلق بدون جدوى. إن الرب يحبك لدرجة أنه لا يريد التسليم لآرائك. سيأتى اليوم الذى ترى فيه أنه كان يعمل معك أفضل مما تعرف، وأنه كان يريد أن يرسلك إلى مجال أوسع جدا للخدمة، وأكثر إنتاجا.

﴿٣﴾ الباب المفتوح:

وهكذا «لما علم الإخوة أحدروه إلى قيصرية، وأرسلوه إلى طرسوس». ولعله استأنف صناعة الخيام هناك، منتظرا إرادة الرب وأوامره. لكن السنوات مرت ببطء، ولعله قضى هناك أربع أو خمس سنوات وهو يكاد يكون مجهولا؛ ويكاد يكون مؤكدا أنه خدم المسيح فى النواحى المجاورة لمدينته، كما سنرى فيما بعد، على أن كلمة الرب كانت لا تزال فى انتظار الإتمام.

وأخيرا، إذ كان لا يزال منتظرا، سمع فى أحد الأيام صوتا قائلا فى مدخل الباب: «هل يقيم شاول هنا؟» وفى لحظة أخرى أطل عليه وجه صديقه القديم، وزميل التلمذة، بابتسامة عذبة. عندئذ، حدّث بعمل الله العجيب فى أنطاكية، والبركات المتدفقة، وبدأ بَرنابا يرجوه أن يرجع معه لمساعدته فى جمع الحصاد المبيض فى أول مدينة أممية عظيمة اكتسبها الإنجيل «ثم خرج بَرنابا إلى طرسوس ليطلب شاول. ولما وجده، أتى به إلى أنطاكية، فحدث أنهما اجتمعا فى الكنيسة سنة كاملة، وعلّما جمعا غفيرا» (أع ١١: ٢٥ و٢٦).

---

(١) «ويل لمن يخاصم جابله، فليخاصم الخزف أخزاف الأرض» (حسب الترجمة الإنجليزية).

لا تخف من أن تثق فى الله ثقة مطلقة، فإنك حالما تخرج، تجد أنه سبقك وأغلق أبوابا كثيرة كنت تشتاق أن تدخلها. ولكن، تأكد بأنه، بعد هذه، يوجد بابا تركه مفتوحا. افتحه وادخل، فتجد نفسك أمام فرص فى غاية الاتساع، أوسع وأرحب بكثير مما كنت تحلم فى أسعد أحلامك. ادخل سفينتك من هذا الباب، تجده يقودك إلى البحر العظيم.

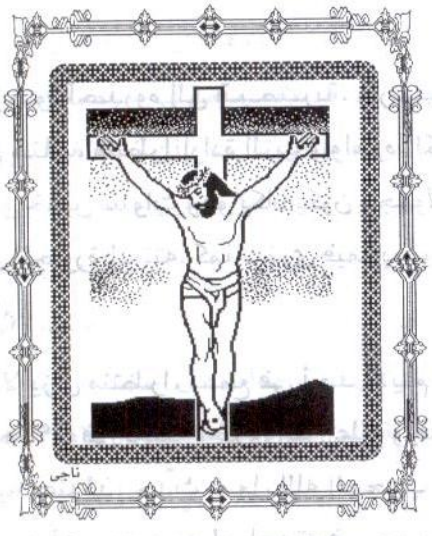

﴿ يقودنا فى موكب نصرته كل حين ﴾

﴿ ٢ كو ٢ : ١٤ - ١٦ ﴾

- «إلهى إنى للمسيح...
- «وليكن لى فى هذا الكفاية...
- «لقد وجدت فيك كل الكفاية، لذلك لا أريد أن أتملقك بكلمات جذابة، فبولس لم تكن له كرامة إلا فى المسيح، ولم يكن له أصدقاء إلا المسيح.»

﴿ ميرز ﴾

لما كان شاول منتظرا فى طرسوس، حيث لبث فيها نحو أربع أو خمس سنوات، يبدو أنه ركز جهوده فى الناحية التى يشير إليها الإصحاح الخامس عشر من سفر الأعمال مرتين؛ فى الآية (٢٣)، نجد الرسل والمشايخ والإخوة يبعثون بمنشورهم الدورى صراحة إلى الإخوة من الأمم فى أنطاكية وسورية وكيليكية. وفى الآية (٤١)، نجد بولس يذهب مع رفيقه سيلا إلى سورية وكيليكية يشدد الكنائس. وواضح من هذا أنه كانت هنالك كنائس حديثة فى المقاطعة التى كان يعيش فيها بولس. ومع ذلك، نستنتج، بدون أدنى ريب، أن هذه الكنائس تأسست بجهود هذا التلميذ الجديد.

ولعل أقرباء شاول، أندرونيكوس ويونياس وياسون وسوسيپاترس، وغيرهم، قد قبلوا المسيح فى ذلك الوقت. أما أبوه، فإنه، إذ تألم جدا لضياع كل آماله بتحوّل ابنه عن إيمانه السابق، فقد أقصاه عنه (رو ١٦: ٧ و٢١ ؛ فى ٣: ٨).

وعلى أى حال، فقد كانت خدمته بصفة خاصة فى المجامع التى أنشئت منذ الشتات فى معظم البلاد الكبيرة فى الإمپراطورية. وكما كان الحال فى الكنائس الأولى فى اليهودية، هكذا كان الحال فى هذه المجامع، ولعل الرسول لم ير نفسه محقا فى قبول الأمم أيضا فى الكنيسة. ولكنه كان يشعر أنه سائر فى هذا الاتجاه، وأنه كان يجهَّز لقبول المهمة التى أؤتمن عليها فى طريق دمشق، والتى أُعلنت إليه لما كان يصلى فى الهيكل.

يقال أن بعضا من اختباراته فى الآلام والمخاطر، لابد أن تكون قد تمت أثناء جهاده لنشر الإنجيل فى هذه السنوات. كلنا نذكر تلك الإحصائية العجيبة: «فى الأتعاب أكثر، فى الضربات أوفر، فى الميتات مرارا كثيرة. من اليهود خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرات ضُربت بالعصى. مرة رُجمت. ثلاث مرات انكسرت بى السفينة. ليلا ونهارا قضيت فى العمق. بأخطار فى تعب وكد. فى أسهار مرارا كثيرة. فى جوع وعطش. فى برد وعرى» (٢ كو ١١: ٢٣-٢٧). لم يكن هنالك متسع فى سفر الأعمال لسرد الكثير من هذه الاختبارات، سيما إذا تذكرنا أن رسالة كورنثوس الثانية كُتبت قبل طرده من أفَسُسَ، وبالتالى قبل سلسلة آلامه الطويلة التى يُختتم بها سفر أعمال الرسل.

لذلك، فالمرجح جدا، أنه منذ اللحظة التى بدأ فيها يتبع المخلّص، قد بدأت مرحلته الأليمة فى طريق جهاده فى العالم. لقد قوبل بالحقد والمقاومة والاحتقار والصلب، ولكنه كان يتقدم فى طريق الظفر نحو العرش.

كانت هذه الفكرة ماثلة أمام الرسول، مقترنة باختباراته السامية، كما يتضح لكل من يتصفّح الرسالة الثانية لأهل كورنثوس؛ لاحظ بنوع خاص ما ورد فى (ص ٢: ١٤ و١٥) «شكرا لله الذى يقودنا فى موكب نصرته فى المسيح كل حين، ويظهر بنا رائحة معرفته فى كل مكان. لأننا رائحة المسيح الذكية لله فى الذين يخلصون والذين يهلكون».

﴿١﴾ الاستعارة:

أُخذت من منظر حفلة انتصار رومانية. وكان من أشهر الحوادث قديما، عند عودة قائد عظيم أو أحد القياصرة ظافرا فى موقعة حربية، وصاعدا على جبل الكابيتول فى موكب عظيم، وسط مدح المواطنين المحتشدين، والروائح العطرية الجميلة. وكان يستعرض، أمام مركبته، الملوك والرؤساء والأمراء الأسرى، وخلفها عدد عظيم من الأسرى العاديين، حاملين الغنائم الحربية. نحو ذلك الوقت، كان كلوديوس يحتفل بانتصاراته فى بريطانيا، وكان ضمن الأمراء، أسراه، البطل العظيم «كاراكتاكوس».

كان الرسول يميل دواما للاستعارات المنتقاة من الحياة البشرية فى المعسكرات والمدن، أكثر مما يستقيها من مناظر الطبيعة الجميلة. وقد كان يرى أن منظر المواكب التى تحرك كل أهل روما يرمز إلى تقدم المسيح فى العالم، كأن الهاوية والموت أُوثِقتا فى عجلات مركبته، ذراعاه ممتلئتان غنائم، فى إثره يسير ألوف ممن انتصر عليهم. وكان بولس يفخر بأنه واحد منهم.

أليست هذه صورة خليقة بكل عصر؟ فكل أزمة خطرة فى الماضى، كانت تساعد فى تقديم مُلك المسيح المجيد. أكان سقوط بابل أزمة؟ لقد أعطت البشرية لغة عالمية، هى اللغة التى تحدث بها الإسكندر وجنوده، أى اللغة اليونانية العذبة التى كُتب بها العهد الجديد. أكان سقوط روما أزمة؟ لقد فتحت الباب لنشأة الممالك الشمالية لنشر الإنجيل. أكان سقوط نظام الإقطاعيات فى عهد الثورة الفرنسية أزمة؟ لقد أفسحت المجال للأعمال الجليلة التى تمت فى القرن التاسع عشر. ونحن نستطيع أن ننظر بدون يأس للحوادث الأليمة التى تروّعنا، فإنها هى أيضا يمكن أن تخدم قضية الإنجيل، وتمهد الطريق لنصرة الملك العظيم بطريقة لا نعرفها. فالسماء الجديدة، والأرض الجديدة، تُخلقان بالأوجاع الحاضرة، وهذه الأوجاع ليست كالأنين الختامى لمن يفارق الحياة، بل كأنين الأم التى تلد ابنها البكر. قال الرب : «لابد أن تكون هذه كلها... ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع» (مت ٢٤: ٦ و٨). ووسط هذه كلها، يركب يسوع ظافرا نحو مجده المعيّن، وتاج كل الأرض.

﴿٢﴾ مركز الرسول الشخصى فى موكب معلمه:

كان يدركه بكل وضوح، ويشير إليه بكل قوة؛ إنه لم يَمَلّ أبدا من وصف نفسه بأنه عبد يسوع المسيح «بولس عبد ليسوع المسيح، المدعو رسولا، المفرز لإنجيل الله» (رو ١: ١). لقد كان سابقا عظيما متمردا، عذّب شعب الله بالنار والسيف، وقف غريما ليسوع الناصرى محاولا التفوق عليه. ولكن، جاءه من هو أقوى منه، ونزع سلاحه، وأوثقه بوُثُقٍ لم يستطع التحرر منها؛ إن استطاع فإنه لم يرد، وإن أراد فإنه لم يستطع. ومن تلك الساعة، التى طُرح فيها على الأرض فى الطريق إلى دمشق، اكتفى بأن يقاد من مدينة إلى مدينة، ومن قارة إلى أخرى... فى موكب ربه علامة على قوته العظيمة التى تأتى بأقوى العصاة تحت نيره، فاستمع إليه وهو يصرخ، قائلا: «شكرا لله الذى يقودنا فى موكب نصرته كل حين».

هل هذه فكرته عنك؟ هل أنت أسير، أدركك يسوع المسيح، مفرز له ؟ هل أنت واثق من أنك موثق بقاهرك بأقدس الرُبُط، وأنك تتبع عربته على الأرض؟ إن كنت واثقا من ذلك، فالحياة تتطلب اتجاها جديدا، وتتطلب أن تكون بكلّيتك، وبكل ما تملك، ملكا لعمانوئيل.

والذين يقودهم يسوع فى موكب نصرته، يشاركهم نصرته. قد يصبحون منظرا للملائكة والناس. قد تُضبَط أرجلهم فى المقطرة. قد يُحسَبون كأقذار العالم، ووسخ كل شىء. ومع ذلك، فإنهم فى دائرة الحياة الروحية يقادون فى موكب النصر كل حين. إن كانوا مغلوبين، فهم غالبون. وإن كانوا يُستعبدون، فهم أحرار. وإن كانوا يُحسبون آخرين فى هذا العالم، فهم فى مقدمة صفوف الجماعة السماوية. أيتها النفس الفقيرة، الذليلة، المضطهدة، المغلوبة على أمرها! ارفعى رأسك إلى فوق وتهللى، لأنه، إن كان المسيح قد غلبك، فإنه سيقودك دواما إلى النصرة.

﴿٣﴾ تأثير المسيح على أخلاق تابعيه:

وهذا أيضا واضح كل الوضوح. لقد تغيرت لهجة الحديث، فلا يعود الرسول فيما بعد يحسب نفسه عبدا، بل خادما متحررا، مواطنا، صديقا يحمل المبخرة التى يتصاعد

منها البخور العطر، فيُعطّر الجو... والله ينشر به ـ فى كل مكان ـ رائحة معرفة يسوع الذكية. أينما ذهب ازدادت معرفة الناس بيسوع، وازداد ظهور جمال صفات السيد، واشتم الناس الرائحة العطرية التى انسكبت فى الجو، فجذبتهم للناصرى. ازداد العالم طهرا، وازدادت لغة الجماعة نقاءً، وازدادت أخلاق وصفات الناس صفاءً.

يا لهذا المثل الأعلى، الموضوع أمامنا أجمعين، أن نعيش حتى تنبعث من حياتنا رائحة ذكية، ليست هى رائحتنا، بل رائحة المسيح. حتى وإن كنا لا نستطيع أن نتكلم كثيرا، أو نحتل مراكز رئيسية، فلنعش بقربه لكى نتشبّع برائحته، وبعد ذلك نخرج لكى ننشرها... «فى طهارة، فى علم ، فى أناة، فى لطف، فى الروح القدس، فى محبة بلا رياء، فى كلام الحق، فى قوة الله»... وكما تتشبع قطعة من القماش أو الإسفنج برائحة عطرية فتعطّر المكان الذى توضع فيه، هكذا ينبغى أن نتشبّع بحلاوة المسيح، ونذيعها بقوة لا تقاوَم فى كل مكان دُعينا لنعيش فيه أو نعمل فيه.

﴿٤﴾ على أن الفكرة تتغير مرة أخرى:

لا يتخيّل الرسول نفسه فيما بعد أنه هو اليد التى تحرّك المبخرة، بل هو البخور نفسه «لأننا رائحة المسيح الذكية لله» (٢ كو ٢: ١٥). إن الرائحة توقظ الذاكرة بشكل عجيب. فى لحظة، تعود بنا إلى سنوات طويلة، وتأتى بنا إلى عطفة قديمة أو حديقة أو بستان، وتذكرنا بأشخاص أو حوادث اقترنت بهذه الرائحة فى الماضى السعيد.

إذن، فعندما يقال لنا إننا رائحة المسيح الذكية لله، فإن ذلك يعنى أننا يجب أن نعيش، بحيث، **وأتكلم هنا بحسب البشر**، نعيد إلى ذاكرة الله كيف كان يسوع مدة خدمته على الأرض، كأن الله وهو يتطلع إلينا يوما فيوما، يرى فينا يسوع، ويتذكر تلك الحياة المباركة التى قُدّمت قربانا وذبيحة لله ـ رائحة طيبة.

هذا هو المحك للحياة اليومية. هل تنشر حياتى رائحة المسيح؟ هل الله يتبيّن يسوع فى سلوكى وحديثى؟ هل توجد فىّ الرائحة الذكية لتلك الذبيحة اليومية، والتلذذ بمشيئة الله، والفرح المقدس بالتألم من أجل مجده، والتفانى فى إتمام مقاصده، الأمر الذى يجعل حياة ابن الإنسان رائحة ذكية لله؟

عند سفح جبل الكابيتول، كان ينقسم موكب النصر إلى قسمين؛ فبعض الأسرى كانوا يؤخذون إلى ظلمات سجن «توليانوم» حيث تُزهَق أرواحهم، والآخرون يُستَبقون للحياة. وهكذا كانت نفس الرائحة تقترن بالموتى من الجانب الواحد، وبالأحياء من الجانب الآخر. وهذه هى الحال فى كل كرازة بالإنجيل، وكل حياة طاهرة، فالشمس التى تذيب الشمع تقسّى الفخار، والنور الذى يبيّض الكتان يصبغ الأيدى التى تعرّضه للشمس، وعمود السحاب كان نورا لإسرائيل وظلمة لمصر. والذين لهم حياة، يعضدهم الله لحياة أعمق. والذين ليست لهم حياة، يزدادون توغلا فى الخطية... نحن رائحة حياة لحياة البعض، ورائحة موت للآخرين (٢ كو ٢: ١٦).

على هذه الحال، قضى شاول الطرسوسى سنوات الاستعداد التى سبقت الفرصة المتسعة لخدمته... فى الوقت الذى كانت تُغرَس فيه تلك الفضائل، كان ينتظر مجىء بَرنابا.

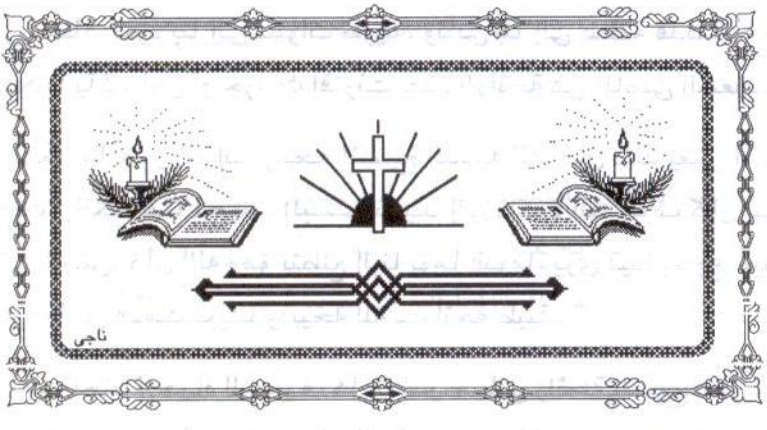

﴿ رسول الأمم ﴾

﴿ رو ١١ : ١٣ ﴾

❖ «لقد تطلّع بعيدا، وتحدث عن فخر السعادة والحرية والسلام والمحبة، وتمنى سرعة مجيء نور النهاية الكامل... وهوذا الآن أوشك أن يشرق على كل الأمم.»

﴿ ترنش ﴾

لعل شاول الطرسوسى، وهو يقضى سنى خدمته الهادئة فى كيليكية وسورية، كان يُدفَع ليرى بوضوح متزايد قصد الله من حياته، وهو أن يكون رسول الأمم. لقد أعلنت الأصوات السماوية فى بداية حياته المسيحية أنه يجب أن يُرسَل إليهم (أع ٢٦: ٢٠). وحنانيًا قيل له صراحة بأنه اختير إناء ليحمل اسم يسوع أمام أمم وملوك (أع ٩: ١٥). والرؤيا التى أعلنت إليه فى الهيكل، تُوّجَت بهذه الكلمات: «اذهب، فإنى سأرسلك إلى الأمم بعيدا» (أع ٢٢: ٢١). ولا شك فى أن جهوده، مدة سنوات طويلة وسط أناس من الأمم، جعلته يحس بالتيار الذى كان يحمل كل الكنيسة إلى اتجاه جديد. إلى ذلك الوقت، كانت الديانة اليهودية هى الباب الوحيد للمسيحية. بعد ذلك، كان يجب أن يُفتح باب الإيمان واسعا إلى الأمم أيضا دون أن يُختَتنوا. هذا ما نتبينه من كلماته هو نفسه:

«أخبرت أولا الذين فى دمشق وفى أورشليم، ثم الأمم، أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله، عاملين أعمالا تليق بالتوبة» (أع ٢٦: ٢٠). ومع ذلك، ظل القصد الحقيقى من حياته مخفيا، حتى بيّنته الظروف التى سنتأمل فيها الآن.

﴿١﴾ الدعوة لأنطاكية:

من رواية لوقا، يتبيّن أن مركز الأهمية كان قد بدأ يتحوّل من كنيسة أورشليم الأصلية إلى كنيسة أخرى تأسست قبيل الوقت الذى نتحدث عنه الآن فى أنطاكية الجميلة، الخليعة، المستهترة، التجارية. كانت متصلة بتجارة الغرب بنهر أورنتس الذى ينساب بعظمة بين القصور الرخامية والأرصفة المكتظة على جانبيه، ومتصلة كذلك بالشرق المتحفظ المفكر، بواسطة القوافل التى كانت تحمل تجارة ما بين النهرين وبلاد العرب. ولذلك، فقد كانت أنطاكية مركزا تجاريا عظيما، ملتقى العالم القديم والعالم الجديد... كانت بمثابة روما الشرقية التى تمثلت فيها كل نواحى مدينة الإمبراطورية، هى مشهورة إلى الأبد فى كل التواريخ المسيحية، لأن عددا من التلاميذ المجهولين العلمانيين، إذ هربوا من أورشليم من وجه اضطهاد شاول، تجاسروا أن يكرزوا بالإنجيل فيها لليونانيين، وأن يكوّنوا كنيسة من هؤلاء المتجددين، بدون مبالاة بالمرة لطقس اليهودية الرئيسى، أى الختان... هناك أيضا دُعى تلاميذ «الطريق» مسيحيين أولا، نسبة لذلك الاسم المقدس الذى جرى بصفة دائمة على شفاه المعلمين والمتعلمين. على أن هذه التسمية تدل على أن شعب أنطاكية تنبهوا بأن هيئة أو شيعة جديدة كانت فى بدء التكوين. من أنطاكية بدأت أول حملة تبشيرية لتبشير العالم. وقد اشتهرت بعد العصر الرسولى بأنها أبروشية الأسقف العظيم والقديس والشهيد أغناطيوس.

كان سكان أنطاكية خليطا من كل الأجناس. لكن العنصر اليونانى تغلب عليها كلها بطقوسه الداعرة، وذكائه الخليع، ولسانه العذب المخادع، وحبه للتمثيل والألعاب الرياضية والسباق. كانت الحاجة ماسة جدا أن يجد نهر الحياة له مجالا وسط ذلك المستنقع الذى كان يبدو جميلا فى الظاهر، ولكنه يحمل فسادا معينا. ولكن، لم يجرؤ أى واحد من قادة الكنيسة أن يخطو الخطوة الأولى ليشق الطريق هناك إلى ذلك النهر،

نهر الحياة. كان بطرس والكنيسة التى فى أورشليم قد بدأوا يدركون، فى ذلك الوقت فقط ـ بالحوادث المدهشة فى بيت كرنيليوس ـ أن الله مستعد لأن يعطى الراجعين من الأمم أيضا التوبة للحياة. إذن، فقد تُرك الأمر لحفنة من اليهود اليونانيين اللاجئين، «وهم رجال قبرسيون (قبرصيون) وقيروانيون»، لكى يحطموا حواجز الأجيال، ويبدأوا الكرازة بالرب يسوع لليونانيين فى أنطاكية. وللحال، أكرم الروح القدس كلمتهم، شاهدا لنعمة كلمة الله «فآمن عدد كثير ورجعوا إلى الرب» (أع ١١: ١٩ - ٢١). وحالما وصلت الأنباء إلى أورشليم عن هذه الحركة الجديدة، أوفدت الكنيسة بَرنابا، الذى كان هو نفسه قبرصيا، لبحث الأمر وتقديم تقرير عنه. فكان حكمه واضحا ومؤكّدا للأمم، لأنه لم يتردد فى الحكم بأن هذا هو عمل نعمة الله بكل تأكيد، وفرح لأن هؤلاء القوم البسطاء قد دُفعوا إلى الحصاد الناضج الوفير، واستأنف هذه الخدمة التى كانت قد بدأت بنجاح عظيم، حتى أنه «انضم إلى الرب جمع غفير» (أع ١١: ١٢ - ٢٤).

على أن نجاحه زاد الموقف ارتباكا وصعوبة، إذ وجد نفسه أمام مشكلة كبيرة؛ فالأمم بدأوا يتدفقون فى الكنيسة، ويأخذون مكانهم بالمساواة مع اليهود فى العشاء الربانى وولائم المحبة، الأمر الذى نفر منه اليهود المتحفظون، ولم يستطع ذلك الرجل البسيط القلب أن يتصرف فى هذه المشكلة. على أنه تذكر أن صديقه القديم، وزميله فى التلمذة، أؤتمن على كرازة الأمم بصفة خاصة عند تجديده. وإذ كان يرجو أن يجد لديه الحل الوافى «خرج إلى طرسوس ليطلب شاول. ولما وجده، جاء به إلى أنطاكية. فحدث أنهما اجتمعا فى الكنيسة سنة كاملة، وعلّما جمعا غفيرا».

على أن السنة الكاملة التى قضياها فى أنطاكية أتت بأعظم النتائج لشاول. فقد علم من برنابا النتيجة التى وصلت إليها كنيسة أورشليم لما سمعت بالرواية التى رواها بطرس عن تصرفات الله مع كرنيليوس وأهل بيته (أع ١١: ١٨)، ولاحظ كيف أن روح الله صادَقَ على النداءات التى وجهت للأمم، سواء بواسطته أو واسطة غيره. وهكذا علّمته الظروف، بل أقنعته، أن المؤمنين من الأمم أعضاء فى الكنيسة بالتساوى، وورثة المواعيد بالتساوى. وإن كان الله لم يميّز أحدا عن الآخر، فلماذا يجرؤ هو على هذا التمييز؟ كان الأفق يزداد اتساعا أمامه طول الوقت، وثقته تزداد ثباتا، وفكرته عن مقاصد الله تزداد تعمقا، وكان يعد الإنجيل الذى نادى به فيما بعد بينهم (غل ٢: ٢).

لا داعى لزيادة الحديث عن زيارته الوجيزة لأورشليم، فى نهاية سنة الخدمة التى قضاها فى أنطاكية، ليحمل بعض المساعدات من المسيحيين الأمميين لإخوتهم اليهود المتألمين، بل يكفى القول بأنها كانت مقدمة لزيارة أخرى، وأنها برهنت أنه لا أثر للعداوة بين الجماعة القديمة والجديدة، بل الجميع واحد فى المسيح. فى تلك الفرصة، يبدو أنه لم يقابل الرسل الذين كانوا على الأرجح قد غادروا أورشليم من وجه بغضة هيرودس القاتلة (أع ١٢). ولذلك، تُركت تقدمة كنيسة أنطاكية مع مشايخ كنيسة أورشليم (أع ١١: ٣٠). ولم يحدث ما يحوّل قلب هذا الرسول الجديد أو يثنيه عن عزمه الذى كان يزداد قوة ووضوحا أمامه.

﴿٢﴾ مفرز من الروح القدس:

كانت ساعة رهيبة فى تاريخ الكنيسة، عندما اشترك بَرنابا وشاول ــ عند عودتهما من أورشليم ــ مع ثلاثة آخرين فى الصوم والصلاة. لا نعرف على وجه التحقيق السبب المباشر لهذه الفرصة الخاصة. ولكن، واضح أن الأنبياء الثلاثة والمعلمين الاثنين كانوا يمثلون خمس ممالك مختلفة. هل كانوا يحنون إلى شعوبهم، ويتوقفون لتقديم الإنجيل إليهم، إذ كانوا يرون الفرصة سانحة وقتذاك بعيدا عن القيود والحواجز اليهودية؟ هذا ما لا نستطيع الجزم به. على أية حال، كانت تلك الساعة بداية الإرساليات التبشيرية، فإن الروح القدس، المهيمن والمدبر لشئون الكنيسة، أمر تلك الجماعة الفقيرة أن يفرزوا من بينهم اثنين لإرسالية سيكشفها لهما عندما يخطوان الخطوة الأولى إطاعة لأمره.

لم يكن هناك أى تردد أو إبطاء، فإن الكنيسة أخلتهما من العمل، والروح القدس أرسلهما... وكانت هذه الرحلة إجابة كاملة لكل الأسئلة التى أربكتها.

وفى قبرص، التى اتجها إليها فى أول الأمر، بسبب الصلات التى كانت تربط برنابا بها عن طريق مولده وأملاكه، ناديا بكلمة الله، من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر، وفى مجامع اليهود، ولكنهما لم يجنيا ثمرة حتى استدعاهما الحاكم الرومانى، وطلب أن يسمع رسالتهما. وإذ سمع، آمن.

وبعد ترك الجزيرة، ترك بولس الشاطىء متجها نحو الداخل، خلافا لرأى يوحنا مرقس، على ارتفاع أربعة آلاف قدم من سطح البحر، بقصد تأسيس كنائس فى الطريق التجارى العظيم الممتد وسط آسيا الصغرى من طرسوس إلى أفسس. وماذا كان ممكنا أن يحصل للشرق والغرب، بعدما تصبح هذه القنطرة العظيمة سكة سلطانية لأقدام ابن الله؟ على أن نفس الاختبار كان ينتظره هناك.

فاليهود فى أنطاكية وبسيدية رفضوهما، أما الأمم فرحبوا بهما، فاضطر بولس إلى التحوّل عن بنى جنسه جهارا، وتقديم الإنجيل نورا وخلاصا لأولئك الذين وصفهم النبى بأنهم هم «أقصى الأرض»... عندئذ «انتشرت كلمة الرب فى كل الكورة».

وفى أيقونية، حيث هربا من اضطهاد كان يهدد حياتهما فى أنطاكية، وجدا أيضا اليهود لا يزالون مصرين على حقدهم، حتى أنهما ذهبا إلى مقاطعة ليكأونية، ومدنها الأممية، حيث يُرَجّح أنه لم تكن هنالك مجامع على الإطلاق. وهناك أيضا ناديا بالإنجيل وتلمذا كثيرين.

كان العنصر اليهودى فى كل مكان هو العقبة الكأداء التى لا تلين أمام كلمة الله. أما الأمم، فعندما كانوا يسمعونها، كانوا يرحبون بها ويقبلونها بصدر رحب... كان الله «يشهد لكلمة نعمته» حيثما كشفاها للأمم، ويفتح «باب الإيمان» أمام من طلبوه بكل قلوبهم، ويعطى أن تجرى «الآيات والعجائب فى الأمم» على أيديهما (أع ١٤: ٣ و٢٧ ؛ ١٥: ١٢).

وإذ كان بولس يدرس بهدوء هذه العلامات عن إرادة الله، فإنه لم يكن فى حاجة إلى ملاك ليخبره بأن الله كان يغيّر إسرائيل بما ليس أمة لرفضهم أن يسمعوا، فقد رأى أن الأغصان الأصلية كانت تُقطَع لتحل محلها أغصان زيتونة برية؛ كانت القساوة تحصل لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم (رو ١١: ٨ و١٧ و٢٥). لم تنقص محبته لهم. وكيف كان ممكنا أن تنقص؟ ألم يكونوا إخوته وأنسباءه حسب الجسد؟ ولكنه كان لابد أن يتبع الخطة الإلهية.

ولعل أعظم اختبارات بولس فى هذه الرحلة، كانت زيارته الأولى لأهل غلاطية الملتهبى الروح، الذين يغلب أن تكون بلادهم هى التى أشير إليها إشارة غامضة فى (أع ١٤: ٢٤). وعلى أى حال، فإن إصراره بأن يذكر فى رسالته أن الإنجيل الذى بشّرهم به قد قبله مباشرة من المسيح غير ممتزج بأية تعاليم بشرية ـ هذا يلزمنا أن نستنتج بأن تعَرُّفه بهم لأول تم وقتذاك، وقبل تلك الزيارة الخالدة لأورشليم، التى سوف نشير إليها قريبا، والتى فيها تشاور مع الرسل بصدد الإنجيل الذى نادى به (أع ١٥ ؛ غل ٢). ولعله تأخر عندهم بسبب نوبة أليمة من نوبات مرضه المزمن الذى اشتد عليه بسبب التغيرات الجوية أو الملاريا. استمع إليه وهو يقول: «ولكنكم تعلمون أنى بضعف الجسد بشّرتكم فى الأول. وتجربتى التى فى جسدى لم تزدروا بها، ولا كرهتموها» (غل ٤: ١٣ و١٤). حاشا لهم أن يكرهوه لهذا السبب، بل إن أحزانه وآلامه قد مزقت أحشاءهم، وزادتهم صلة به «لأنى أشهد لكم أنه لو أمكن لقلعتم عيونكم وأعطيتمونى» (ع ١٥).

كان نجاحه وسط هذا الشعب المحبوب ظاهرا جدا، وقد عمّق فيه الاقتناع الذى كان له النجم الهادى كل أيام حياته، ألا وهو أنه يجب أن يوقف جهوده على خلاص الأمم الذين أُلقيَت على كاهله قضيتهم فى ساعة تجديده.

«٣» اعترف الرسل بأنه رسول:

لا نريد أن نزيد شيئا على المناقشات الطويلة التى دارت بين الكثيرين بصدد تاريخ زيارته لأورشليم المشار إليها فى (غل ٢). وبعد التأمل فى حجج من يعتقدون أنها هى نفس الزيارة التى حمل فيها المساعدات لمسيحيى أورشليم، والسابق الإشارة إليها، وآراء الفريق الآخر الذى يعتقدون أنها زيارة خاصة لاستشارة زعماء الكنيسة بصدد خدمته، نميل إلى الاعتقاد بصحة الرأى الذى ذهب إليه معظم المفسرين، وهى أن الزيارة المشار إليها فى (غل ٢) هى الزيارة الوارد ذكرها فى (أع ١٥)، عندما أوفد من أنطاكية إلى أورشليم ـ كما سنرى فى فصل آخر ـ للوقوف على رأى الرسل بخصوص قبول الأمم فى الكنيسة.

ويكفى الآن أن نلاحظ بأن بولس، بكل تأكيد، طلب رأى المعتبَرين بين الرسل عن تعليمه، لئلا يكون قد سعى أو يسعى باطلا. ومن عدة مناقشات تبيّن جليا ليعقوب وبطرس ويوحنا أن مضطهدهم السابق أؤتمن من الله لخدمة الأمم، فقد تحققوا أنه أؤتمن على إنجيل الغرلة، وتحقق بطرس بصفة خاصة أن الذى عمل فيه هو شخصيا لرسالة الختان، عمل فى هذه النفس الملتهبة لرسالة الأمم بنفس القوة. ولم يسع زعماء الكنيسة الأم أن يروا النعمة التى أُعطيَت إليه، لذلك أعطوه يمين الشركة ليذهب هو للأمم، أما هم فللختان (غل ٢: ٩).

كان هذا تأييدا آخر وأخيرا للغرض الذى كان يتكون فى قلبه. ولقد أدرك أنه قد أقيم سفيرا ورسولا، معلما للأمم بالإيمان والحق. لقد افتخر بهذه الخدمة، وطالما تحدث عن النعمة التى أُعطيت إليه، وهو أصغر القديسين، أن يبشر الأمم بغنى المسيح الذى لا يُستقصَى. لم ينس أبدا أن يبدأ خدمته، فى أى مكان، ببذل أقصى الجهد ليخلّص بعضا من أبناء جنسه، ولكنه كان يشعر دواما أن مهمته الرئيسية هى: «للمدعوين غرلة من المدعو ختانا مصنوعا باليد فى الجسد» (أف ٢: ١١).

لقد دُعىَ من الرب المقام ليكون رسولا، لم ينقص فى شىء قط عن باقى الرسل، وبه تمت علامات الرسول يقينا فى كل العلامات والعجائب والأعمال العظيمة (١ كو ٩: ١ ، ١٥: ٩ ؛ غل ١: ١).

إذن، فقد لاق جدا أن تقام الكنيسة التى تحمل اسمه فى قلب أعظم مدينة أممية، تحمل رمز موت المسيح عاليا، علامة لعمل وخدمة الرسول العظيم.

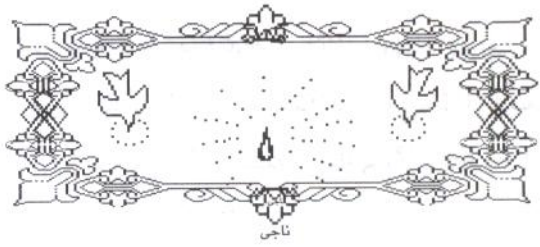

﴿ قبل أربع عشرة سنة ﴾

﴿ ٢ كو ١٢ : ٢ - ٥ ﴾

❖ «لسنا أحرار لنقول بأننا لا نرى، لأن المجد يأتى ليلا ونهارا كالبحر، ونوره يسطع فى ظلمات الليل البهيم... وفى الساعة المعيّنة، يتبعنى بمجده العظيم إلى مخادعى الداخلية.»

﴿ ترنر ﴾

إذا رجعنا إلى الوراء قبل كتابة هذه الرسالة بأربع عشرة سنة، وجدنا أنفسنا وسط الحوادث المدونة فى الإصحاحين ١٣ و١٤ من سفر الأعمال، سيما تلك الساعة الخطيرة فى تاريخ المسيحية، حينما اجتمع خمسة رجال، يمثلون خمس ممالك مختلفة، للصوم والصلاة من أجل حالة العالم، وواجبهم بإزائه. يحدثنا لوقا الإنجيلى، فى إصحاحين، عن نتيجة هذا المؤتمر، وهى إفراز هذين المرسلَيْن وإرساليتهما، وعن الصعوبات والعقبات والآلام التى تكبداها لإتمام دعوتهما العليا. على أن بولس يزيح الحجاب عن قلبه، ويبيّن لنا اختباراته الداخلية أثناء تلك الشهور العجيبة.

لقد كان «إنسانا فى المسيح» اختطف إلى الفردوس، إلى السماء الثالثة، «وسمع كلمات لا يُنطَق بها». يتحدث لوقا عن خيمة الاجتماع من الخارج، عن الغطاء الخارجى. أما بولس فيتحدث عن الداخل، عن محتويات الخيمة الداخلية. يتحدث لوقا عن الإنسان، وبولس عن الإنسان فى المسيح. يتحدث لوقا عن الآلام والدموع التى كابدها، وبولس عن الأفراح التى حملته إلى حضن المسيح، حتى أن الآلام والأحزان الكثيرة كانت ضرورية فعلا لحفظ توازنه لئلا يرتفع بفرط الإعلانات التى رآها.

ما أقل معرفتنا بحياة بعضنا البعض. قد يتاح لأقرب الناس إلينا فقط، بل قد يُحرَم هؤلاء أيضا، من إدراك الرؤى والإعلانات التى تُعطَى لنا، أو سماع الكلمات التى لا يُنطَق بها. فلعل بَرنابا نفسه، الذى شارك مع بولس أتعابه ومخاطره، لم يعرف إلا القليل جدا، أو لم يعرف شيئا قط، عن اختبارات زميله. لقد رأى نفس المناظر التى وقعت عليها أعينهما الجسدية، ولكنه لم ير الرؤى التى كُشفت للعين الداخلية... لقد سمع الأصوات التى رنت فى آذانهما، أصوات المجدفين الهازئين التى لم يجدا عنها إلا القليل من التعزية والتشجيع أو التقدير، ولكنه لم يدرك شيئا عن صوت المسيح الهادىء الخفيف، الذى أمر بولس بألا يخاف.

كم يكون أليما جدا إن كان لا يُسجَّل عن رحلاتنا فى مهام الحياة، أو أحاديثنا السارة مع الأعزاء، سوى ما يشاركنا فيه بَرنابا ويدوّنه لوقا. إن الصورة الصينية التى ينقصها النور والظلال والعمق ليست فنا. يجب أن نتعمق لتكون لنا حياة تحت حياة، لتكون لنا منافذ فى قلوبنا نتطلع منها إلى ما وراء النهر، إلى الأمور الأبدية التى لا تُرَى. إن الصورة التى تجذب الأنظار، هى التى توحى أكثر مما تُظهِر، هى التى تتلاشى فيها الألوان الزرقاء فى السماء، والتى فيها يحجب الضباب الجبال والمستنقعات والبحار. آه! يا للسلام الذى يفوق كل عقل، والفرح الذى لا يُنطَق به ومجيد، والأشياء العميقة التى لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر على بال إنسان. إذن، فنحن نشكر الله لأننا الآن ندعم رواية لوقا بكلمات الرسول عندما يذكر ما حدث له قبل أن يكتب بأربع عشرة سنة.

﴿١﴾ وصف الرسول عن نفسه:

«**إنسانا فى المسيح**»، لقد كان فى المسيح، ولكن هذا لم يجعله أقل من إنسان. هناك ثلاث صفات للإنسان الكامل: العزم، والثبات، والشجاعة.

﴿١﴾ العزم: أن يضع المرء أمامه غرضا أسمى، ويسعى إليه بصيت حسن وصيت ردىء، فى الجو الهادىء والجو العاصف. كان واضحا أن هذا ما يتميز به الرسول الذى سعى نحو غرضه لخدمة الأمم من أنطاكية إلى أيقونية، ثم إلى لسترة ودربة. لم يفت فى عضده حقد اليهود، ولم يثبط عزيمته تقلب الجموع، ولم تكن الحجارة التى رُجم بها فى لسترة بكافية لتثنيه عن عزمه. كانت وجهة نظره التى تمسّك بها هى أن يكرز بالإنجيل حيث لم يُسَمّ المسيح «بل كما هو مكتوب، الذين لم يخبَروا به سيبصرون، والذين لم يسمعوا سيفهمون» (رو ١٥: ٢٠ و٢١).

﴿٢﴾ الثبات: أن يستطيع المرء تحمل الأحزان والأوجاع التى تمزق القلب. إن الرجولة الكاملة تتطلب هذه الصفة، لأنه لن يخلو إنسان من الهموم التى تحطم الأعصاب، التى يبدو فيها نياط القلب كأنه لابد أن يتمزق، ودم الحياة أن يُسكب سكيبا. عندئذ، لكى تتشدد، لكى تتطلع إلى الأمام غير متزعزع، لكى تتجاسر على أن تسبّح الله، اجلس وحيدا صامتا، لأن الله وضع علينا هذا الصليب؛ هذا هو الثبات يقينا. على أن بولس أظهر هذه الصفة أيضا عندما احتمل، غير متذمر، تنحى مرقس عنه، حقد أنسبائه حسب الجسد، وعند قيامه بعد رجمه فى لسترة بمعرفة أعدائه الألداء، وعودته إلى المدينة التى جرّوه خارجها جثة هامدة، وشروعه فى صباح اليوم التالى لاستئناف خدمته المحبوبة فى مدن ليكأونية المجاورة بعد أن حيّا الإخوة، سيما الشاب تيموثاوس.

﴿٣﴾ الشجاعة: أن يكون للمرء قلب لا يرهب أى إنسان. لم تعُزّ بولس الشجاعة قط. لم يحجم أبدا عن مواجهة أية جماعة ثائرة متعصبة، أو توبيخ الولاة والحكام، أو مقاومة الرسول الذى استحق اللوم.[١] وقد تبيَّنت شجاعته العظمى بكل وضوح فى

---

(١) المقصود هو بطرس الرسول، راجع: (غل ٢: ١٤). ﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

هذه الرحلة عينها، إذ أنه، بدلا من اتخاذ الطريق الأسهل والأقرب فى العودة إلى مقره عن طريق مدينته مسقط رأسه والأبواب الكيليكية، نراه يجرؤ على العودة لكل مدينة بشّر فيها، يشدد أنفس التلاميذ، ويعظهم أن يثبتوا فى الإيمان، وأنه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله. وقد لبث فى كل مكان مدة كافية لانتخاب قسوس للكنائس الفتية ـ رغم ما فى ذلك من خطر على حياته الشخصية ـ وللصلاة والصوم، مستودعا إياهم للرب الذى كانوا قد آمنوا به (أع ١٤: ٢١ -٢٣).

عندما نصبح مسيحيين، فإننا لا نفقد هذه المميزات. كلا، بل إنها تتطهّر من العناصر التى قد تفسدها. فبدون المسيح قد يصبح العزم عنادا، والثبات كبتا للعواطف، والشجاعة اعتقادا بالقضاء والقدر. وهذه تطرف، ولذلك فهى نقائص، حالما يصبح المرء فى المسيح ـ فى سلوكه اليومى، وفى كل الجو المحيط به فى حياته اليومية ـ عندئذ لا يبقى أثر للتطرف، ويشتد عزم قوة الرجولة الأصلية، وتتقوى بقوة الأسد الخارج من سبط يهوذا، وتستمد عذوبة وحلاوة من وداعة ولطف الحمل الذى ذُبح.

﴿٢﴾ لأمثال هذه الصفات تأتى لحظات سماوية:

أيام من أفراح السماء، أيام سعيدة، ساعات رؤى وأفراح، عندما يزداد الفيضان سرعة وارتفاعا، وتمتلىء كأس الحياة وتفيض... «اختُطف هذا إلى السماء الثالثة... إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطَق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها، من جهة هذا (أى هذا الإنسان) أفتخر».

قد يخيّل إلينا فى البداية أن الرسول يصف اختبارات شخص آخر. قد يبدو أنه يميز بين ذلك الإنسان المبارك الذى يتحدث عن اختباراته، على أننا إذا ما تقدمنا إلى باقى تفاصيل حديثه، حيث يخبرنا أنه بسبب فرط الإعلانات والرؤى التى أُعلِنت إليه، كان هنالك خطر من أن ينتفخ، يتضح لنا تماما أنه يصف بعض اختباراته الرائعة التى اختبرها فى تلك الرحلة التبشيرية الأولى. كانت هذه الاختبارات عظيمة جدا، ومملوءة مجدا فائقا جدا، حتى أن نورها لم يتضاءل من قلبه رغم مرور أربع عشرة سنة عليها.

قد تتم هذه الاختبارات فى ساعات الألم الشديد، فالبعض يظنون أن هذا الاختطاف إلى الفردوس تم وقت رجم الرسول فى لسترة. ولكنه، على أى حال، لم يجد كلمات يعبّر بها عما رأى وسمع. جاز التلميذ الذى كان يسوع يحبه اختبارات مماثلة، فإنه هو أيضا تطلع من باب السماء المفتوح، ولكنه، مع متانته اللغوية، لم يستطع إلا أن يصور لنا الخليقة والرؤيا بتشبيهات ورموز تركتنا فى حيرة وارتباك شديدين. إن أمكن للكلمات أن تصف الفردوس، فما أحقره من فردوس. وإن لم تَسُم أمجاد السماء الثالثة عن أبعد تصوراتنا، لما كانت خليقة بصانعها. لقد «جعل الأبدية فى قلبنا» (جا ٣: ١١)، جعل فينا شوقا لغير المحدود، حنينا للإلهيات... إن الساعات التى نسبح فيها بالخيال، لما تهز عواطفنا أنغام الموسيقى الرائعة الجمال، أو تسحرنا الطبيعة بجمالها الفتان، أو نفتتن بحب أحد الأعزاء، فإننا نحس أن الكلمات لا يمكن أن تعبّر عن الفكر، بل هى علامات ورموز للحقيقة، وليست الحقيقة نفسها. أتستطيع أن تعبّر بالكلمات عن صوت الريح وسط الغابات، أو مظاهر الطبيعة العجيبة الأخرى؟ كلا. إذن، فإنك تعرف لماذا وصف الرسول اختباراته فى الفردوس بأنها لا يُنطَق بها.

على أن هذه الساعات، إن كان لا يُنطَق بها، فهى أيضا سريعة الزوال، لماذا؟ لئلا نرتفع فوق الحد ونتكبر. وإن كان الرسول قد خشى من هذا، فبالأولى نحن، لئلا نتكل على أى اختبار كغرض للحياة، بدلا من اعتباره كختم الله وشهادته، اللتين قد يحرمنا منهما إن اتكلنا عليهما أكثر من اللازم. يجب أن لا نحيا فى أى اختبار، بل فى المسيح الذى تصدر منه كل الاختبارات الجميلة والنافعة. لئلا نتباعد عمن نعيش معهم، الذين لا يعيش أغلبهم على قمة الجبل، بل فى الأودية حيث يسكن الشيطان ويعذب المتألمين.

ومن حكمة الله ورحمته أن ساعات رائعة كهذه لا تدوم، لأن قوتنا ليست مستمدة منها... ونحن لا نستمد قوة بدنية كثيرة من الحلوى التى نتعاطاها مهما كانت مستساغة للحلق. وإن كنا نعتمد فقط على الأوقات التى نُختطَف فيا إلى الفردوس كمصدر لقوتنا الروحية، لخسرنا قوانا الروحية الحقيقية. لذلك، فإن الله، برحمته، يمنحها لنا مرة أو مرتين، بين الحين والآخر. وعندما يهبها، يرسل معها ميزان حفظ التوازن، لكى نتذكر ضعفنا التام وعجزنا المطلق، ولكى يدفعنا للالتجاء إلى نعمته التى فيها وحدها كفايتنا.

فلا نتوقع أن تدوم رؤى الفردوس، لئلا تبهر نظرك، وتجعل الحياة غير طبيعية وغير حقيقية. ولا تتأسف لعبور الساعات المباركة الفائقة السعادة، ولا تظن أنك سقطت من النعمة عندما تعبر بهجتها. سواء دامت أو لم تدم، بل سواء اختبرتها أو لم تختبرها قط، فإنك لا زلت فى المسيح، لا زلت متصلا بالرب، لا زلت مقبولا فى الحبيب. ولن يفصلك عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا ارتفاع هذه الرؤى، ولا عمق الآلام.

فاقتنع إذن بأن تتحول من سعادة الفردوس الممثلة فى جبل التجلى، لكى تتخذ طريق الصليب الذى به تستطيع أن تفتح الفردوس للنفوس اليائسة كاللص اليمين ساعة الاحتضار.

﴿٣﴾ تأديب الآلام:

لا داعى لإطالة البحث فى ماهية شوكة بولس التى أعطيت إليه فى الجسد، لأن هذا أمر ليست له هنا أهمية كبرى. ويكفى القول أنها كانت أليمة جدا، دعاها بولس «شوكة» أو «وتد» (كبعض الترجمات) كأنه شُدَّ إلى وتد. ولابد أنها كانت جسدية، لأنه لا يمكن أن يصلى ثلاث مرات لأجل شائبة أدبية ولا يستجاب. لقد سمح الله، بحكمته اللانهائية، لملاك الشيطان أن يلطم عبده. وفى تلك الرحلة الأولى، واجه سلسلة طويلة من اللطمات... كانت هنالك أخطار لصوص، وأخطار مياه، وأخطار فى نُفُقِ الجبال، وأخطار من الجموع الثائرة؛ وعلاوة على هذا كله، كانت هنالك الشوكة بوخزاتها الأليمة.

والأرجح أنه كان يشكو ضعفا فى نظره، أو نوعا من الرمد، هذا نستنتجه من تمنى الغلاطيين أن يعطوه عيونهم، ومن اعتماده على شخص يملى عليه رسائله، ومن الأحرف الكبيرة التى كان يختتم بها رسائله (غل ٦: ١١). إن صح هذا الرأى، فلابد أن يكون الألم قد ازداد إذا واجه الرياح اللافحة التى تهب على الهضبة التى كانت أنطاكية بيسيدية قائمة عليها.

أفى هذه الرحلة صلى للرب فى ثلاث مناسبات مختلفة لإنقاذه من هذه الشوكة، فأكد له أنه وإن بقيت الشوكة، فإنه سيُعطَى نعمة أكثر من الكفاية؟ إن صح هذا الرأى، فلابد أنه فى أنطاكية وأيقونية ودربة ولسترة، قد رنت فى أذنيه هذه الكلمات العذبة كالموسيقى الشجية: تكفيك، تكفيك، تكفيك نعمتى. تكفيك عندما يهجرك الأصدقاء، ويتعبك الأعداء. تكفيك لتقويتك إزاء المجامع الثائرة أو رجم الحجارة المتناثرة. تكفيك لتريحك من متاعب الجسد وصراع النفس. تكفيك لتعينك على إتمام خدمات أجلّ وأوفر مما لو كان الجسد سليما، لأن قوتى تكمل فقط فى حالات الضعف الجسدى.

من العدل أن نحسب حساب الصعوبات التى يلقاها أى امرىء. وذلك لكى يمكننا تقدير عظمة الخدمة التى يؤديها. وإن تقديرنا للرسول لَيتعاظم جدا حينما نذكر أنه كان فى آلام مستمرة. فإنه عوضا عن أن يجلس فى بيته يائسا، ويترك الخدمة بحجة ضعفه الجسدى، نراه، بكل شجاعة، يلجأ للنعمة التى كانت فى انتظاره، ويتمم بقوة الله خدمات أعظم مما كان ممكنا أن يتممه بقوته لو لم يقيده ضعفه.

إيه أيها السقماء! إن ضعفاتكم قد قُصد بها أن تتحد بقوة الله، وأن يلتقى عجزكم بقدرته. لا تجلسوا إزاء زيجتكم غير الموفقة، وعملكم المعطل، إزاء ذلك الشريك المتجانس، وذلك الضعف الجسدى، واللسان الأبكم، والوجه الدميم، كأن هذه لابد أن تعجّزكم وتغلبكم. إن نعمة الله فى انتظاركم، وفيها الكفاية. وكلما ازداد الضعف البشرى، ازداد عمل النعمة. فالجأوا إليها، عالمين أن منتظرى الله أقوى فى ضعفهم من بنى البشر فى أفخر قوتهم وأكمل صحتهم.

﴿ صراع الرسول بولس ﴾

﴿ أع ١٥ ؛ غل ٢ ﴾

❖ «ما أشد حاجتنا لناموس آخر خلاف ناموس إرادتنا... وسعيد هو الذى يجد ناموسا تتحرر به روحه...

❖ «إننى لن أخضع ثانية لأى نير سوى نير المسيح.»

﴿ هاملتون كينج ﴾

كان اعتزال إبراهيم عن بلاده وأقاربه وبيت أبيه، رمزا لاعتزال شعبه، الذى قيل عنه بأنه: «شعب يسكن وحده، وبين شعوب لا يُحسَب» كما قال بلعام بوحى من القدير (عد ٢٣: ٩). لقد حدد بكل حرص ملابسهم، وطقوسهم، وعاداتهم، وعوائدهم الدينية، لكى يكونوا فى عزلة تامة، حتى إذا ابتعدوا عن كل مؤثرات الشعوب المجاورة، أصبحوا أهلا لقبول معرفة الله، وإبقائها، ونقلها إلى غيرهم. لم تكن هنالك طريقة أخرى للاحتفاظ بالوديعة النفيسة التى اؤتمنوا عليها كل تلك الأجيال الطويلة، والإبقاء على شهادتهم الدائمة لوحدة الله وروحانيته وقداسته. ولم تكن هنالك طريقة أخرى يصيرون بها شعراء روحيين للبشرية، ويصبحون أنبياءها ومعلميها.

كانت نواميس العزلة صارمة جدا، حتى أن بطرس لم يحجم عن أن يُذكّر كرنيليوس وأصدقاءه بالخطر الذى استُهدِفَ له لدخول بيت أممى، رغم أن مضيفه كان رجلا رفيع القدر، وبلا لوم، ومشهود له من كل أمة اليهود. ولما صعد بطرس إلى أورشليم، اتهمه، حتى إخوته الذين معه والذين كانوا من أهل الختان، بارتكاب خطأ شنيع... «خاصمه الذين من أهل الختان، قائلين: إنك دخلت إلى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم».

كان ناموس الوصايا، القائم بفرائض معينة (أف ٢: ١٥)، رتب بعضها موسى، وزاد عليها الكثير جدا المعلمون والرّبّيّون فى الأجيال المتعاقبة، يعتبر حاجزا منيعا توسط بين اليهود والأمم.

كانت كل هذه الحواجز والقيود ممثلة فى الطقس اليهودى الرئيسى، أى طقس الختان، الذى عظّم اليهود فى أهميته لدرجة التطرّف الشديد. قال أحد الرّبّيّين: «لولا هذا الطقس لما وُجدت الأرض والسماء.» وقال آخر أنه يعادل كل وصايا الناموس. وكانوا يعتقدون أنه خير للأممى أن يخضع لهذا الطقس من طاعة كل وصايا موسى الإيجابية أو محبة الله والقريب. وكانوا يفترضون بأن آدم ونوح ويعقوب ويوسف وموسى وبلعام وُلدوا مختونين، وأن هذا الطقس صار فيما بعد فى عهدة، وتحت إشراف، النبى العظيم إيليا، الذى كانوا يعتقدون بأنه حاضر على الدوام لمراقبة إتمامه بدقة.

كان إتمام هذا الطقس يراعَى بمنتهى الدقة والصرامة فى أورشليم. أما فى البلاد البعيدة، وسط الجماعات الأممية الكبيرة، التى اختلط معها اليهود فى التجارة، فقد تساهلوا فى هذه القيود الناموسية، ولو أنهم احتفظوا دواما بطقس الختان، وعدم الاختلاط فى الزواج بغير اليهود، وطريقتهم المألوفة فى ذبح الحيوانات التى لا تزال شائعة بينهم إلى الآن. فواضح إذن أن أية دعوة تقدمها المسيحية لليهود، كانت تَلقَى أكثر قبولا بعيدا عن أورشليم، حيث تقام فيها للحال هناك، بسبب روح التحفظ الشديد الذى تتمسك به مدينة اليهود الرئيسية. لذلك لا ندهش إن وجدنا أنطاكية مركزا للنهضة العظيمة التى تزعّمها بَرنابا وبولس، والتى كانت تتضمن الترحيب علانية بالأمم للانضمام لجماعة المسيحيين، دون الإصرار على الخضوع أولا لطقس الختان المبجل.

وهذا أدى إلى تقدم عظيم، فإلى ذلك الوقت كان المسيحيون، سيما فى اليهودية، يُعتَبرون عند الشعب شيعة يهودية. ولطالما كانوا مستعدين لحضور خدمات الهيكل، والامتثال للتعليمات، والاحتفاظ بالفرائض اليهودية، فإن إيمانهم بيسوع، كالمسيا المنتظر، كان يعتبر خاصية يمكن التجاوز عنها، وغض النظر عنها. وكان مسموحا لهم أن يجتمعوا فى ولائم المحبة طالما كانوا لم يهجروا الهيكل، وأن يصلّوا ليسوع كإله إن كانوا يتصرفون فى كل الشئون كيهود أتقياء. ولكن، لو ظلت هذه القاعدة مرعية فى كل مكان، لاختفت المسيحية سريعا، كما يختفى المجرى إن جاز وسط مستنقع، ولما أمكن تمييزها بعد سنوات قليلة، ولبرزت الديانة اليهودية، بأعبائها التى لا تُحتمَل، ومبالغاتها الكثيرة، كأتقى ديانة ظهرت فى العالم، ولبقى العالم الوثنى فى عزلة مُيَئِّسة، ولتأخر ملكوت الله أجيالا حتى أن ابتدأ تلك البداية الأولى.

على أن كل هذا امتنع بالخطة التى أرشد إليها برنابا وبولس. فى رسالة غلاطية (٢: ٤ و١٢)، نرى صورة لامعة للحرية التى فى المسيح يسوع، التى نالها المتجددون فى أنطاكية، فالمختونون وغير المختونين اشتركوا فى ممارسات واحدة فى شركة مسيحية. لقد أكلوا معا دون تساؤل، وحتى بطرس، لما زار أنطاكية، افتتن ببساطة الشركة المسيحية وجمال الشركة الأخوية، حتى أنه اشترك معهم اختيارا، واشترك فى ولائم المحبة والولائم العادية.

لكن الحزب المحافظ فى كنيسة أورشليم، لما سمعوا هذه الأنباء لم يستريحوا. فإنهم رأوا أنه إذا ساد هذا المبدأ، قوّض أركان سلطتهم، وأضعف مركزهم. فإنهم لم يحتملوا فكرة إلغاء الختان، وإمكانية تداول تعاليم موسى الروحية العميقة بين الأمم بسهولة. ولذلك، قدم إخوة كذبة للحال، كانوا قد أُدخلوا خفية، ودخلوا اختلاسا، ليتجسسوا الحرية التى كانت تتمتع بها كنيسة أنطاكية (غل ٢: ٤). ولما وقفوا على حقيقة الأمر «انحدر قوم من اليهودية، وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى، لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥: ١).

كانت أزمة خطيرة، أدت إلى مناقشة حامية مرّرت حياة الرسول سنوات كثيرة. ولكنها أيضا أدت إلى بعض من أسمى رسائله، وتفسير لحقائق الإنجيل بوضوح تام وجمال منقطع النظير.

«١» لقد تعرضت بعض المواضيع الهامة للخطر، وهاك بعضها على سبيل المثال:

أولا: أتعتبر المسيحية شيعة اليهودية، رواقا فى الهيكل، برعم الزهرة محفوظا فى غلافه، طفلا مقمطا ممتنعا عليه نموه الطبيعى؟

ثانيا: أتبقى الفرائض الناموسية المتعلقة بالطقوس والشعائر، والأعياد والأصوام، متساوية مع ناموس سيناء والتثنية الأدبى، أم تعتبر رمزا يجب أن يبطل متى حلّ المرموز إليه؟

ثالثا، وأهم الكل: ما هى الشروط التى بها ينبغى للمرء أن يخلص؟

إن شروط الخلاص موضوع حديث كل الأجيال. قد تختلف التفاصيل، ولكن المناقشة واحدة على الدوام. لا تزال الاختلافات قائمة بين الكنائس عن شروط الخلاص. ومن حجج الرسول الدامغة، التى أسكت بها خصومه فى القديم، نستطيع أن نجد السلاح.

إن الخلاص لا يُنال بمجرد الخضوع لطقس معيّن، ولا باتباع قواعد مرسومة، ولا بإطاعة تعاليم ثابتة. قد يدقق المرء فى حفظ كل هذه، ومع ذلك، يبقى تحت غضب الله، ويلبث منغلبا من شهواته.

فالشرط للخلاص هو الإيمان، الذى يؤمن بمن يبرر الفاجر، ويقبل فى القلب طبيعة يسوع لتصبح قوة للحياة الجديدة. إذن، فكل الطقوس الخارجية نافعة بجانب الإيمان. إنها لها مكانتها، ولها احترامها. ولكنها، لا قيمة لها، ولا فاعلية، بدون الإيمان.

على أن هنالك ميلا دائما فى القلب البشرى للاتكال فقط على الممارسات الخارجية، لأن الأمور المنظورة هى الملموسة، ومتى اعتمد عليها المرء فقط، أصبحت ديانته آلية.

إذن، فلا ننسى قط أنه: «فى المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة»، والخليقة الجديدة، وحفظ وصايا الله (غل ٥: ٦). ولنقتد دواما بالرسول الذى قال: «الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل» (غل ٢: ٥).

﴿٢﴾ المناقشة بين الطرفين:

«حدثت لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم».

﴿١﴾ ألم يكمل يسوع ناموس موسى؟ ألم يُختَن؟ ألم يحفظ بدقة الأصوام والأعياد، بل دفع نصيبه فى جباية الهيكل؟

قال برنابا وبولس: هذا صحيح. ولكن، يجب أن تذكروا أنه عندما مات يسوع، قال: قد أكمل. وانشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، ليبين أن الديانة اليهودية قد أكملت رسالتها المعطاة إليها من الله. منذ تلك اللحظة، لم يصبح يسوع مخلّص اليهود فقط، بل فادى العالم. عندما أيّد الله العهد الجديد بدم الجلجثة، عتق العهد الأول «وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال» (عب ٨: ١٣).

﴿٢﴾ لكن، يقينا إن الناموس الذى أعطى بموسى دائم. ألم يؤكد يسوع الناصرى أنه لا تزول نقطة واحدة أو حرف واحد حتى يكون الكل؟

هذا مؤكد. ولكن، يجب حتما التمييز بين الظاهر والباطن، بين الطقسى والأدبى، بين الصورة والمادة. من المستحيل التصديق بأن الناموس الطقسى، الذى رُسم لغرض معيّن، يمكن أن تكون له نفس القوة والإلزام والأهمية التى للوصايا العشر التى يشهد لها ضمير كل البشر.

﴿٢﴾ ولكن، إن أرخيتم قيود الناموس، ألم ترخوا كل القيود الأدبية، وهذا يؤدى إلى تساهل عام فى الالتزامات العائلية والحكومية؟

لا خوف من هذا، لأن بساطة الإيمان قد تقدم لنا الجواب. فإن النفوس التى ترتبط بيسوع المسيح بالإيمان تتطهر، إذ تنال منه قوات من الحياة الروحية، بذلك تتطهر وتتقدس إلى التمام. إذن «أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا. بل نثبّت الناموس» (رو ٣: ٣١)، «لكى يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين، ليس بحسب الجسد، بل حسب الروح» (رو ٨: ٤)، «لأن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع قد أعتقنى من ناموس الخطية والموت» (رو ٨: ٢).

﴿٣﴾ الالتجاء إلى أورشليم:

على أن المناقشات لم تأت بنتيجة حاسمة. ولذلك، تقرر نهائيا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون إلى أورشليم لاستشارة الرسل والمشايخ فى هذه المسألة.

اجتاز هؤلاء ببطء فى فينيقية والسامرة يصرّحون برجوع الأمم فى كل الجماعات المسيحية الضئيلة العدد التى مروا بها فى طريقهم، إلى أن وصلوا أورشليم، حيث عُقد اجتماع عظيم بصفة خاصة، فأخبروهم بكل ما صنع الله معهم، أى بالتعاون والاشتراك معهم، كأن المسيح الحى، إذ باركهم، اشترك بنفسه فى الخطة التى اتبعوها، ولكن حديثهم كان يقاطَع، إذ «قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين [ثائرين ومتحمسين] وقالوا أنه ينبغى أن يُختتنوا ويوصَوْا بأن يحفظوا ناموس موسى» (أع ١٥: ٥).

ومرة أخرى عُقد اجتماع خاص حصلت فيه مباحثات كثيرة. حينئذ، قام بطرس، وقال لهم: فى اعتقادى أن هذه المسألة قد بت فيها الله بنفسه، عندما حل الروح القدس على الأمم الغلف فى بيت كرنيليوس، كما علينا أيضا فى البداءة. وإن كان لم يميز بيننا وبينهم بشىء، فلماذا نميز نحن؟

بعد ذلك، كرر برنابا وبولس روايتهما العجيبة، مؤكدين فى هذه المرة أنهما لم يكونا سوى آلات استخدمها الله، وبيّنا كيف بارك الله الأمم بركة عظيمة جدا، ولا يزال يبارك، بغض النظر عن الختان.

وأخيرا، لخص يعقوب[١] كل المناقشة، وخرج منها بأربع نقط صغيرة، رأى من المناسب أن يصر عليها، لأجل حفظ النظام فى الجماعات الصغيرة، ولكنه لم يذكر بينها الختان، ولم يصر على طاعة الفرائض والشعائر الناموسية. عندئذ، وافق الرسل والمشايخ على رأيه السديد.

وهذه الموافقة الإجماعية التى حصلت بين زعماء الرسل وبين المبشرين العظيمين اللذين سببا كل هذه المناقشة، تعزّى على الأرجح جدا إلى المقابلة الخاصة التى سعى إليها بولس (غل ٢: ٢)، والتى يعتقد معظم المفسرين أنها تمت فى تلك الفترة.

لقد أخبرنا أنه صعد بموجب إعلان، كأنه كان هنالك ضغط روحى عليه علاوة على طلب الكنيسة. وعند وصوله إلى أورشليم، عرض على المعتبرين الإنجيل الذى كرز به بين الأمم، لئلا يكون قد سعى باطلا.

وقد استراحت روحه عندما وجد أنهم لم يناقضوا رأيه، ولا أصروا على ضرورة ختان تيطس، وكان شابا يونانيا. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، إذ اعترفوا بأنه ائتُمن على إنجيل الختان، وأعطوه وبرنابا يمين الشركة ليكونا للأمم، وأما هم فللختان. كانت قوة الرب يسوع المقام تعمل بقوة فى خادميه، حتى إنه لم يكن هنالك اعتراض على هذه الدعوة التى دُعيا إليها.

---

(١) راجع: (أع ١٥: ١٣ - ٢١).

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

خذل حزب الفريسيين، وصدر القرار بالموافقة على رأى يعقوب. ولكن، منذ تلك اللحظة، قامت حرب شعواء على الرسول بولس، وظلت تلاحقه مدة عشر سنوات، وكلفته متاعب كثيرة، ودموعا غزيرة. فإن كل كنيسة أنشأها، زارها سفراء من قِبَلِ خصومه الألداء الذين لم يكتفوا بالإصرار على ضرورة الختان، بل أكدوا إن بولس لم يكن رسولا، لأنه لم ير المسيح إلا فى رؤيا، ولم يرافقه قط أيام حياته على الأرض. وافتروا على أخلاقه الشخصية، وحرّفوا معنى إحجامه عن قبول هدايا من المتجددين على يديه، وتحدثوا بمرارة عن عيوبه الشخصية. وفى كثير من الأحيان، نجحوا فى تنفير أبنائه الروحيين منه.

كثيرا ما أشار بولس إلى هذا الاضطهاد المر فى رسائله للغلاطيين والكورنثيين، والواقع إنه حز فى نفسه. ومع ذلك، لم يعترف بالهزيمة قط، إذ أن هذا البطل، قلب الأسد، جاهد الجهاد الحسن إلى النهاية بصلوات ودموع، بمناقشات واقتناعات، بتهديدات واعتراضات. ولدى التأمل فى لهجة رسائله الأخيرة، يصبح القول أن الرب قد سمح له بأن يرى ختام دفاعه، حيث قصدت عناية الله ألا يُصَبّ خمر المسيحية الجديد فى زِقاق اليهودية العتيقة.

إن كانت شروط التبرير واضحة كل الوضوح الآن، وهى تُلَخّص فى التوبة إلى الله والإيمان بالرب يسوع المسيح، وإن كان قد تبيّن أن الخلاص مجانى كالهواء، وإن كنا نستطيع أن نثبت فى الحرية التى حررنا المسيح بها، وإن كنا نستطيع أن نبشر الجميع بأن كل الذين يؤمنون يتبررون من كل شىء ــ فإن ذلك كله يُعَزَّى لشجاعة رسول الأمم التى لم تلن، والتى بها دافع عن الإيمان المسلَّم مرة للقديسين، والتى استطاع بها فى إحدى المناسبات أن يواجه حتى الرسول بطرس نفسه لأنه كان ملوما (غل ٢: ١١).

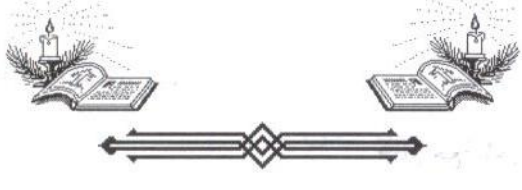

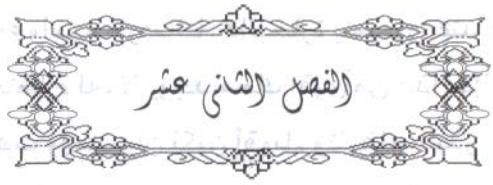

﴿ درس فى الإرشاد ﴾

﴿ أع ١٦ ﴾

- «لتكن إرادتك المقدسة كل لذتى...
- «ولا تسمح أن أتمم عملا من تلقاء ذاتى...
- «بل حسبما توجهنى محبتك....
- «تاركا كل التدبير لحكمتك.»

﴿ هربرت ﴾

بعد فترة قصيرة، اقترح بولس على بَرنابا أن يرجعا ويفتقدا إخوتهما فى كل مكان ناديا فيه بكلمة الرب كيف هم.

كانت هذه بداءة رحلته التبشيرية الثانية التى أتت بنتائج أعظم.

أشار بَرنابا أن يأخذا معهما مرقس، كما حدث من قبل، أما زميله فلم يقبل هذا الاقتراح قط. فإن مرقس كان قد تركهما فى بداية رحلتهما السابقة، وكان يخشى أن يكرر نفس التصرف؛ ولكن بَرنابا أصر على رأيه. ولعله كان يرى أن له بعض الحقوق فى الأمر، **أولا**: باعتباره أكبر سنا، **وثانيا**: بسبب رابطة القرابة بينه وبين ابن أخته. وأخيرا، اشتدت المنازعة لدرجة أنها وصلت إلى علم الكنيسة التى انحازت إلى جانب بولس، لأن رواية سفر الأعمال تخبرنا أنه عندما اختار بولس سيلا «خرج مستودَعا من الإخوة إلى نعمة الله.»

كلما شرعنا فى القيام بأية خدمة عظيمة من أجل الله، فإنه بنسبة أهمية الخدمة، نتوقع الالتقاء «بالرجل القوى المسلح»، ليقطع علينا الطريق. كثيرا ما حاول تعطيلنا عن طريق طباع وأمزجة رفقائنا. فالبحارة يتمردون عند اقتراب كولومبوس من الشاطىء الذى طال انتظاره له. لا يوجد محك أقوى من هذا؛ فإنه من العسير أن نكون حازمين ولطفاء فى وقت واحد، وأن نكون أقوياء وظرفاء. احذر من التجربة التى تأتى من هذه الناحية، من زملائك فى الخدمة. إن اضطررت لتخالف زملاءك، فليكن ذلك بمحبة. أشعرهم بأنه لا مصلحة شخصية لك فى الخدمة إلا خدمة الحق. إن تنازع معك لوط، فخير لك أن توافقه على طلباته وتبعده عنك، والله يعطيك أفضل وأكثر مما يمكن أن يأخذه هو. فقط، لا تتصرف أى تصرف يبعد عنك حمامة الله الوديعة... إن المحبة الكاملة هى الجو الوحيد الذى فيه يتقدم الروح القدس لمعونتك.

❖ ❖ ❖

فى أرجاء غنية بزهورها وجمالها الطبيعى، اجتاز بولس وسيلا فى سورية وكيليكية، يشددان الكنائس الفتية التى كانت مدينة بوجودها لجهود بولس الأولى على الأرجح جدا. وهكذا اجتاز من أبواب كيليكية إلى طرسوس مسقط رأسه، ولكنه لم يجد فيها ترحيبا، ولعل وطنه قد أُغلِقَ فى وجهه نهائيا. وهكذا اجتاز الزميلان بين الجبال وراء طرسوس، ووصلا إلى السهل الأوسط بآثاره البركانية، ورياحه اللافحة. وبعد رحلة مضنية استغرقت بضعة أيام، وصلا إلى دَربة ولِسْتْرَة وإيقونية التى اقترنت أسماؤها بالرحلة الأليمة السابقة.

أى ترحيب كان يمكن أن يلقاه بولس؟ وما أكثر الأسئلة التى توجه بصدد برنابا، وما أكثر ما قال وما سمع؛ على أن قلب الرسول كان مثقلا بثقل خاص. ففى زيارته السابقة، استرعى نظره شاب التفت حوله بحماسة شديدة، وتتبع بغيرة الشباب تعليمه وسيرته وقصده وإيمانه وأناته ومحبته وصبره (٢ تى ٣: ١٠)، ولعله أيضا كان متصلا بالجماعة القليلة التى وقفت حوله حينما انهالت عليه الحجارة ممن حاولوا أن يبعدوه قبل ذلك بأيام قليلة. لقد سأل عن تيموثاوس، وسُرّ أن يعلم بأمانته لتعاليم السيدتين

الفاضلتين اللتين أشرفتا على تربيته التربية الصالحة، وتعليمه فى الكتب المقدسة منذ الطفولية، ويبدو أن الأسرة كلها كانت متصلة اتصالا وثيقا بالكنيسة الفتية، لدرجة أن أمه، رغم أنها كانت يهودية، لم تلزم ابنها بالخضوع لطقس اليهودية الأساسى. لذلك، بقى ختان الشاب معلقا وفقا للتعاليم الحرة الجريئة التى غرسها بولس.

وكانت كل التقارير التى أعطيت عن تيموثاوس طيبة. فكان مشهودا له من الإخوة الذين فى لسترة وإيقونية (أع ١٦: ٢). وكلما ازداد بولس تعرفا به، ازداد تعلقا به. وأخيرا، قرر أن يرافقه فى رحلاته كابنه فى الإيمان. ثم ختنه، لا لأنه رأى أن هذا أمر لازم، بل رأى أنه أكثر ملاءمة، لكى لا تكون هنالك عقبة نحو دخول مساعده الشاب إلى مجامع اليهود.

وأقيمت خدمة بسيطة للرسامة، أُفرِزَ فيها تيموثاوس لعمله العظيم. التف حوله الشيوخ حين وضّع الأيدى على رأسه المنحنية. وإجابة للصلاة المقترنة بالإيمان، نال موهبة الكلام. وقد ذكّره بولس، فى السنوات التالية، بأن يضرم الموهبة التى فيه، المعطاة إليه بوضع يديه وأيدى المشيخة (١ تى ٤: ١٤ ؛ ٢ تى ١: ٦).

وهكذا أرشد الروح القدس بولس ليدعو فَعَلَةً جددا للحصاد، ويُعدّهم بمؤهلات خاصة للخدمة. ويبدو أن بولس كانت له قوة عجيبة فى هذه الناحية، لأنه، فى رسالته إلى أهل غلاطية، يشير صراحة إلى أنه منحهم الروح القدس بإيمان (غل ٣: ٥). وعندما وضع يديه على الاثنى عشر تلميذا فى أفسس، حل عليهم الروح القدس، وتكلموا بألسنة، وتنبأوا (أع ١٩: ٦ و٧).

❖ ❖ ❖

إذ ترك بولس رفاقه فى لسترة، افتقدوا الكنائس التى فى مرتفعات فريجية وغلاطية، ناشرين رسالة يعقوب فى كل مكان. بعد ذلك، حاولوا الذهاب إلى مدن آسيا الصغرى الهامة، مثل كولوسى ولاودكية وأفسس. وماذا كان ممكنا لهم أن يفعلوا أفضل من حمل نور الإنجيل لأولئك الجماهير الغفيرة الجالسين فى الظلمة وظلال الموت؟

ولكنهم لم يتمكنوا، إذ «منعهم الروح القدس أن يتكلموا بالكلمة فى آسيا». أتيح لبولس، فى السنوات التالية، أن يؤدى بعضا من أجل الخدمات فى نفس تلك المنطقة. أما فى هذا الوقت، فقد أغلق الروح القدس الباب. لم يكن الوقت قد حان بعد للهجوم على حصون مملكة الشيطان المنيعة هذه. كان يجب أن يذهب أبولس أولا للبدء بالخدمة. أما بولس وبَرنابا، فكانت الحاجة ماسة إليهما بسرعة فى مكان آخر؛ وكان يجب أن يزدادا تدريبا قبل البدء بهذه الخدمة الخطيرة الشاقة.

لذلك، سار الإخوة متجهين نحو الشمال، قاصدين مقاطعة بيثينية الشهيرة، الواقعة على شاطئ البحر الأسود. ولكنهم، عندما وصلوا إلى نقطة معينة فى الطريق الرومانى العظيم، مقابل ميسيا، وحاولوا الخروج من آسيا الصغرى إلى بيثينية، لم يدعهم الروح.

وإذ تعطلوا لما حاولوا الذهاب غربا، وقفوا عندما طلبوا الذهاب إلى الشمال الشرقى. ولم يكن أمامهم سوى أن يسيروا بالاستقامة، حتى وصلوا إلى نهاية الطريق على شاطىء البحر، عند ميناء ترواس الشهيرة التى هى طروادة القديمة. هنالك التقوا بلوقا، الذى يشير إلى وجوده منذ تلك اللحظة، لهجة المتكلم بصيغة الجمع «نحن... إلخ». وهنالك أشار الرجل المكدونى على هذه الجماعة القليلة بحمل راية المسيح إلى قارة أوروبا التى لم تُمَس بعد.

يا له من عمل جليل للروح القدس. إنه هو روح يسوع. عندما تمجّد يسوع، أعطى الروح القدس بقوة خمسينية. والقصد الرئيسى من عمله، أن يمجّد الرب يسوع، ويجمع معا أعضاء جسده، مؤهلا إياهم للاتحاد برأسهم. هو أيضا معزّى ومرشد القديسين إلى أن تحضر الكنيسة لربها بلا لوم، كما قاد أليعازر الدمشقى رفقة إلى ابن سيده.[١]

---

(١) راجع: (تك ٢٤).

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

يلذ لنا أن ندرس طريقة إرشاده كما تمت لأولئك السفراء الأُوَل. كانت كثيرا ما تتضمن منعهم من اتخاذ أية خطوة ليست سليمة. عندما أرادوا[†] الاتجاه يسارا إلى آسيا، منعهم. وعندما طلبوا الاتجاه يمينا إلى بيثينية، منعهم أيضا. أغلق فى وجوههم كل الأبواب. ولذلك، لم يكن أمامهم إلا الاتجاه إلى الأمام. وعندما لم يكن هنالك أى أمر بالمنع، كانوا يستنتجون أنهم سائرون فى الطريق الممهد الذى لأجله خُلِقوا فى المسيح يسوع.

عندما تكون هنالك أية شكوك بصدد الطريق الذى تسلك فيه، سلّم قيادتك تلسيما كاملا لروح الله، واطلب منه أن يغلق كل الأبواب، إلا الباب السليم. قل له: «يا روح الله، إننى ألقى عليكِ كل المسئولية، لكى تغلقى دونى كل طريق ليس من الله. دعينى أسمع صوتكِ خلفى كلما اتجهت يمينا أو يسارا؛ أمسكى بيمينى، ولا تتركينى.»

وفى نفس الوقت، استمر سائرا فى الطريق الذى تسلكه. البث فى الدعوة التى دُعيت إليها. استمر كما أنت، إلا إذا تلقيت تعليمات صريحة بالسلوك فى طريق آخر. لا تخرج إلا إذا رأيت، بكل وضوح، بابا مفتوحا للخروج، كما رأيته بكل وضوح مفتوحا للدخول. وإن لم تر هذه العلامة، فاعرف بأن ذلك علامة من الله على أنك سائر فى طريقه الصحيح.

إن روح يسوع يريد أن يكون لك أيها المسافر كما كان لبولس. فقط، كن حريصا لإطاعة أقل تحذيراته. وعندما لا تكون هناك موانع، ظاهرة بعد صلاة الإيمان، فثق بأنك فى الطريق الأبدى، وتقدم فيه بقلب تائب «علمنى أن أعمل رضاك لأنك أنت إلهى. روحك الصالح يهدينى فى أرض مستوية» (مز ١٤٣: ١٠)؛ ولا تعجب إذا ما أتى الجواب بإغلاق الباب. ولكن، إن وجدت الأبواب مغلقة يمينا ويسارا، فلابد أن يكون هناك باب مفتوح يؤدى إلى تروآس... وهنالك، تجد لوقا فى الانتظار، والرؤى للإرشاد إلى الطريق، والفرص الواسعة مهيأة، والأصدقاء الأمناء فى الانتظار.

(†) بولس ورفاقه.

﴿المراجع: ناجى بطرس - مكتبة المحبة﴾

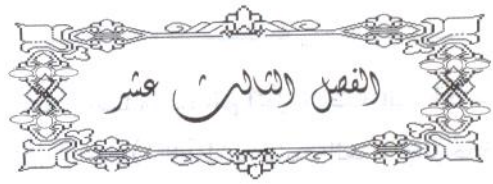

﴿ أيها الفيليبّيّون ﴾

﴿ فى ٤: ١٥ ﴾

- «هاك هى الأصوات التى تحيى وتنعش
- «والحارس الوحيد للحظيرة
- «عندما يشتد ظلام الليل ويقترب الأعداء
- «عندما تنعدم الرؤى وتفتر القلوب
- «عندما تستعذب أغنية الصديق
- «إذ تأتى كالنسيم العليل
- «آمرة إياك: تشجع وتقوَّ
- «قد تتبدد الأوهام، لكن الإيمان موجود.»

﴿ كبل ﴾

إن الشخص الكثير المشاغل، المُجهَد، المُتعب القلب، الذى يساء الظن فيه، الذى تلاحقه الهموم الكثيرة، والمشاغل العديدة، يحتاج إلى مكان يستريح فيه جسده المُضنى، وتسترخى فيه النفس فى جو المحبة وعلى فراش العطف. حتى يسوع، كان يجد بيت عنيا، وجيد أن يوجد هذا المكان فى «البيت»، حيث نجد الباب الذى يغلق دون متاعب الحياة، يُفتح أمامنا لنستمتع بالمحبة والعطف، والخدمات الرقيقة التى تتميز بها المرأة. إن العالم لا يُقدّر النصيب الكبير الذى قامت به المرأة

فى تغذية أعظم أبطاله بالصبر والشجاعة. فى هدوء الحياة العائلية توجد الأيدى الرقيقة التى تضمد جروح الجلدات، وتسكب الزيت، وتُمكّن الجندى من العودة إلى ميدان الجهاد.

على أن الكثيرين ممن أسدوا للعالم أجَلّ الخدمات، قد حُرموا من هذه الحياة العائلية، رغم حاجتهم الشديدة لهذا العطف. كانت العزلة والوحدة نصيبهم؛ **أولا**: بسبب مقتضيات مراكزهم، **وثانيا**: لأنه كان من الصعب أن يجدوا الشخص الذى يعطف عليهم، أو يكشفوا قلوبهم إليه. هكذا كانت الحال مع بولس. لقد كان مستقلا بذاته، قويا، يشبه جبال طرسوس الشامخة التى اكتست منحدراتها بالخضرة اليانعة، بينما وقفت قممها العالية شامخة فى عزلتها. وقليلون هم الذين ظفروا بمثل ما ظفر به من رقة العواطف مع الغيرة المُتّقدة؛ فإن التحيات الخاصة الرقيقة التى خُتمت بها رسائله، والدموع الغزيرة الحارة التى كانت تسيل منه عند توديع الأصدقاء، وآلامه النفسية عندما كان يجرح إحساس أولئك الذين كان ملزما بأن يصحيهم ويوبخهم، وشدة اشتياقه لوجود رفقاء معه - هذه كلها تدل على إخلاص وشدة محبته، ولكن كان من نصيبه أن لا يجد بيتا يستقر فيه، أو مكانا يصح أن يدعوه بيتا عائليا.

نعم، دون عطف الأخت أو الابنة...
ودون معونة الأب أو الابن...
وحيدا على الأرض، وشريدا فى البحار...
أقضى أيامى بالصبر حتى أتمم عملى...

ومع ذلك، فقد كانت للرسول قوة سحرية ليجذب نحوه الرجال والنساء. لقد رأينا كيف طرح عباءة قوته المغناطيسية على سيلا وتيموثاوس، وكيف كان الغلاطيون مستعدين أن يعطوه عيونهم؛ ولكنه، كان مزمعا الآن أن يربح مجموعة من الأصدقاء لا يفترون عن محبته مدى الحياة، مخلصين له، مهما ابتعد عنه الآخرون، يزدادون فى خدمته، مهما حلت المتاعب أو الأخطار. كانت فيلبى مزمعة أن تكون له ألمع البقع فى كل الأرض، أفضل من طرسوس التى جحدته، وأفضل من أورشليم التى طردته، ولا يَفْضُلَها إلا الفردوس.

لقد كسبت قلوب الإخوة والأخوات...
لا يزال البعض أحياء على الأرض...
والبعض قد رقدوا...
هو ذا الجميع يرحبون بى...
كما يرحب بى رأس أسرة الله التى بلا لوم...

﴿١﴾ لوقا:

يبدو أن هذا الطبيب المحبوب، التقى به أولا فى تراوس. الأرجح جدا أن هذه المقابلة قد تمت بدون ترتيب سابق، لأن الرسول وجد نفسه مضطرا لاتخاذ طريقه نحو هذه الميناء القديمة التى كانت لها أهميتها التاريخية، إذ كانت تحمل آثار حصار طروادة، وأهميتها التجارية بسبب علاقاتها مع الشرق والغرب. كانت كل مقاطعات آسيا الصغرى الشمالية ترسل حاصلاتها إليها لتصديرها بَرًّا إلى مقدونية واليونان، وكان تجار الغرب المكدونيون يأتون إليها ببضعائهم بدلا من تلك الحاصلات. ويُظَن أن لوقا، الذى كان من أهل فيلبى، سار فى إثر الحركة التجارية لمزاولة مهنته كطبيب بين بنى وطنه، وربما كانت إقامة بولس المؤقتة، فى الحى اليهودى المزدحم، سببا فى نكسته بالمرض الشديد الذى كان يشكو منه فى غلاطية، أو فى إصابته بالملاريا، فاضطر لاستدعاء أقرب طبيب، وهذا كان لوقا. وعلى أى حال، ففى تلك المدينة، التقى هذان الرجلان، وفيها على الأرجح جدا ربح خادم الله طبيبه المعالج للمخلص، واختار هذا التلميذ الجديد، بحماسة شديدة، أن يلازم بولس فى رحلاته، لكى يتمكن فى كل وقت من معالجة جسد صديقه الكثير الأمراض.

وللحال، وضعت فيه كل الثقة، وأصبح واحدا من تلك الجماعة القليلة التى حدثها بولس فى صباح أحد الأيام عن رؤية الرجل المكدونى، واشترك معه ومع سيلا وتيموثاوس فى استخلاص هذه النتيجة، وهى أن الرسول يجب أن يعبر فيما وراء بحر اليونان، حيث ينتظره التوفيق العظيم، وذهب ليرتب السفر فى إحدى السفن الكثيرة الراسية فى الميناء، وسجل باهتمام كبير، وتوفيق شديد، خطوات الرحلة إلى فيلبى.

أصبح لوقا عزيزا جدا لدى الرسول، فاتصل به اتصالا وثيقا، وهذا يتبين من عبارتين؛ دونت الأولى من البيت الذى استأجره فى السجن الرومانى الأول، والثانية من أعماق السجن الثانى: «لوقا الطبيب الحبيب»، «لوقا وحده معى» (كو ٤: ١٤، ٢ تى ٤: ١١).

﴿٢﴾ ليدية:

الأرجح أنها كانت أرملة ذات مقدرة تجارية عظيمة، استطاعت أن تترك مسقط رأسها فى ثياتيرا وتعبر البحر لتستقر فى فيلبى لبيع الملابس الأرجوانية التى اشتهرب بها مدينتها. ويبدو أنها كان لها رأس مال كبير حتى استطاعت التجارة فى هذه البضاعة الغالية، ومع ذلك، فقد كانت «متعبدة لله». كانت الجالية اليهودية فى فيلبى قليلة وفقيرة، حتى أنهم عجزوا عن بناء مجمع لهم، فاضطروا أن يجتمعوا بجانب النهر، فى مكان الغزل، أو بستان، ليتواروا عن أعين الناس. هنالك كانت تجتمع مع أهل بيتها كل سبت للإصغاء إلى الأسفار المقدسة اليهودية وتطلب الله لعلها تتلمسه، فتجده، غير عالمة أنه عن كل واحد منهم ليس بعيدا (أع ١٧: ٢٧). وفى يوم سبت خالد، إذ كانت النساء فقط مجتمعات، ظهر أربعة رجال غرباء يهود، فجلسوا، وكانوا يكلمون النساء اللواتى اجتمعن. كانت هذه أول عظة فى أوربا. ومما هو جدير بالملاحظة، أنها ألقيت على حفنة من النساء، فى العراء. وكانت ليدية بداية لنساء كثيرات، قديسات، رحبن بالرب يسوع ملكا وعريسا، وصار العراء منظرا لأعظم انتصارات الصليب.

كانت نتيجة تلك الخدمة الصباحية، تجديد ليدية، وليس واضحا إن كانت قد قبلت رسالة الرسول عن المسيح المصلوب الحى دفعة واحدة، أو تدريجيا. وعلى أى حال، فقد «فتح الرب قلبها»، كما تنفتح الزهرة للشمس، وكانت النتيجة أنها آمنت هى وأهل بيتها بيسوع الذى كرز به بولس. وقد كانت واثقة كل الثقة من أمر تجديدها، حتى أنها كانت مشتاقة جدا أن يذهب بولس ويقيم فى بيتها «إن كنتم قد حكمتم أنى مؤمنة بالرب، فادخلوا بيتى وامكثوا». يا له من تغيير مبارك ذلك الذى أدى إلى هذه النتائج المباركة فى حياتها، وفى حياة بولس.

ولا بد أنها كانت امرأة قوية الحجة والإلحاح والمثابرة، حتى أنها تغلبت على إحجام بولس عن الاعتماد على واحد ممن تجددوا على يديه. هو ذا يتساءل فى إحدى المناسبات: «فما هو أجرى إذ وأنا أبشر أجعل إنجيل المسيح بلا نفقة... لأنه خير لى أن أموت من أن يعطل أحد فخرى» (١ كو ٩: ١٥ و١٨). كان يفضل أن يتحمل كل شىء عن أن يشك فى نزاهته، ويُتهم بأنه ينتفع شخصيا من وراء الإنجيل. لذلك، كان يشتغل ليلا ونهارا لكى لا يثقل على أحد، وحاجاته وحاجات الذين معه خدمتها يداه (أع ٢٠: ٣٤). أما ليدية، فقد تغلبت على كل اعتراضاته، وحينما عاد لوقا بذاكرته إلى هذا المنظر، كتب قائلا «فألزمتنا»، وهكذا وجد هؤلاء الرفاق الأربعة فى بيتها الكريم ضيافة مريحة.

من المستحيل الآن أن نعرف من السجلات القديمة مقدار الخدمات التى أدتها فيما بعد هذه السيدة النبيلة الحازمة. فى أربع مناسبات مختلفة، نجد كنسة فيلبى ترسل إعانات لمؤسسها ومعلمها المحبوب (٢ كو ١١: ٩ ؛ فى ٤: ١٠-١٨)، والأرجح جدا أن ذلك يعزى إلى بُعد نظر ليدية وكرمها. لم تقم أية كنيسة أخرى بخدمة جليلة كهذه، لأنه لم يكن ممكنا لأية كنيسة أن تقوم بها. لقد كان معظمهم فى فقر مدقع، كما يلمح بولس، والأرجح أن الفيلبيين كان ممكنا أن تُشَلّ حركتهم فى هذه الناحية، كغيرهم، لولا كرم ليدية وأهل بيتها الذين كانوا أثرياء بسبب تجارتهم. ويقال أيضا أن بولس نال من نفس هذا المصدر ما مكنه من أن يقضى سنتين فى قصر قيصرية فى انتظار محاكمته، وسنتين أخريين فى البيت الذى استأجره فى رومية. ولعل ما سمعه فيلكس عن هذه السيدة الغنية، هو الذى أغراه على إبقاء بولس مقيدا. انظر (أع ٢٤: ٢٦).

يزعم البعض أن بولس تزوج ليدية، ولكن لا يوجد فى الكتاب المقدس ما يؤيد هذه الرواية قط، بل فيه الكثير من الأدلة ضدها. ولا شك فى أن كل أحاديثه الواردة فى الإصحاحين ٧ و ٩ من رسالة كورنثوس الأولى، تعتبر برهانا على أن ما نسب إليه من أمر تزوجه بليدية أو ثكلا[١] لا صحة له على الإطلاق. لذلك، فنحن نميل إلى

---

(١) ثكلا: سيدة فاضلة تقية، قيل إنها آمنت إذ رأت النور، بإعلان إلهى خاص، وقد كتبت عنها الأقاصيص الكثيرة، سيما عن اضطهادها فى أنطاكية بيسيدية، ومما كتب عنها كتاب «أعمال بولس وثكلا».

الاعتقاد بأن ليدية كانت سيدة طيبة نبيلة مخلصة، صديقة حميمة لبولس، حسبته امتيازا عظيما وفرحا كبيرا أن تحصد بعض البركات الروحية الجزيلة، على أن يكون جزاؤها أن تسمع يوما ما من فم السيد، بأنها إذ خدمت خادمه، وأنها إذ قبلت رسولا باسم رسول، فأجر رسول تأخذ.

﴿٣﴾ وهنالك أيضا بعض شخصيات أخرى أقل أهمية:

هنالك الجارية التى كان بها روح عرّافة، وتملّك عليها الشيطان، التى اتّبعت بولس ورفاقه معترفة بأنهم عبيد الله العلىّ الذين ينادون بطريق الخلاص. وهنالك أصحابها الذين أثروا بسبب روح العرافة الذى كان فيها، إذ كانت تبين لأصحاب المناجم أين يوجد الذهب، وللفتيات متى يتزوجن، وللتجار الوقت المناسب للتجارة؛ هؤلاء اغتمّوا إذ أمر بولس الروح بالخروج منها، وبذلك «خرج رجاء مكسبهم» (أع ١٦: ١٦ - ١٩). وهنالك الولاة الرومانيون الذين نسوا بشكل غريب تقاليد وظيفتهم، وانساقوا فى تيار الغوغاء، ولم يتّبعوا حتى إجراءات المحاكمة العادية، بل مزقوا ثياب المُتَّهَمَيْنِ بأيديهم «ووضعوا عليهما ضربات كثيرة» دون محاكمتهما مع أنهما رومانيان (أع ١٦: ٢٠-٢٣). وإذ رجع بولس بذاكرته إلى الطريقة التى عومل بها من هؤلاء الولاة السفلة، ذكر كيف تألم منهم آلاما مبرحة، وكيف عاملوه معاملة مخزية (١ تس ٢: ٢). كان هنالك أيضا سيلا، الذى كان عند حسن ظن بولس فى اختياره، لأنه بَيَّنَ مقدرته على تحمل العار والآلام من أجل يسوع. وكان من الخير أن مرقس لم يكن هناك، لأن الله دعاه للخدمة فى حقل آخر، متسع جدا. على أن أنظارنا تتحول من هؤلاء إلى الشخص الرئيسى فى هذا المنظر، الذى كانت رواية تجديده سبب تعزية جليلة الشأن جدا لربوات من القلوب المتحطمة، ألا وهو:

﴿٤﴾ السجان:

ولعله كان فظا خشنا؛ وماذا ينتظر سوى هذا من رجل قضى أوائل أيام حياته فى الجيش الرومانى، وأواخر أيامه فى أعمال القسوة والوحشية فى سجن رومانى؟ إن كان الرؤساء لا يترددون فى كسر القانون، وانتهاك حرمة الآداب واللياقة، فإن مرؤوسهم لا ينتظر منه أن يختلف عنهم، ولابد أنه قد تصرف تصرفات وحشية مع اليهوديين اللذين

أعطيت إليه الأوامر بحراستهما بضبط. وكان السجن الداخلى أشبه بمغارة حالكة الظلام تحت بيته (أع ١٦: ٣٤). فى هذا السجن ألقاهما، ولعلهما مددا جسميهما على الأرض الرطبة مباشرة؛ ولصق ظهراهما الداميان بالتراب، وضبطت أرجلهما فى المقطرة.

ونحو نصف الليل، كان السجينان مسرورين جدا، حتى لم يطيقا نفسيهما، وابتدأا يرنمان وينشدان المزامير ، ويصليان من وقت لآخر. لا شك فى أنهما كانا على اتصال كامل بربهما، ووجدا نفسيهما يفيضان فرحا فائقا جدا «باركى يا نفسى الرب، وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدوس». كان صوتا لم يألفه المسجونون الذين وقفوا أو اضطجعوا حولهم فى ظلمات السجن، وكانت السلاسل التى ربطوا بها مثبتة فى الحائط، ولم يفكر واحد منهم فى النوم، فالكتاب يخبرنا: «والمسجونون يسمعونهما».

حدثت بغتة زلزلة عظيمة عند الترنم، فانفتحت فى الحال الأبواب كلها، وانفكت قيود الجميع. ولما استيقظ حافظ السجن، جاء إلى ساحة السجن، رأى الأبواب مفتوحة، وإذ وقعت أنظار بولس وسيلا عليه فزعا جدا إذ رأياه يستل سيفه ليقتل نفسه، فهذا أولى من أن يموت موتة شنيعة بسبب عدم أمانته فيما أوكل إليه. وبصوت عظيم منعه بولس وطمأنه، وحينئذ، كان طلب الضوء، والاندفاع إلى داخل السجن، وارتعاش الأطراف، والأدب الجم فى إخراجهما، والسؤال عن طريقة الخلاص، والإجابة التى بعثت السلام، ومستمعو نصف الليل اجتمعوا حول خادمىّ الله فى بيت السجان، وغَسّلهما من الجراحات المقترن بالمحبة والعطف، والمعمودية، والطعام الذى أعد بسرعة، والفرح العظيم الذى شمل هذا المؤمن المتجدد هو وأهل بيته. كل حادث يلاحق الآخر، وكلها كونت سلسلة ذهبية، ربطت هذا السجان إلى الأبد بمخلصه وببولس.

ولا شك فى أنه أصبح واحدا من أعضاء كنيسة فيلبى، التى كانت جماعة فريدة فى طهارتها وجمالها، والتى كتب إليها الرسول أرق كلماته دون أقل إشارة للتوبيخ والتعنيف. لم يملك إلا أن يشكر الله عند كل ذكره إياهم فى كل أدعيته، مقدما الطلبة لأجل جميعهم بفرح فى أحشاء رحمة ربنا يسوع المسيح. كانوا له كما كانت بيت عنيا للمسيح، وكما كانت صرفة صيدا لإيليا، وكما كان بئر بيت لحم لداود.

﴿ من فيلبّى إلى أثينا ﴾

﴿ أع ١٧ و ١٨ ﴾

- «كل الذين اختبروا روح العلىّ
- «لا يمكن أن يجحدوه
- «أو يشكوا فيه أو ينكروه
- «وأنت أيها العالم مهما أنكرت
- «فاعلم أنه قريب منك.»

﴿ ميرز ﴾

وإذ ترك بولس لوقا فى فيلبى، اجتاز هو ورفقاؤه فى أمفيبوليس وأبولونية وأتوا إلى تسالونيكى، التى يبقى اسمها خالدا إلى الأبد فى الرسالتين اللتين كانتا أول ما كتب. أما المدينة الحالية، فتدعى سالونيك. ولعل السبب الذى دفع ببولس إلى هذه المدينة بصفة خاصة، هو وجود مجمع فيها، كانت تقام به خدمة يهودية أسبوعية. وهنالك كان ممكنا له أن يقوم بخدمته المحبوبة، مبينا وموضحا من الكتب أنه كان ينبغى أن المسيا يتألم، وأنه ظهر فى شخص يسوع الناصرى. استمر على هذه الحال ثلاثة سبوت، وكان يعول نفسه وأصدقاءه من عمل يديه، مقيما عند شخص اسمه ياسون، صار فيما بعد تلميذا وتابعا له (رو ١٦: ٢١).

فى نهاية تلك الفترة، ساد اليهود شعور قوى ضده، فوجد بأنه ليس من الحكمة الاستمرار فى المجمع، ولذلك نقل اجتماعاته إلى مكان محايد، ولا ندرى كم من الوقت قضاه هناك؛ ولكن لابد أنه قضى وقتا كافيا لتأسيس كنيسة قوية نامية، حمل الرسول نفسه إليها برفق المرضعة وتشجيع الأب. كان فى هؤلاء المكدونيين المتجددين ما جذبهم جدا إلى نفسه؛ فإننا نراه فى الأيام التالية يتحدث عنهم بأنهم فَرَحَهُ وإكليله، ويقول بأنه تشوّق من كل قلبه لنموهم فى النعمة، وأنه كان مستعدا لتضحية حياته فى هذا السبيل. لقد كانوا فقراء جدا، ولذا كان يعمل بيديه نهارا وليلا، لدرجة التعب، لكى لا يكون عبئا عليهم، ولكنهم كانوا أغنياء فى الإيمان والرجاء والمحبة (١ تس ٢: ٦ و٧ و١١ و١٩).

وقد أدى تعليمه لهم ــ أكثر من غيرهم ــ إلى توقعهم مجىء الرب، ولعل شدة ضغط الآلام عليهم جميعا، جعلتهم أكثر قبولا لتلك الرؤى المنيرة عن فكرة مجىء الرب التى ملأت عقل الرسول؛ بل إنهم تعدوا حدود تعليمه، وسقطوا فى تلك الغلطة التى افترضت أن ذلك اليوم قد أتى فعلا، الأمر الذى نرى الرسول يبادر بإصلاحه فى رسالته الثانية. وعلى أى حال، فقد كان فرحا عظيما لذلك القلب المحطم أن يتبين، وسط اضطهادات البشر القاسية، أن الله كان يعمل معه ويرافق كلماته بعمل الروح القدس، فهو ذا نراه يذكر بارتياح تام أن الإنجيل قد أتى إليهم بقوة وبالروح القدس. لذلك أصبحوا مثلا لكل المؤمنين فى مكدونية وأخائية، وأذيعت كلمة الله بقوة من قلبهم (١ تس ٤: ٢ ؛ ٢ تس ٢).

لابد أنه قضى بضعة أشهر فى هذه الخدمة المباركة، وواضح جدا أن عبء الرسول قد خف كثيرا بسبب الهبات التى أتت من فيلبى، والتى أراحته من عناء العمل اليدوى (فى ٤: ١٦).

أخيرا، أغلقت أبواب تسالونيكى فى وجوههم، فاضطر بولس وسيلا للهرب ليلا من هياج الشعب الذى أثاره اليهود، وكانت التهمة التى وجهت إليهما غريبة إذا نظرنا إلى المصدر الذى صدرت عنه؛ فقد كان لا يعقل أن يحرص اليهود على الإبقاء على

موالاتهم للإمبراطورية الرومانية، بعكس ذلك النداء الجديد بملك آخر ـ يسوع؛ ولكن اليهود كانوا مستعدين بأن لا يحجموا عن استخدام أية واسطة، لو أنهم تمكنوا بذلك من التخلص من خصمهم القوى الذى خفف ازدحام الأتقياء من الأمم فى مجامعهم.

قطعوا رحلتهم خمسين ميلا ليلا حتى وصلوا بيرية، وهناك وجدوا راحة فترة قصيرة، لأن اليهود كانوا أقل تعصبا وأكثر رغبة فى فحص الكتب، لكى يتبينوا لأنفسهم إن كانت آراء بولس معقولة أم غير معقولة، على أن قلبه كان يتمزق من نحو إخوته الأحباء الذين تركهم لمواجهة تيار الحقد الشديد الذى سببه تعليمه، وقد حاول العودة أكثر من مرة، لولا الخوف من إحراج مركز ياسون وغيره ممن تعهدوا على ما يظهر بمنعه من دخول تسالونيكى مرة أخرى، كان هذا فى ذهنه عندما قال إن الشيطان أعاقه (١ تس ٢: ١٨).

على أن فكرة عودة بولس إلى تسالونيكى اعتبرت مستحيلة، بسبب هبوب عاصفة أخرى أثارها اليهود الذين وفدوا من هذه المدينة، فساروا فى إثره بحنق شديد. أخيرا، لم يكن هنالك أى حل سوى ترك سيلا وتيموثاوس فى بيرية، لينظرا ماذا يمكن عمله لترك الباب مفتوحا أمام المؤخرة (أى أمام بولس)، والإسراع ببولس إلى الميناء لأخذ أول سفينة. وتصادف أن أول سفينة كانت قائمة إلى أثينا. أما الذين اقتادوه، فأسرعوا به إلى ظهر السفينة. ونحن نتصوره واقفا على ظهر السفينة يرقب باهتمام قمم جبل أوليمپوس، الذى كان يتوارى تدريجيا عن أنظاره، كان خلفه أعز وأخلص أصدقائه الذين عرفهم، وكان أمامه...؟

أثينا:

عاد رسله مسرعين إلى بيرية حاملين رسالة قلب الأسد الذى بقى وحيدا، المتضمنة أن يذهب إليه سيلا وتيموثاوس بأسرع ما يمكن. وبينما كان ينتظرهم مؤملا أن يطمئنوه بالعودة إلى الكنائس الفتية التى أسسها، اجتاز فى شوارع أثينا ليتفقد آثار ديانتهم. تجلت أعمال العبقرية البشرية فى كل جانب؛ كانت هنالك الهياكل التى صممها فيدياس Fhidias، والتماثيل التى صنعها پراكسيتيليس Praxiteles، ولكن اليونان كان

قد أفل نجمها، فإن مجدها السياسى كان قد زال قبل ذلك بقرن ونصف، إذ سقطت أمام قوة رومية الجبارة، على أنها كانت لا تزال تفخر بتاريخ أبطالها، واحتفاظها بأعظم الآثار فى كل التاريخ، ولكن ذلك الفخر كان بمثابة نور الغسق الذى يظل فترة بعد غروب الشمس.

ليس واضحا أن قلب الرسول قد تحرك بالذكريات الأدبية أو التقدير الفنى، فكل ما لاحظه أن المدينة مملوءة أصناما، وقد أعطى عددها الذى لا يحصَى فكرة عن تبلبل آرائهم عن وحدة وعظمة اللاهوت. احتدت روحه جدا، وإذ لم يكتف بمناقشة اليهود والدخلاء فى الهيكل، كان يذهب كل يوم إلى السوق لمناقشة أى شخص لقيه، ليحث الجميع إجمالا وأفرادا ليرجعوا عن هذه الأباطيل، ويعبدوا الله الوحيد. كانت غايته بصفة مستمرة أن يكون للكل كل شىء. وفى أثينا، أظهر بكيفية رائعة مقدرته العجيبة على التمشى مع كل شخص. لم يكن ممكنا لأى يهودى عادى الامتزاج مع أهل المكان كما فعل هذا الرسول العظيم، أو يثير بين فلاسفته الاهتمام الكافى لعقد اجتماع خاص فى أريوس باغوس، ليسمعوا شرحا كاملا لهذا التعليم الجديد الذى نادى به فى مسامعهم. يبين لوقا أن الآراء التى انعقدت حول بولس كانت متباينة، ولم تكن كلها تنم عن الاستحسان؛ شبهه البعض بطير يلتقط بذارا، والآخرون بباحث وراء كل جديد، ولعل أخذه أمام أعظم مجتمعاتهم الدينية، كان دليلا على عداوتهم له أكثر مما دل على صداقتهم.

كان المستمعون أكبر عدد وجه إليهم بولس الخطاب. كان أمامه الفلاسفة والمتحذلقون والعلماء والطلاب الذين اعتادوا بحث أعظم النظريات فى الآراء البشرية، والذين ساعدتهم مرونة اللغة اليونانية على التلاعب بالألفاظ. كان هناك أيضا الأبيكوريون لتحليل الكلمات، أو انتقاد أسلوب الكلام، واختيار الأمثلة، وتناسق العبارات. وكان أيضا الرواقيون لدراسة نظرية الحياة التى ينادى بها هذا المعلم الجديد، فالأثينيون أجمعون، والغرباء المستوطنون، لا يتفرغون لشىء آخر إلا لأن يتكلموا أو يسمعوا شيئا حديثا.

كان خطاب بولس فى هذه المناسبة فريدا، فإن بلاغته، وتسلسل معانيه، وتفكيره الرائع، وتوافق كلماته الفصيحة ـ هذه كلها تجعله فريدا جدا بين كل الأحاديث المدونة فى سفر الأعمال، ولعله كان نتيجة تفكير عميق وصلوات حادة، وإلا لما دقق بولس فى إملائه على لوقا الذى لم يكن معه وقتئذ. إنه يبين غنى مواهب الرسول، وسرعة بديهته التى مكنته من أن يتمشى بسهولة مع كل أنواع البشر وظروفهم المختلفة. ويمكننا ملاحظة الفرق بينه وبين سامعيه، ويكاد هذا يتبين فى كل جملة، فإنهم لم يروا فى كل هذا إلا مجرد رأى دينى جديد، أما هو، فقد كان يرى أن الأمر جد خطير، وكانت روحه ثائرة ومحتدة فى داخله. هم اعترفوا بجهلهم بالإله المجهول الذى خلق العالم، وكل ما فيه. أما بولس، فأزاح الستار وأعلنه لهم، هم ظنوا أن الهياكل المحيطة بهم تليق بالحلول الإلهى، أما هو فأخبرهم ما كان يذكره عن استفانوس؛ أن الله لا تليق بعظمته سوى قبة السماء اللانهائية، وحتى هذه، لا يمكن أن تسعه. هم توهموا أنهم يستطيعون أن يسترضوا الله بالهدايا، أما هو، فأكد بأنه لا يحتاج لأى شىء من أيدى الناس، وأن بركته لهم لا تتوقف على تقديم الكباش والعجول، بل على تقديم القلوب المنكسرة، والنفوس المنسحقة، والأيدى الفارغة المبسوطة. هم نادوا بالمذهب الحلولى (أى وحدة الله والكائنات)، كأن الله لا يتميز عن المادة التى فى العالم، أما هو، فقال إن الله شخصية، أب يجب أن يطلبه كل البشر، وبه يحيون ويتحركون ويوجدون. هم لم يروا أية غضاضة لتصوير شبه الله فى ذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان، أما هو فأكد بأنه روح، يجب أن يُعبد بالروح والحق. كان البعض يعتقدون بخلود النفس، كما أذاع سقراط فى نفس هذا المكان، ولكنهم لم تكن لديهم أية فكرة عن قيامة الجسد، أما هو، فقد أكد دون أقل تردد أن الروح سوف تتحد ثانية مع الجسد، وأنه سوف لا تكون قيامة حرفية فحسب، بل هنالك من قام فعلا، وهو يسوع المسيح، وأنه سوف يأتى يوم يدين الله فيه المسكونة برجل قد مات بضعف الجسد، ولكنه قام من الأموات.

ولما سمعوا بالقيامة من الأموات، بدأ الكثيرون من المستمعين يهزأون؛ فاليونانيون كانوا يعتقدون أن نضوج الحياة بالكامل ومجدها يتمان فى هذا العالم الحاضر، ولم تكن لديهم فكرة عن المستقبل الذى فيه يبعث الجسد، لذلك تركهم بولس، ولم يجن

منهم إلا ثمرة ضئيلة، لأنه لم يلصق به ويؤمن سوى ديونيسيوس، أحد أعضاء أريوس باغوس الذى وقف أمامه، وامرأة اسمها دامرس، ولعلها آمنت نتيجة خدماته الأخرى فى المدينة، وأقلية ضئيلة أخرى. لقد وجد الإنجيل قبولا لدى تجار وصناع مكدونية البسطاء القلب أكثر من علماء أثينا.

ونعتقد أن الرسول لم يذهب إلى أثينا مرة أخرى؛ لقد تركها حزينا إلى كورنثوس، تتزاحم فى عقله الأفكار الكثيرة؛ الاهتمام بالكنائس الفتية التى تركها وراءه، الحنين لرؤية تيموثاوس ولوقا، التفكير فيما يمكن أن يقابَل به وسط الكورنثيين المثقفين المتعلمين، لكنه كان معتزما أن لا يُعرف بينهم شيئا إلا يسوع وإياه مصلوبا، دون أن يحاول قط أن يكلمهم بالحكمة البشرية، لئلا يتعطل صليب المسيح.

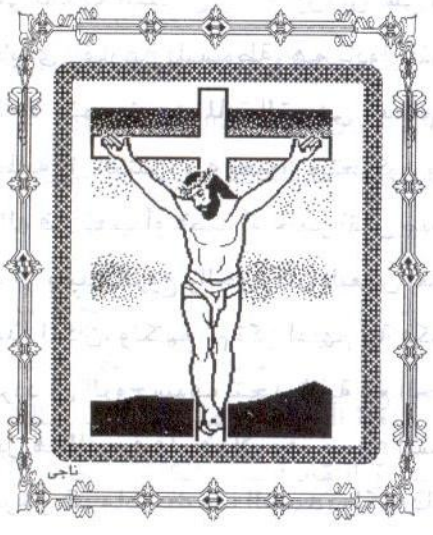

الفصل الخامس عشر

﴿ فى ضعف وخوف ﴾

﴿ ١ كو ٢ : ٣ ﴾

- «يا له من بولس... محتقر ومرذول
- «ضعيف كما تعرفه وذليل
- «ورغم ذلك تراه فى النعمة يرفل
- «فقوة المسيح فى الضعف تكمل.»

﴿ ميرز ﴾

خمس ساعات قضاها الرسول فى خليج سارونا حتى وصل إلى كنخريا، ميناء كورنثوس الشرقية، لأن هذه المدينة العظيمة كان لها ميناءان؛ الأولى؛ ليكيوم غربا، لتتصل عن طريقها بالأدرياتيك؛ والثانية؛ كنخريا شرقا، لتتصل عن طريقها ببحر اليونان. وهكذا، كانت بضاعة الشرق تنتقل عن طريق هذه الميناء إلى تلك المدينة العظيمة، التى كان يفد إليها الكثيرون بسبب الحركة التجارية. وهذا الموقع الممتاز جعل للمدينة أهمية خاصة فى نظر الرسول، لأنه كان يتوق دواما لانتهاز أية فرصة لنشر إنجيل ربه، فكان تأسيس كنيسة مسيحية هناك معناه إلقاء بذار التعاليم المسيحية فى المياه التى تحملها شرقا وغربا؛ فعلى خدام المسيح أن يكونوا ماهرين فى تدبير الخطط، ويبذلوا جهودهم حيث يكثر الناس، وحيث يزداد نفوذهم انتشارا.

على أن الرسول دخل المدينة المتعجرفة الجميلة «فى ضعف وخوف ورعدة كثيرة»، فإنه لم ينس الاحتقار الشنيع الذى قوبل به فى أثينا، والذى كان أثقل على نفسه من الاضطهاد الشديد، لعله كان يعانى آلاما مرة من مرضه المزمن، ولم يكن معه لوقا ليخففها عنه، وكان شاعرا تماما بعجزه فى مواهب العلم والفصاحة التى اشتهر بها الكورنثيون، وكان يعلم أن كلامه وكرازته لا يمكن أبدا أن يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع، وكان عزمه الأكيد أن لا يُعرف شيئا بينهم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبا.

كانت هنالك صعوبات أخرى كثيرة ينبغى أن يواجهها، مما زاد فى صعوبات خدمته فى كورنثوس، وجعل نجاحه التالى أكثر وضوحا.

﴿١﴾ ضرورة العمل اليدوى المستمر:

فى رسالته الأولى إلى كورنثوس، يؤكد هذه الحقيقة بأجلى بيان، ومع أنه كان يشير دواما إلى احتفاظه بالحق المتضمن أن الذين يخدمون الإنجيل يعيشون من الإنجيل، فإنه لم يستعمله، بل كان يتحمل كل شىء، فهذا أولى من أن يعطل تقدم الإنجيل، أو يعرقل تأثيره.

إزاء التجار والصناع الذين وفدوا إلى المدينة من كل ناحية، والذين يهون عليهم أن يضحوا بكل شىء من أجل المنفعة المادية، لم يشأ أن يعطيهم أية فرصة ليتقولوا عليه، بأنه إنما يعمل بدافع الارتزاق، لذلك، استأنف مهنته لصناعة الخيام، وأتيحت له الفرصة للإقامة عند شخصين مسيحيين يهوديين كانا قد لجآ إلى تلك المدينة بأمر من الإمبراطور الذى طرد جميع اليهود من رومية.

يخبرنا سوتيونوس المؤرخ، أن السبب فى هذا الأمر هو الثورة التى قام بها شخص يدعى كاستوس بصدد المناقشات الحادة وسط جماعة اليهود المتعلقة بأن يسوع هو المسيا المنتظر. لذلك، «أقام (بولس) عندهما، وكان يعمل لأنهما كانا فى صناعتهما خيامين». وقامت صداقة بينه وبين أكيلا وبريسكلا امرأته، وكانت هذه الصداقة عاملا قويا لانتشار المسيحية فى العاصمة التى قدما منها، وفى أفسس التى رافقا صديقهما الجديد إليها، ولعل بولس عمل كمستخدم عندهما، وعلى أى حال،

فقد كان العمل ضئيلا، والأجور زهيدة، ولذلك، كثيرا ما كان فى عوز فعلى (٢ كو ١١: ٩ ؛ ١ كو ٤: ١١ و١٢).

كان عجيبا جدا أن تلك النهضة، التى أكسبت كورنثوس شهرة أعظم من ألعابها، أو هندستها المعمارية، أو بلاغتها الخطابية، صدرت عن حانوت متواضع فى الحى اليهودى، حيث اجتمع حفنة من اليهود اللاجئين للعمل فى صناعتهم، وكانوا أثناء العمل يتكلمون عن يسوع الناصرى الذى صلب من ضعف، لكنه حى بقوة الله. كانوا هم أيضا ضعفاء معه، ولكنهم كان لابد أن يحيوا ويملكوا معه على قلوب البشر بقوة الله (٢ كو ١٣: ٤).

﴿٢﴾ بغض اليهود الشنيع:

كان بولس حسب عادته يذهب إلى المجمع كل سبت، يحاج ويقنع اليهود واليونانيين، بأن الفكرة التى تضمنتها الأسفار المقدسة العبرانية تلخص تماما فى المسيا المتألم المصلوب. استمر هذا الحال بضعة أسابيع. على أن جهوده قلت لحد ما، بسبب كثرة عمله اليومى المضنى، ولكن لدى وصول تيموثاوس وسيلا، الواحد من تسالونيكى، والآخر من بيرية، حاملين الأخبار السارة عن ثبات أولاده الروحيين وأيديهما مملوءة بالإعانات السخية، استطاع أن يعمل بنشاط أوفر فى خدمته المحبوبة «كان بولس منحصرا بالروح وهو يشهد لليهود بالمسيح يسوع» (أع ١٨: ٥).

كان هذا أكثر مما يستطيع تحمله الرجال المسئولون بين اليهود، لذلك «كانوا يقاومون ويجدفون»، وطردوه من المجمع، وحنقوا عليه بدرجة غير عادية، كانوا غير معقولين وأشرارا، مدفوعين بالروح الذى بعث أمتهم على قتل الرب يسوع والأنبياء، هم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس، مكملين مكيال خطاياهم» (١ تس ٢: ١٤-١٦ ؛ ٢ تس ٣: ٢).

وصل حنقهم إلى أقصى حدوده، عندما قبل الرسول بفرح ما عرضه عليه رجل دخيل متعبد لله اسمه تيطس يوستس، لكى يعقد اجتماعاته فى بيته، وكان ملاصقا للمجمع. كانت نتيجة هذه الخطوة الجديدة موفقة جدا. فقد كان ممن التصق بالرسول من المجمع كريسبس رئيسه الذى آمن بالرب مع جميع بيته. وكثيرون أيضا من

الكورنثيين إذ سمعوا آمنوا واعتمدوا. وإذ ازداد الإقبال على مكان الاجتماع الجديد هذا، وازدادت النهضة عددا وقوة، ازداد اليهود سخطا. وأخيرا، قاموا جميعهم قومة رجل واحد، وقبضوا على بولس وجروه أمام الوالى الرومانى، الذى تصادف أن يكون غاليون، أخ سنيكا الفيلسوف المشهور ومعلم نيرون. كان رجلا مثقفا ثقافة غير عادية، ومهذبا ولطيفا وحلو المعشر، وكان يمثل الآراء الحرة للرومانيين المتعلمين، وللسياسة التى ينبغى أن تتبعها رومية إزاء الديانات المختلفة فى المقاطعات. ولما تبين أن التهمة الموجهة إلى بولس ليست جوهرية، ولا تتعلق بالحقائق، ولا هى أخطاء مدنية أو ثورات أدبية، بل هى مسألة عن كلمات وأسماء وناموس يهودى، لم يستطع أن يتصرف فيها أو معهم بشىء، بل أمر رجاله بطردهم من الكرسى.

أما اليونانيون، فقد فرحوا إذ وجدوا أن الازدراء قد حل باليهود المبغضين، فانتهزوا الفرصة وقبضوا على سوستانيس، الرئيس الجديد للمجمع، الذى شغل هذا المركز بدلا من كريسبس، وضربوه قدام الوالى، وهذا لم يبال قط بما فعلوه. ماذا يهمه أن ضُرِبَ أحد اليهود بعض جلدات، أكثر أو أقل؟ لا شك فى أنهم كانوا يستحقون تماما هذا التأديب، وطالما كان لا يسبب أى اضطراب عام، فإنه نافع لتحذير اليهود من إثارة أمورهم أمام الرأى العام أو إزعاج خاطره.

على أن هذا الحادث لابد أن يكون قد ضاعف حقد اليهود على الرسول وتابعيه، سيما عندما انضم إليه سوستانيس نفسه وتجدد على يديه على ما يبدو، والتصق به، حتى أنه فى السنوات التالية، اقترن اسمه به عند كتابة الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس «سوستانيس الأخ» (١ كو ١: ١).

﴿٣﴾ أخلاق تابعيه:

كانت كورنثوس تشبه باريس فى شرها، ونيوماركت[١] فى انهماكها بالألعاب الرياضية، وشيكاغو فى تعدد الجنسيات بين شعبها، ومدينة الأباطيل[٢] فى استهتارها

---

(١) مدينة فى إنجلترا مشهورة بساحاتها لسباق الخيل.

(٢) مدينة وهمية، ذكرها مؤلف كتاب: «سياحة المسيحى».

وطياشتها، فيها تجمعت حثالة العالم، وجد فيها الجنود والبحارة العبيد والعاهرات، ركاب خيل السبق وسائقو العربات، لاعبو الألعاب الرياضية والمصارعون، الرومانيون بمراكزهم الملكية، واليونانيون بقسماتهم العادية، واليهود بمميزاتهم التى لا تتغير، والسكيثيون من شواطئ البحر الأسود، رجال من بين النهرين، وبنطس ومصر وآسيا الصغرى، جميع هؤلاء منهمكون فى أعمالهم أو ملاهيهم، وملوثون بدرجات متفاوتة بشر هذه المدينة الفاجرة. كان فيها هيكل الزهرة بألوف كاهناته اللاتى أبحن الرذيلة، والألعاب الرياضية التى كانت تقام مرة كل ثلاث سنوات بما تحفل من المراهنات والميسر، وكانت أخلاق الشعب المتباينة باعثة على تبلبل الآراد والأفكار، ولذا، فلم يكن لها ضابط أو حد معين.

قدم بولس رسالته لمدينة بهذه الأوصاف، وقد شجعه تأكيد الرب له بأن له شعبا كثيرا فيها. كثيرا ما أتى السيد لعبيده المجربين المضطهدين كما أتى للرسول؛ قد يكون هنالك شعور بالضعف والخوف، قد ينطقون بكلمته برعدة، قد يهزأ بهم كموضوع للسخرية، وقد يحاطون بالمتاعب والآلام والاضطهاد، ولكنه يقف بجانبهم برؤيا، قائلا: «لا تخف، بل تكلم ولا تسكت، لأنى أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك... ها أنهم يجتمعون اجتماعا ليس من عندى. من اجتمع عليك، فإليك يسقط... كل آلة صورت ضدك لا تنجح، وكل لسان يقوم عليك فى القضاء تحكمين عليه» (أع ١٨: ٩ و١٠ ؛ إش ٥٤: ١٥ و١٧).

تحت تأثير هذا التشجيع، ظل بولس يعمل بنجاح عظيم سنة وستة أشهر فى هذه المدينة الفاجرة. صحيح أنه لم يكن بين المختارين كثيرون من الحكماء أو الأقوياء أو الشرفاء (١ كو ١: ٢٦)، بل إن الذين حسبوا فى نظر قادة كورنثوس المتعلمين بأنهم ضعفاء وأدنياء ومُزدَرى بهم، اختيروا كحجارة الأساس لهذه الكنيسة الجديدة. قد يكون كريسبس وغايوس واستفاناس وأهل بيته، وهؤلاء أجمعون عمدهم الرسول ـ خلافا لعادته ـ قبل وصول تيموثاوس وسيلا، ولكن هؤلاء يعتبرون استثناء للقاعدة العامة، ولعل الأغلبية فى هذه الجماعة الصغيرة كانت النساء، لأن الرسول خصص مكانا كبيرا

فى رسالته لتقويم أخلاقهن. نحن على الأقل نعرف عن فيبى شماسة كنيسة كنخريا التى حملت رسالته إلى رومية، وخلوى التى كان خدم بيتها واسطة الاتصال ببولس لما كان فى أفسس.

وعلى أى حال، فقد كان معظم المتجددين على يديه من الطبقة الدنيا، وممن استغرقوا جدا فى الرذائل التى سوأت سمعة كورنثوس. كانت المدينة مباءة للزناة وعبدة الأوثان والفاسقين والمأبونين والسارقين والطماعين والسكيرين والشتامين والخاطفين. وهكذا كان أناس منهم (١ كو ٦: ٩-١١)، ولكن، بعد الكرازة بالإنجيل، حدث فيهم تغيير عجيب بقوة الروح القدس، فاغتسلوا، بل تقدسوا، بل تبرروا باسم الرب يسوع. وبروح إلهنا، صار يسوع حكمتهم وبرهم وقداستهم وفداءهم. وإذ أُنقِذوا من سلطان الظلمة، صاروا أبناء نور وأبناء نهار، ورثة الله ووارثين مع ابن محبته.

يا له من بون شاسع بين هذه الكنيسة الصغيرة والعالم الوثنى المتسع الأرجاء الذى اختيرت منه. إننا لنتخيل أحد اجتماعاتها قبيل انتهاء زيارة الرسول إليها. كان ذلك فى مساء سبت، فى الخارج اكتظت الشوارع بطلاب الملاهى والملذات، جماعات من الكسالى يتباحثون فى شأن سباق العربات الأخير، أو يقذفون بأموالهم فى ألعاب المصارعات القادمة، والكل يلهو ويلعب؛ وفى الأرض يعيثون فسادا. أما فى الداخل، فى مكان الاجتماع الصغير، فالكل هادئون وساكنون، بولس يتكلم عما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب إنسان، والرجال بدورهم يتكلمون لبنيان بعضهم بعضا بمزمور أو تعليم أو رواية أو ترجمة الألسنة الغريبة. أما النساء، فبكل احتشام وسكون يصغين. الآن، تُمد وليمة المحبة، وكل واحد يقدم ما يشاء من المؤونة للمخزن العام، وللحال، يختم الاجتماع بالعشاء الربانى، والكل يشتركون فيه وفقا للطريقة التى تسلمها الرسول من الرب يسوع نفسه (١ كو ١١ و ١٢).

كانت هذه نتيجة عجيبة إذا قورنت بالكيفية التى دخل بها إليهم «فى ضعف وخوف»، ولكنه واضح أن الرسول لم يقتنع بها بتاتا، فقد شكا لأنه لم يستطع أن يكلمهم كروحيين، بل كجسديين، كالأطفال فى المسيح، ولأنه اضطر أن يطعمهم لبنا لا طعاما، ولا شك فى أنه تبين بداءة عمل تلك الخميرة غير المقدسة، التى كانت لها فيما بعد

نتيجة مروعة. ولعله، حتى قبل مغادرتهم، قد ظهرت له بوادر روح التفرقة، وتفضيل المواهب على النعمة، وإساءة استعمال الحرية، والسيادة غير الشرعية للمرأة فى الاجتماعات العامة، والشراهة فى ولائم المحبة، والخلط فى الخدمات، والتعاليم الغريبة فى عقيدة القيامة. لذلك، فإنه لابد أن يكون قد خامرته الكثير من الهواجس عندما انتزع نفسه من بينهم فى ختام إقامته الطويلة، تاركا الكنيسة الفتية لعناية الله، وقلبه جزع من نحوها كجزع قلب يوكابد، أم موسى، عندما ألقت بطفلها فى النيل.

ولكن، رغم تركه للمدينة، فإنها تركت أثرا لا يمحى فى طريقة تفكيره وتعبيره، فإنه فيها تأثر بتلك النظريات السامية التى ذاعت فى رومية سيدة العالم. وفيها كتب رسالتيه الأوليين، أى الرسالة الأولى والرسالة الثانية إلى تسالونيكى، وفيها أيضا اضطر لدراسة الأمور المتعلقة بإنشاء وإدارة الكنائس غير المتجانسة فى تكوينها. وفيها وصل إلى الطريقة النهائية للمناداة بالإنجيل. بعد ذلك بسنوات، نراه يشير إلى اختلاط الذهب والفضة والحجارة الكريمة بالخشب والعشب والقش فى بناء الهياكل وغيرها من المبانى الأخرى، أو إلى تشبيه الجسد بالهيكل، أو استقاء التشابيه من المصارعات والألعاب الرياضية ومواكب النصر والمناظر التمثيلية. ويبدو كأن كلامه كان مصوغا بالألوان المستعارة من المناظر التى ألفها فى شوارع كورنثوس.

وعلى أى حال، فقد اعتزم أخيرا ترك كورنثوس، وكانت هنالك أسباب كثيرة للتعجيل باتخاذ هذه الخطوة، وكان من بينها رغبته فى الذهاب إلى أورشليم ليتبين شعور الكنيسة الأم. ولزيادة استرضاء العنصر المحافظ هناك، ارتبط بنذر أراد إتمام طقوسه الأخيرة فى الهيكل، اضطر لحلق رأسه فى كنخريا لانتهاء شهر النذر، ولكنه حمل الشعر معه ليحرق على المذبح الكبير فى دار الهيكل. ولعل أكيلا وبريسكلا اعتقدا أن أفسس قد تكون سوقا أكثر رواجا لبضاعتهما من كورنثوس. لذلك، أقلعا معه، وهكذا انتهت أول إرسالية خالدة فى اليونان. وللمرة الرابعة، يذهب الرسول إلى المدينة العزيزة عليه جدا، وتختلط فى مخيلته ذكريات ربه بذكريات داود وسليمان وحزقيا وعزرا.

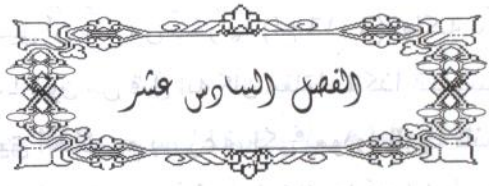

الفصل السادس عشر

«يعظم انتصارنا»

«رو ٨ : ٣٦ و ٣٧»

❖ «لقد جاهدت الجهاد الحسن
❖ «يا خادم الله الفطن
❖ «وناضلت وحيدا عن الحق
❖ «ضد الكثيرين من الخلق
❖ «وكان دفاعك بالكلمة والصلاح
❖ «أقوى من دفاعهم بالسلاح.»

«ملتون»

يعتبر ما تضمنته هاتان الآيتان من أعظم ما نطق به البشر. وإن أهميتهما لتزداد قيمة إذا ما عرفنا أن فيهما تلخص الاختبارات التى سبقت النطق بهما مباشرة.

كان هذا قبيل انتهاء رحلته التبشيرية الثالثة. قبل ذلك بثلاث سنوات، غادر أنطاكية سوريا للمرة الثالثة، بعدما صرف فيها زمانا (أع ١٨ : ٢٣). لم يكن ممكنا أن تستريح روحه النارية وسط التعزيات النسبية والراحة التى وجدها فى الكنيسة القوية التى كانت تبنى نفسها هناك، بل تاقت نفسه جدا، وحنّت أحشاؤه لافتقاد تلاميذه فى كل منطقة

غلاطية وفريجية. لذلك، اجتاز مرة أخرى أبواب كيليكية، وسار وسط تلك الهضاب، يشدد جميع التلاميذ، متجها نحو ولاية آسيا الرومانية التى تقع فى الجنوب الغربى من شاطئ البحر. لقد سبق أن مُنع من دخولها (أع ١٦: ٦)، ولكنه تبين الآن بكل وضوح أن الباب مفتوح إليها، كما تبين من قبل أنه كان مغلقا، هكذا قد يسمح بسلطانه المطلق أن يحرم أولاده من تحقيق أحلامهم بسرعة، لكى يعودوا إليها ثانية عندما يحين الوقت المناسب، وعندما يزداد إعدادهم هم أيضا. كانت اختبارات بولس فى اليونان أنسب ما يمكن لإعداده للخدمة فى هذه المنطقة المكتظة بسكانها، الضاربة بسهم وافر من المدنية، والتى مهدت السبيل للتبشير فى كل المنطقة المجاورة، وتأسيس تلك الكنائس السبع التى وجه إلهيا الرب المقام رسائله النهائية.

نزل الرسول أخيرا إلى أفسس وفاء لوعد سبق أن ارتبط به، فإنه سبق أن قضى بها أحد السبوت فى طريقه من كورنثوس إلى أورشليم، وفى تلك المناسبة، تأثر اليهود جدا من خدمته حتى أنهم ألحوا عليه ليقضى بينهم مدة أطول، ولكن كان مستحيلا إجابة هذا الطلب بسبب ضرورة التعجيل إلى أورشليم لإيفاء نذره. ولذلك، فإنه لدى استئذانه منهم، قال لهم: «سأرجع إليكم أيضا إن شاء الله» (أع ١٨: ٢١). وإيفاء لهذا الوعد، نرى الرسول يزور الآن عاصمة آسيا الصغرى.

حدثت فى تلك الفترة حوادث كثيرة، وإذ ذكرها كاتب سفر الأعمال، كشف لنا عن السر فى منع الرسول عن الزيارة الأولى، فإن أبولس الخطيب الإسكندرى المفوه، كان قد زار المدينة، والتقى هنالك بصديقى بولس (أكيلا وبريسكلا - اللذين كانا فى انتظار عودة زميلهما بولس)، وهذان أخذاه إليهما، وشرحا له طريق الرب أكثر تدقيقًا، وكانت النتيجة أن خدمته صارت أكثر إنتاجا، سواء بمساعداته الكثيرة للذين كانوا قد آمنوا، أو إفحام اليهود بشدة. لقد قلب سلاح المحراث الأرض الصلبة، وأعد التربة لتفليح بولس العتيد (أع ١٨: ٢٤-٢٨).

على أن بولس الآن غادر أفسس إلى كورنثوس، وأقبل بولس لاستئناف وتوسيع العمل الذى كان قد بدأ بنجاح. ولعله، لدى دخوله أفسس، لم يكن يعرف كم من الزمن

كان يجب أن يقضيه بها، ولم يكن يعرف أيضا النتائج الباهرة من إقامته فيها. كان يكفيه أن يعلم ـ كما كتب فيما بعد لمؤمنى أفسس ـ أن الطريق ممهد أمامه، ولكن لم يكن أحد يعلم إن كان هذا الطريق سهلا أم وعرا، سوى ذلك الذى كان يعبره.

والواقع، أن خدمته هناك، كانت صراعا من البداية إلى النهاية، كان تعليقه عليها بعد نهايتها: «قد حاربت وحوشا فى أفسس» (١ كو ١٥: ٣٢). وهنا أيضا، نراه ـ وهو يعدد اختباراته ـ يشبهها بساحة حربية، ويشبه نفسه بجندى محارب، فيصرخ قائلا: «إننا من أجلك نمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح، ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا». فى هذه الكلمات التى بعث بها إلى رومية من كورنثوس عقب انتهاء خدمته فى أفسس، إذ كانت ذكريات اختباراته فيها لا تزال جديدة فى ذهنه، نراه يعطى فكرته عن الموقف كله.

﴿١﴾ ساحة الحرب:

كانت هنالك صعوبات عديدة ليواجهها، يجب أن توضع نصب أعيننا، إن أردنا أن ندرك عظمة انتصاره الذى أحرزه بنعمة المخلّص الحى.

فأولا؛ كان هنالك ضغط الجموع البشرية الغريبة التى كانت مصالحها وأغراضها وطرق تفكيرها غريبة عنه. لا يمكن لأى إنسان أن يقف وحيدا وسط بنارس (ببلاد الهند)، تحيط بها الجماهير الوثنية، الذين يقدمون عبادتهم على شاطئ نهر الجنج، أو يصعد ألوف سلالم هياكلها الرخامية الممتدة بمحاذاة النهر، دون أن يشعر بالوحشة والعزلة. إن حياة المرء بمفرده لتبدو تافهة وحقيرة جدا إذ يقف متأملا قرب نهر النيل العظيم، وسط الأهرامات العظيمة القديمة، وتحت تلك الأعمدة التى تحفل بها الهند. من هو «بولس»؟ وما هو وسط هذه الكثرة الساحقة؟ وكيف يبقى له أى رجاء ليغير عوائدهم، أو طرق معيشتهم؟ هذا أعسر من أن يغير مجرى النهر القديم؛ أكان هذا هو شعور بولس إذ قضى الأسابيع الأولى فى أفسس؟

وفضلا عن هذا، فقد كانت هنالك العبادة المنظمة تنظيما محكما، والتى تركزت فى هيكل ديانا؛ فقد قيل أن تمثالها هبط من زفس (لعله جسم نيزكى)، فاحتُفِظَ به فى

هيكل، واعتُبِرَ أحد أعاجيب الدنيا. وقد ساعد على إعطائه أهمية خطيرة الشأن جدا، عظمة الثروة التى لا تُحصى التى كانت تُحضَر إليه، وبدائع الفنون البشرية، وفخامة الطقوس التى تمارس فيه، وهِبات الأباطرة والملوك السخية، والخدمات التى كان يقوم بها ألوف الكهنة والكاهنات. كان أيسر على مبشر بروتستانتى متواضع، أن يدخل شوارع رومية ويحقّر من شأن كنيسة القديس بطرس، أو يقلل من عدد الجماهير الغفيرة التى تفد إليها، من أن يرجو بولس أن يكون لإقامته فى أفسس أقل أثر على عبادة ديانا؛ وفضلا عن هذا، فإن العالم كله كان يعرف بأن مدينة الأفسسيين، كانت حارسة لهيكل ديانا، وللتمثال الذى هبط من زفس (أع ١٩: ٣٥)، ولذلك، فقد كانت حريصة على الانتقام من أقل تحقير يلحق به.

بجانب الهيكل، راجت تجارة عظيمة فى الأحجبة والتعاويذ... فقد كان كل من يأتى من الجماهير الغفيرة للعبادة فى الهيكل، يحرص على أن يعود بتذكار لزيارته، سيما وقد اعتقدوا أن هذا التذكار يحميهم من كل الشرور والأرواح الردية التى كان الجميع يفزعون منها بصفة مستمرة. لابد أن التجارة فى هذه البضاعة كانت رائجة جدا، وإلا لما أمكن أن يكون صناع الفضة بهذه الكثرة حتى يملأوا المدينة كلها اضطرابا، الأمر الذى استدعى تدخل كاتب المدينة. كانت صناعة تلك التماثيل المصغرة، التى قام بها ديمتريوس ورفاقه، منتشرة انتشارا كبيرا جدا، كان يبدو مستحيلا لفرد واحد، لا يستعمل سوى الأسلحة الأدبية والروحية، أن يقوم بأى تغيير فى هذ الصناعة القديمة الواسعة الانتشار فى ظرف ثلاث سنوات.

بل وأكثر من هذا وذاك، أن أفسس ـ كغيرها من المدن المكتظة بالسكان المختلفى الجنسيات ـ كانت قد انتشرت فيها مهنة السحر والعرافة، فإن اليهود والخوارج كانوا قد حذقوا فى مثل هذه الأمور، وكانوا يستدعون أسماء رمزية على من تملكت عليهم الأرواح الشريرة، وحتى الذين اعتنقوا المسيحية، وجدوا أنه من العسير الإقلاع عن ممارستهم السابقة لهذه المهنة، فجمعوا كتبا بما لا يقل عن ألفى جنيه، ليس أمرا يسيرا التأثير على أمة من المتوحشين للإقلاع عن السحر والعرافة. والرجوع إلى الآراء السليمة عن الحياة، وعن العناية الإلهية. ولكن الأعسر من هذا، إنقاذ مدينة كبيرة

كـأفسس من مثل هذه السموم. كان الشعب يحددون أيام الزواج وأوقات السفر والتزاماتهم التى يجب أن يرتبطوا بها، والأعمال التجارية التى يريدون الشروع فيها، بعد الالتجاء إلى العرافين والسحرة والمنجمين. ولذا، فقد كانت مهمة شاقة جدا محاربة عاداتهم المتأصلة.

ولكن، لعل ألد عدو لبولس، كان المجمع اليهودى، الذى زادته قساوة عاداته القديمة، وإصراره على عدم الإيمان، وكانوا عصاة متمردين، وشتموا «الطريق» أمام الجمهور (أع ١٩: ٩). وفى خطابه الوداعى لقسوس كنيسة أفسس، نراه يذكر أيضا التجارب التى أصابته بمكايد اليهود. وعندما قامت الفتنة العظيمة، أظهروا حقدهم ضد المسيحيين بدفع الإسكندر ليتنصل من كل علاقة بهم.

تلك كانت العراقيل العظيمة جدا التى واجهت صانع الخيام المتواضع، إذ استقر لمباشرة صناعته مع أكيلا وبريسكلا، ولكنه تطلع إلى مدى أبعد من حدود حانوته، وتوقع انتصارات عظيمة من أجل ربه، كما فعل «كيرى»، المبشر العظيم، الذى بشر الصين، إذ كان يعمل فى حانوته الوضيع كإسكافى، واضعا أمامه خريطة العالم كله؛ على أن الذى كان معه أعظم من كل الذين كانوا ضده، وفى كل هذه، كان مرتبا له أن يعظم انتصاره بمن يحبه.

﴿٢﴾ لنتأمل فى الاعتراف:

لنرجع إلى سفر الأعمال، ونتساءل، إن كان بولس حقا أعظم من منتصر؟ الجواب واضح كل الوضوح، فإنه بعد جهاد مع اليهود ثلاثة أشهر فى مجمعهم، اضطر لسلوك الطريق الذى اعتاده فى مثل هذه الظروف، فنقل تلاميذه إلى مدرسة إنسان اسمه تيرانس، وكان يعلم فيها يوميا من الصباح إلى الظهر، وبعد ذلك، يستريح قليلا. كانت نتيجة هذه الخدمات أن «سمع كلمة الرب يسوع الساكنون فى آسيا من يهود ويونانيين». يا له من تصريح قوى جدا إذا ما تذكرنا أن تلك المنطقة كانت مكتظة بسكانها، وحتى الصُّيَّاغ الذين أثاروا الفتنة اعترفوا «أنه ليس من أفسس فقط، بل من جميع آسيا تقريبا استمال وأزاغ بولس هذا جمعا كثيرا»، وأنه كان هنالك خطر عظيم أن يُخلى الهيكل من المصلين وتُنتزع من أرطاميس عظمتها.

أما فيما يختص بتجارة وصناعة التعاويذ وما إليها، فقد تحقق الصناع بأنهم إن لم يتحركوا ضاعت مكاسبهم.

وأما فيما يختص بمركز المعزمين والعرافين المنيع، فإنهم قد ارتبكوا جدا بسبب المعجزات الأقوى جدا التى كان يضعها بولس، حتى أن المناديل التى كان يستخدمها ليمسح بها العرق عن جبينه، والمآزر التى كان يصنعها، كانت تستعمل واسطة للشفاء لدى نقلها منه إلى المرضى والمصابين بأرواح شريرة. كان التأثير قويا جدا، حتى أنهم اعتقدوا أن المسيح لديه أسرار أسمى من أسمى ما تحتويه كتبهم القديمة «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مُقرّين ومخبرين بأفعالهم، وكان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع» فى ساحة فسيحة. «هكذا كانت كلمة الرب تنمو وتقوى بشدة».

وأما فيما يختص باليهود المعزمين، فإنهم هم أيضا أبكموا، إذ أن اسم يسوع عندما كان يسمى، حتى ممن لم يؤمنوا، كانت له قوة على الأرواح الشريرة، الأمر الذى عجز عنه أى اسم آخر، وكان يستعمله أيضا بسخرية بعض اليهود الطوافين (المتجولين) الذين آلوا على أنفسهم أن يسموا بهذا الاسم العذب المبارك على البعض ممن أصيبوا بأرواح شريرة. على أن الشيطان نفسه فى إحدى المناسبات العظيمة اعترض عليهم قائلا: «أما يسوع فأنا أعرفه وبولس أنا أعلمه وأما أنتم فمن أنتم، فوثب عليهم، وغلبهم، وقوى عليهم، حتى هربوا من ذلك البيت عراة ومجرحين».

﴿٣﴾ ولنتأمل فى تعويذة الانتصار:

إذا ما تحولنا عن الحياة الخارجية لذلك الإنسان العجيب، الذى كان يبدو وحيدا فى حروبه وانتصاراته، وتأملنا فى مذكراته، وجدناها تتضمن سجلا رقيقا لأحزانه وتجاربه؛ فإنه إذ كان يكتب أثناء تلك الشهور الكثيرة الحوادث، نراه يتحدث عن نفسه كإنسان محكوم من أجل المسيح، قاسى مرارة الجوع والعطش، عندما كان الإقبال على صناعته قليلا والأجر ضئيلا، بلا إقامة، لعدم تمكنه من الإقامة طويلا فى أى مكان بسبب مؤامرات أعدائه، أصبح مبغضا، ومحتقرا، ومضطهدا، ومفترى عليه، صار كأقذار العالم ووسخ كل شىء (١ كو ٤: ٩-١٣).

وعندما سرد روايته عن ضيقته التى أصابته أثناء إقامته فى آسيا، يقول؛ إنه تثقل جدا فوق الطاقة حتى يئس من الحياة أيضا، وأنه كان مكتئبا فى كل شىء، متحيرا، مطاردا، مطروحا، يئن فى خيمة جسده، حاملا فى الجسد كل حين، إماتة الرب يسوع. وعلاوة على جميع هذه الآلام التى كانت من الخارج، فقد كان يضغط عليه يوميا الاهتمام بجميع الكنائس، وجزعه بصدد الأفراد الكثيرين، إذ لم يكف قط عن أن ينذر بدموع، كل واحد، ليلا ونهارا (٢ كو ٨: ١-٨ ، ٤: ٨-١٠ ، ١١: ٢٧ و٢٨).

ليس هناك بين السجلات عن الآلام البشرية والصبر والاحتمال، ما يثير الشجون، بقدر ما دوّن عن اختباراته فى أفسس، عند دعوته قسوس كنيستها إلى شاطئ ميليتس، وإلقاء خطابه الوداعى عليهم. وفى هذا الخطاب أيضا، يقتبس كلمات المزامير القديمة، المتضمنة بأنه كان يمات كل النهار وحسب، كخروف للذبح، ثم يعدد الضيقات والآلام والاضطهادات والجوع والعرى والأخطار والسيف، كعناصر جوهرية ينبغى أن تمتلئ بها كأسه، يضاف إلى هذا، الآلام المستمرة المتسببة عن شوكة الجسد، وإننا لنعجب أشد العجب أن تباح لإنسان كهذا أن يكون أعظم من منتصر، تحت ظروف معطلة كهذه، وأمام قوات مقاومة كهذه، ونتيجة لكل هذا؛ وواضح أننا يجب أن نبحث عن سر نصرته خارجا عن نفسه. كان السر هو هذا: «بالذى أحبنا». إنه لم ينتصر فحسب، بل كان أعظم من منتصر، إنه انتصر بكل سهولة، وعاد بغنائم الانتصار، وذلك لأنه كان يوميا على اتصال بمن أحبه، ويحبه، وسيحبه إلى الأبد. ومن كان يمده دواما بقوى عظيمة كما يمد العمال زميلهم بالأكسجين باستمرار، إذ يغوص فى أعماق البحار لطلب اللآلىء.

لذلك فقد كان الأمر الوحيد الذى يقلق الرسول هو: هل يمكن أن يفصله أى شىء عن الرب الحى، المحب «من سيفصلنا عن محبة المسيح»؟ كان هذا هو السؤال الوحيد الذى يستحق التفكير. وهنا، نراه يبحث بكل اهتمام أقصى حدود الكون، لأنها تشمل كل شىء بينها. فيتساءل أولا عن أقصى حدود الوجود «الموت والحياة»، ثم أقصى حدود المخلوقات «الملائكة والرؤساء والقوات»، ثم أقصى حدود الزمن «الأمور الحاضرة والمستقبلة»، ثم أقصى حدود المكان «العلو والعمق»، وأخيرا، أقصى حدود المسكونة المخلوقة «خليقة أخرى».

جالت بخاطره كل هذه الحدود، وتفرس بدقة فى أعماقها، كأنه يشبه رجلا يختبر كل حلقة فى السلسلة التى سيعلق بها فى هاوية سحيقة. لقد فحص الكل بغاية الدقة والحرص، واستراح إذ أدرك بأنه لا شىء فيها يستطيع أن يفصله عن محبة الله، وطالما كان هذا هو الحال، فهو متيقن بأنه لا شىء يستطيع أن يفصل عنه امتدادات الحياة وقوة الله التى تجعله أعظم من منتصر.

كثيرا ما أسأنا الحكم على محبة الله بكيفية غريبة، فتوهمنا بأن مصائبنا وآلامنا، خطايانا وسقطاتنا، تقلل من محبته لنا، مع أنها تزيده اقترابا منا، وتجعل محبته تزداد وضوحا ورقة؛ ففى دائرة الحياة، العائلية، ليس الأولاد الأصحاء الأقوياء هم الذين يثيرون اهتمام الأم بقدر اهتمامها ومحبتها وعطفها على الطفل المريض، الملقى فى فراشه زمنا طويلا، عاجزا عن خدمة نفسه. وفى العالم، إن الموت والآلام، والأمراض والأحزان، السقطات، الخطايا، إنما تزيد الله اقترابا إلينا، وحاشا أن تفصلنا عن محبته، بل هى تزيدنا اتصالا به.

إيه أيتها المحبة المباركة التى تنزل إلينا من قلب يسوع، محبة الله الأبدية التى تأتينا بالمسيح، لا شىء يستطيع أن يعطل سيرك، أو يستنفذك، أو يقطع عليك الطريق. إنها لا تدعنا نذهب، بل تقفز فوق كل جبال الصعوبات، دون أن تكل أو تمل، هى لا تتوقف على مقدار استعدادنا لقبولها أو استجابتنا لها. ليست محبتنا هى التى تمسك بالله، بل محبة الله هى التى تمسك بنا. ليست محبتنا له، بل محبته هو لنا. وطالما كان لا شىء يستطيع أن يفصلنا عن محبة الله، فإنه يستمر فى محبتنا إلى الأبد، ويسكب فينا من ملء حياته ومجده. ولذلك، فمهما كانت صعوباتنا وضعفاتنا، مهما كثرت براميل المياه التى تصب فوق المحرقة والحطب الذى وضعت عليه، فإننا نبقى ثابتين غير متزعزعين، مكثرين دواما فى عمل الرب، نجنى من خسائرنا ربحا، ومن سقطاتنا نجاحا، ومن هزائمنا انتصارا، ويعظم انتصارنا دواما بالذى أحبنا.

❖ ❖ ❖

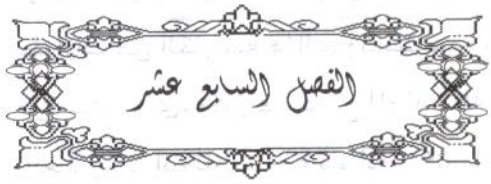

الفصل السابع عشر

« سحب متكاثفة »

« أع ٢٠ : ٢٢ »

- «أنا أعــــرفك يا من حــــفظت طريقى
- «وأنرت لى الســبـيل فى ظلمــة ضـيـقى
- «وخـــفــفت لى الأحـــزان والمتـــاعب
- «فـوجـدت فـيـهـا فـرحـا وعـجـائب.»

« براوننج »

بعد هدوء العـاصـفـة التى أثارها ديمتـريوس، دعـا بولس تلاميذه ليوافوه فى المكان الذى اختبأ فيـه، وزودهم بالنصائح مستودعا إياهم لنعمة الله، ومودعـا إياهم وداعا حـارا. بعد ذلك، خرج ليذهب إلى مكدونية عن طريقترواس.

ولمعرفة مـا حدث فى الأشهر القلائل التالية، يجب الرجوع إلى رسالة كورنثوس الثانية، التى تتميز عن باقى الرسائل بأنها تكشف قلبه. يدعـوهـا «بنجل» Bengel دليل المسـافرين، ويقـول العـمـيـد «سـتـانلى» Dean Stanley أن مـراحل رحلتـه مطبـوعـة عليـهـا، ويقـول ثالث أن الانفعالات القويـة التى كتبت تحـت تأثـيرها تجعـل تفسـيرها أعسـر من غيرها.

وفى ترواس، التى زارها وقتئذ للمرة الثانية، كان يتوقع أن يرى تيطس، الذى كان على الأرجح قد حمل الرسالة الأولى إلى كورنثوس، وهى التى تتضمن الأخبار الأليمة عن الانشقاقات والاضطرابات فى الكنيسة هناك، وكانت هذه الأخبار قد نقلها إلى أفسس بعض الأعضاء من بيت خلوى. وكان قد عالج الموقف كله بعبارات عنيفة جدا، ولذا، كان على أحر من الجمر فى انتظار نتيجة كلماته. وكثيرا ما تساءل، منذ كتابة الرسالة، عما إذا كان قد ضاع نهائيا كل نفوذه على التلاميذ، وطُوِّحَ بهم فى بالوعة اليأس. ولذلك، كان إبطاء تيطس مؤيدا لأشر مخاوفه. ومع أنه انفتح له باب عظيم للخدمة فى ترواس، فإنه لم يجد راحة لنفسه القلقة؛ لذلك استأذن منهم وذهب إلى مكدونية (٢ كو ٢: ١٣).

والمرجح جدا أن بولس قصد فى الحال فيلبى المحبوبة، ولكنه حتى هناك، لم يكن لجسده شىء من الراحة، لأنه لم تصل من تيطس أية أنباء، بل كان مكتئبا فى كل شىء، من خارج خصومات، ومن داخل مخاوف (٢ كو ٧: ٥).

لكن الله، الذى يعزى المتّضعين، عزاه أخيرا بمجىء تيطس، الذى كان قد فات موعد حضوره، فسر جدا، ليس بوجود صديقه بجانبه فحسب، بل لأنه علم أن نتيجة رسالته الأولى كانت مرضية، وأدت إلى توبة مباركة، وإلى شوقهم إليه (٢ كو ٧: ٦ و٧). وبعد المداولة مع تيطس عن كل الشئون فى كورنثوس، كتب رسالته الثانية.

﴿١﴾ أحزانه المضاعفة:

فى كل الرسالة، يتحدث بولس عن الضيق العظيم الذى كان يكابده. ومع أنه رد على التهم القاسية التى وجهت ضده، إلا أنه لم يغفل فى نفس الوقت عن الإشارة إلى آلامه برقة ولطف.

كان الكنز فى آنية خزفية. كان متضايقا، متحيرا، مطاردا، مطروحا، حاملا فى جسده كل حين إماتة الرب يسوع. كان الإنسان الخارج يفنى، وكان يئن مثقلا، كثيرا ما تاق إلى أن يتغرب عن الجسد ليستوطن عند الرب (٢ كو ٥: ٨).

وفى إحدى المناسبات، يذكر ـ ضمن أسباب الضيق الأخرى ـ أسهاره وأصوامه المكررة، والضربات والسجون، والاضطرابات والأتعاب، وضغط الأعمال اليومية (٢ كو ٦).

لكن، لابد أنه كانت هنالك أسباب أخرى أعمق، لعلها كانت استمرار القذف فى حقه، وتحريف تعاليمه، أو فتور محبة الكثيرين من نحوه، أو أن بعض الكنائس الفتية التى أنفق فى سبيلها الكثير من الصلوات والدموع، برهنت على أنها فاشلة؛ ولكن مهما كانت تلك الأسباب، فإن آلام المسيح يبدو أنها غمرته.

على أن أبا الرأفة، وإله كل تعزية، اقترب إليه وعزاه. كانت عذبة وشجية جدا، تلك الأغنية الحلوة التى تسللت إلى قلب ذلك الخادم المتألم، والتى تكونت من الفقرات التالية: شهادة ضميره أنه خدم ببساطة وقداسة، أمانة الله التى لا يتطرق إليها الوهن أو الفشل، إنارة معرفة الله التى أضاءت بوضوح فى نفسه، شُكر الكثيرين لله الذى نشأ من آلامه، رؤية ثقل المجد الأبدى، عربون الروح فى نفسه، تأكده من أنه قد رأى مقدما بناء الله الذى ينتظره فى السموات، الشعور المبارك بأنه سفير المسيح، وعامل مع الله. إن الله يعرف كيف يعزى أولاده. لقد فاضت فى نفسه ينابيع من التعزيات الإلهية من أعماق مجهولة، وهى لا تزال مستعدة أن تفيض فى نفسك وفى نفسى؛ وهكذا، إن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدد، يوما فيوما.

ورغما عن كل ذلك، فإن هذه النفس، التى تعاظمت جدا آلامها وأهوالها، لم تقلل لحظة واحدة من جهودها التى كرستها لخدمة قضية الله؛ فإن رسائله تفيض بالإشارات إلى المساعدات التى كان يجمعها للقديسين الفقراء فى أورشليم من كل الكنائس التى أسسها. فى إحدى المرات، يحض كنيسة كورنثوس، بِذِكْرِ مكدونية، كمَثَل يُحتذَى به، ومرة أخرى، يعدد التحذيرات ضد افتراءات الذين نسبوا إليه أنه إنما ينتفع شخصيا من هذه الإعانات التى يجمعها. هنالك إشارات أيضا لأتعابه، ليس فقط فى الكنائس التى عرفته واحترمته، بل أيضا فى المناطق الجديدة التى لم تُكتشف بعد؛ وإذ كان يطمع فى الكرازة بإنجيل المسيح، ليس حيث سُمِّىَ المسيح، ولم يشأ أن يبنى على

أساس لآخر، فإنه كرز بالإنجيل كرازة كاملة، حتى إلى الليريكون، الواقعة على البحر الأدرياتيكى.

إيه أيها الرجل الفريد، إنه لم يعطلك أى ثقل عن أن تحلق بروحك الطاهرة؛ بل كما أن طائرة الصبى يجب أن تثقل ليزداد تحليقها إلى فوق، هكذا أكسبتك آلامك أشواقا جديدة لتخليص النفوس، ومطامح جديدة لخدمة ربك. لقد نلت جزاءك فى قلوب الأمم التى أحبتك، ولا تزال تحبك حتى نهاية العالم الحاضر، كما كان لك «افتخار فى المسيح يسوع من جهة ما لله». نحن نعظم المسيح فيك، لأننا واثقون أنه عمل فيك لأجل طاعة الأمم، بالقول والفعل «بقوة آيات وعجائب، بقوة روح الله» (رو ١٥: ١٧ و١٩).

﴿٣﴾ أصدقاؤه:

لبعض الناس قوة سحرية عجيبة لجذب الآخرين إليهم، فيهم مغناطيسية روحية نحو الآخرين، يتجمعون حولهم، ويقتفون خطواتهم. كانت لبولس هذه القوة بدرجة عظيمة جدا. قليلون جدا هم الذين كانوا محبوبين مثله. كان محبا لمن أحبه. لذلك، فلابد أنه وجد بهجة خاصة عندما ذهب إلى كورنثوس أخيرا، إذ رأى نفسه مركزا لمجتمع كبير من الأصدقاء المحبين.

هنالك كان تيموثاوس «ابنه المحبوب»، «الابن الصريح فى الإيمان»، وتيخيكس «الأخ الحبيب والخادم الأمين للرب» الذى كان معه فى سجنه الأخير، وتيطس «شريكه والعامل معه»، الابن الصريح حسب الإيمان المشترك»، ولوقا «الطبيب الحبيب» الذى رافقه إلى رومية، وكان معه إلى النهاية، وتروفيمس الأفسسى، الذى كان يتمنى أن يلازمه حتى الموت، لو لم يعقه المرض، ويؤخره فى ميليتس، وأرسترخس وسكوندس، ولعل الأول حاول أن يشاركه سجنه ليتمكن من خدمة صديقه الحميم، وسوسيباترس، نسيبه الذى كان معروفا جيد المعرفة لكنيسة رومية، وغايس، الذى كان يذكره بتلك الرحلة التبشيرية الأولى التى وصلت به إلى دربة، وغايس الآخر، الذى كان مضيفه وقتئذ، وياسون، الذى خبأه فى تسالونيكى معرضا حياته للخطر.

وهؤلاء إنما كانوا حفنة قليلة من أصدقائه العديدين. عندما كان يكتب فى هذا الوقت من كورنثوس، بعث بتحياته إلى ستة وعشرين من أصدقائه، كلٌ باسمه، فى الأعداد الأخيرة من رسالة رومية، مثل بريسكلا وأكيلا اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياته، وأبنتوس حبيبه، وأمبلياس حبيبه فى الرب، وبرسيس المحبوبة، وكثيرين غيرهم؛ وإن كان قد أصبح مبغضا أكثر من الجميع، فقد كان فى أشد الحاجة للمحبة أكثر من الجميع، ولذلك، فقد كانت تتجمع حوله قلوب الكثيرين من المحبين التى كان عددها يتزايد على مر الأيام، وأية محبة، فى تاريخ المحبة، أعظم من تلك التى تتحد النفوس فى المسيح.

لقد كسبت قلوب الإخوة والأخوات
لا يزال البعض أحياء على الأرض
والبعض قد رقدوا
هو ذا الجميع يرحبون بى
كما يرحب بى رأس أسرة الله التى بلا لوم

ويا لها من شركة مقدسة، تلك التى تجمعت بين هذه النفوس الكريمة فى كورنثوس، أثناء تلك الشهور الثلاثة الخالدة، التى كتبت فيها الرسالتان إلى غلاطية ورومية. ولعل الحجج الدامغة التى تضمنتها هاتان الرسالتان، قد قيلت أولا فى أسماعهم، فإليهم أولا قدم الصورة الأولى لما هو مدون فى الإصحاحين الخامس والثامن من رسالة رومية، أو الإصحاحين الثالث والخامس من رسالة غلاطية. ولعل الأحاديث التى تمت فى أوقات متأخرة من الليل عن مصير إسرائيل، ومشورة الله، وطريقة معاملة الضمائر الضعيفة، قد جرت فيها مناقشات طويلة، وأبحاث عميقة.

أخيرا، كان من الضرورى للجماعة أن تتفرق، فإن بولس كان يشتاق للذهاب إلى أورشليم لحضور عيد الفصح، ولذلك حُجِزَ له مكانٌ فى إحدى السفن التى كانت تنقل الحجاج كل ربيع من كل موانئ بحر اليونان إلى فلسطين. على أنه، قبل أن يستقل السفينة، اكتُشِفَت مؤامرة دبرها اليهود لقتله، فاضطر أن يغير طريقه، وسار فى رفقة

بعض الأصدقاء لحراسته إلى مكدونية، وأخذ سفينة من ترواس، وانتهز فرصة هذا التغيير فى برنامجه لكى يودع مرة أخرى تلك الجماعة المحبوبة فى فيلبى التى أعزها جدا، ثم أسرع لينضم مرة ثانية إلى جماعة الأصدقاء الأعزاء الذين كانوا ينتظرونه فى ترواس، والذين حرصوا على أن يعنوا به، وبالإعانات التى جمعها بجهد شديد.

﴿٣﴾ تشاؤم أليم:

لابد أن تلك الرحلة من ترواس إلى الجنوب، بمحاذاة شواطئ آسيا الصغرى، والتى كانت السفينة تسير فيها نهارا، وترسو ليلا، قد سببت آلاما نفسية شديدة لرفقاء بولس، أكثر مما سببته له هو شخصيا.

لم يكن لديه شك فى نتيجتها، فقد ذهب إلى أورشليم مقيدا بالروح، واثقا أن وثقا وشدائد تنتظره هنالك، كما فى كل مدينة أخرى. وقد شهد له الروح القدس بهذا شهادة قاطعة، وقد أطال كلامه فى ترواس إلى نصف الليل، وبعث برسالة إلى قسوس كنيسة أفسس ليوافوه فى ميليتس، لأنه علم أن جميع الذين كرز بينهم بملكوت الله، لن يروا وجهه ثانية، ثم ودع الجماعات القليلة التى ودعته وداعا حارا، كأنهم قد أيقنوا أنه الوداع الأخير، وما أعلنه الروح القدس على لسان التلاميذ فى مدينة صور، كان مجرد تأييد لما أعلنه إلى قلب بولس مباشرة (أ ع ٢٠: ٢٣)، وما تنبأ به أغابوس رمزيا، كان قد سبق فأعلنه الروح القدس، الذى لا يكذب قط (أع ٢١: ١٠). ومع أنه كان مستعدا لسلوك أى طريق يشير به يعقوب بقصد حجزه فى الطبقة العليا من الهيكل، بعيدا عن الطرقات التى كانت مكتظة بمناسبة العيد بالجموع الصاخبة، فإنه أيقن أن كل هذا لا يفيد، ولذلك، لم يعجب عندما رأى نفسه وسط الغوغاء الصاخبين، مسرعين به إلى الدار السفلية، قاصدين قتله، دون انتهاك حرمة الهيكل.

أما أحباؤه، فقد وقعت من نفوسهم تلك الإنذارات بالنكبة المقبلة، وقع الصاعقة. يصور لنا لوقا منظر بيت فيلبس مضيفهم فى قيصرية، والذى لابد أن يكون بولس قد تبادل معه بعض الذكريات الأليمة عن استفانوس، ويصوره لنا تصويرا مثيرا للشجون وينحدر أغابوس إلى هناك من أورشليم، ويحل منطقة بولس، ويربط بها نفسه، ويتكلم

بقوة الروح القدس، معلنا أن اليهود سيفعلون هكذا بصاحبها. ويقول لوقا بعد ذلك، «فلما سمعنا هذا، طلبنا إليه نحن والذين من المكان، أن لا يصعد إلى أورشليم»، ثم بكوا بكاء حارا كسر قلب بولس، على حد تعبيره.

على أنه كان ثابت الجنان بشكل عجيب، فكان يبدو كأنه ذاهب إلى بيت العرس، لا إلى بيت النوح، ألم تكن روحه خُطِبَت لربه، والموت واسطة لنقله إلى حضرته، وهذا أفضل جدا من أفضل أصحابه؟ لقد كان مستعدا ليس لأن يُربَط فقط، بل لأن يموت أيضا فى أورشليم لأجل اسم الرب يسوع، حقا إنه لم يحسب حسابا لشىء، ولا كانت نفسه ثمينة عنده، إزاء إتمام سعيه بفرح، والخدمة التى أخذها من الرب يسوع، ليشهد ببشارة نعمة الله.

نعم بالحياة والموت، أى الأحزان والآلام
سوف أجد فيه كل كفايتى
يسوع هو النهاية لأنه هو البداية
يسوع هو البداية لأن النهاية هى يسوع

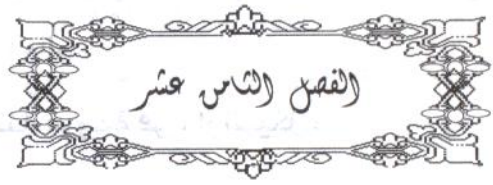

الفصل الثامن عشر

﴿ تقدّم الإنجيل ﴾

﴿ فى ١ : ١٢ و ١٣ ﴾

❖ «تفـــــــــرح روحى إذ تسكن آمنة
❖ «واثقة أنها محاطة بأسلحتك القوية
❖ «معتبرة أن النصرة أكيدة
❖ «ولا تخشى لُهُب جهنم الشديدة
❖ «وإن كان الغوغاء يزعجون الأرض والبحار
❖ «فإنهم لن يقربوا منك يا صخر الدهور.»

﴿ راى پالمر ﴾

كان هذا هو موضوع اهتمام بولس الوحيد. كان أكثر من مستعد لتحمل الآلام إلى النهاية، إذ آل ذلك إلى تقدم إنجيل محبة الله، وعظيم الرب يسوع. والآن، يقف فوق قمة السنين الماضية ويتأمل الأمور التى تمت له فيها، فيغتبط أشد الاغتباط إذ استطاع أن يعلن لإخوته فى فيلبى أنها قد آلت أكثر إلى ازدياد تقدم الإنجيل.

إن مجال هذا الكتاب المحدود يمنعنا من سرد كل تفاصيل رحلته من هيكل أورشليم إلى البيت الذى استأجره فى رومية. ولكن لنتأمل على الأقل فى خطواتها المتتابعة فى ضوء هذه الحقيقة التى ملأت قلبه

فرحا، وهى أن جميع هذه الخطوات قد آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل؛ **أولا**: لأنها أعطته الفرصة لإظهار الصفات المسيحية الحقة، **وثانيا**: لأنها مكنته من إعطاء شهادته ليسوع أمام أعلى المحاكم فى العالم.

﴿١﴾ كانت هنالك فتنة مروعة فى دار الهيكل:

ألقى اليهود الذين من آسيا ــ بقيادة اسكندر النحاس على الأرجح جدا ــ القبض على بولس بحجة أنه أدخل تروفيمس، الذى يعلمون أنه أفسسى، إلى الدار المخصصة لليهود. بعد ذلك جروه أسفل الدَّرَج وضربوه بوحشية، قاصدين قتله لدى وصولهم إلى أسفل. وبكل جهد أنقذه ليسياس وجنوده الذين اندفعوا بسرعة من قصر أنطونيا المجاور، وأحاطوا به بدروعهم وحملوه على أكتافهم لإنقاذه من الشغب العنيف. ولقد استطاع أن يتحدث وسط الشغب بلغتهم، فسرد رواية يسوع المقام من الأموات، وكان حديثه بكل لباقة، حتى أنهم لم يسعهم إلا الإصغاء، ولم يكن ذلك كله نتيجة لمجرد هدوء نفسه الطبيعى، وضبط أعصابه، بل لأنه كان مستريحا فى أحشاء يسوع، وراغبا فى أن يعظم سيده.

كان هنالك قوة فى احتجاجه الهادئ أمام أولئك الذين أمروا أن يفحصوه بضربات، وفى تصريحه بأنه حصل على الرعوية الرومانية، الأمر الذى لابد وأن يكون قد ملأ قلوبهم إعجابا واحتراما، إذ لم يكن أمامهم مجرم عادى.

استاء البعض من عدم لياقة تصرفاته، عندما وقف أمام السنهدريم فى اليوم التالى. على أن حنانيا، الذى جلس لمحاكمته، كان قد عُزِلَ فعلا من رئاسة الكهنوت، ولو أنه كان لا يزال فعلا يمارس هذه الوظيفة. ولقد كانت إثارة حقيقة القيامة من الأموات موضوع الحوار بينه وبين اليهود. فالفريسيون اعترفوا بأنهم يؤمنون بالقيامة من الأموات، ومع ذلك، رفضوا الاعتراف بأن يسوع قد قام. وأما بولس، فإنه من الناحية الأخرى، حاول أن يثبت، ليس فقط أن هنالك قيامة من الأموات، بل أيضا أن هنالك قيامة قد حدثت فعلا.

لقد قدّره الرب كل التقدير، وتقبل جهوده التى بذلها لاستخدام مناظر المحاكمة هذه لمجد سيده، وهذا ما أكده له بالرؤيا التى ظهر له فيها آمرا إياه بأن يتشجع ولا يخاف، ومؤكدا له بأن الشهادة التى شهدها من فوق دَرَج القصر، وفى قاعات السنهدريم، سوف تتكرر فى رومية نفسها، قلب الإمبراطورية، حيث يسمعها كل الأمم.

لابد أن مسلكه كان فى غاية النبل والبطولة، وإلا لما تجاسر ابن أخته - الذى اندس بين أعدائه واعتبر يهوديا متعصبا - أن يخاطر بحياته لكشف المؤامرة التى دبرها بعض اليهود الغيورين، إذ حرموا أنفسهم بقسم مغلط، أن لا يأكلوا، ولا يشربوا، حتى يُخْرِسوا إلى الأبد، ذلك اللسان الذى كانوا يخشونه، أكثر مما خشوا كل جنود فيلكس.

﴿٢﴾ محاكماته:

حالما اكتُشفت تلك المؤامرة، أخذته للحال، حامية قوية من المعسكر ليلا، وأسرعوا به إلى انتيباتريس، على بعد خمسة وثلاثين ميلا من أورشليم، وفى اليوم التالى، قطعوا خمسة وعشرين ميلا أخرى حتى وصلوا إلى قيصرية، ليحاكم أمام فيلكس، والى اليهودية الرومانى، ولكنه، إذ وقف أمامه فى مناسبات متعددة، أظهر بأنه لا يبالى بذاته، وكل ما كان يعنيه هو انتهاز كل فرصة يقف فيها موقفا عاما، فيشرح طبيعة «الطريق»، ويتناقش مع قاضيه عن الإيمان بيسوع المسيح. وقد تكلم فعلا بقوة فى إحدى المناسبات عن البر والتعفف، والدينونة العتيدة أن تكون - أمام فيلكس والمرأة التى كان يعيش معها فى الزنى- وكان الكلام قويا، لدرجة أن فيلكس ارتعد إذ اضطره ذلك الأسير أن يراجع حياته المخزية فى ضوء الضمير المتيقظ.

ولما حل فستوس محل فيلكس، الذى كان قد عزل بخزى، استطاع الرسول فى ظرف أيام وجيزة، أن يؤثر على الزائر الجديد، بإيمانه فى يسوع الذى مات، والذى أكد بأنه لا يزال حيا، حتى أن الوالى استطاع أن يقص الرواية بدقة عجيبة للملك أغريباس، الذى كان قد قدم مع برنيكى أخته، ليسلّم على ممثل الإمبراطور الجديد.

ولكن، لعل أعظم فرصة انتهزها بولس، وبذل فيها كل كفايته، كانت يوم استطاع أن يكرز بالإنجيل لجماعة ضمت كل وجوه وأغنياء وأعيان البلاد. كان حاضرا الاجتماع؛ فستوس، والملك، وأخته، جالسين على كراسى ذهبية، وأمراء الحامية، ورجال المدينة المقدمين. ويا للفارق العظيم بين العظمة التى تجلّى بها الحاضرون، وبين ذلك الأسير الذليل، المقيد بسلاسل، ولكنه فى الواقع، رغم أنه كان ينحنى تحت ثقل ستين من السنين، وتحت عبء آلام وأهوال كثيرة، فإنه كان أنبل وأجمل من كل الجماهير بفخامة مظهرهم. يا للعظمة التى بها كرز بالمسيح فى ذلك اليوم تحت ستار الدفاع عن نفسه، لقد تحدث عن آلام الرب وقيامته، عن إتمام نبوات موسى والأنبياء، عن تفتيح الأعين، عن الرجوع من الظلمة إلى النور، وعن شروط غفران الخطايا، والحصول على نصيب مع المقدسين. تكلم عن هذه المواضيع بكل ما وسع من ذكاء ولباقة وغيرة، حتى أن الوالى الرومانى حسبه مجنونا، والملك استخدم كل ذكائه لكى يتملص من تلبية دعوة ذلك الأسير الشائكة.

﴿٣﴾ قيصرية:

بقى بولس كأسير، سنتين كاملتين، فى إحدى غرف حرس قصر قيصرية القديم، ولكنه كان مسموحا له برؤية أصدقائه ، وتلقّى مساعداتهم. ولابد أن القديسين فى قيصرية، وما حولها، سروا جدا لانتفاعهم بهذا الامتياز. ويقول التقليد، إن لوقا فى تلك الفترة كتب الإنجيل الثالث بالاشتراك مع صديقه، وتحت إرشاده. إن صح هذا، فيا لها من تعزية كبرى للاثنين كليهما أن يتتبعا كل الأشياء من الأول بتدقيق، كما سلمها إليهما الذين كانوا منذ البدء، معاينين، وخداما للكلمة.

كانت هاتان السنتان مثمرتين جدا فى ناحية أخرى، فإن تقدير الحق الذى فى يسوع، ازداد نضوجا وتعمقا. قارن رسائل تسالونيكى، وكورنثوس، ورومية، وغلاطية، برسائل أفسس، وفيلبى، وكولوسى؛ تتبين بسهولة مقدار تقدمه فى المعرفة. تجد القليل من المناقشات الجدلية، والدفاع عن مشاعره وأعماله، والكثير من الكلام عن وحدة المؤمن الجوهرية بربه، القليل من المناقشات التعليمية عن عمل المسيح ، والكثير من

التفانى فى شخصه، القليل من العهد القديم، والكثير من العهد الجديد، والمُلْك والحياة فى السماويات. بالبركة قضى هاتين السنتين بين جدران ذلك القصر القديم، مقيدا بالسلسلة التى سمع صوتها فستوس وضيوفه. فرغم أن روحه الوثابة قد تعطلت عن جهودها المتواصلة، وأسفارها المتوالية، إلا أن هاتين السنتين قد تحولتا للخير، لأنهما مكنتاه من أن يقدم رسائله النفيسة جدا التى كتبها فى السجن.

وأخيرا، انتهت مدة سجنه، فإن السلطات الدينية لم تكف عن طلب تسليمه لتحاكمه، الأمر الذى دبرت العناية الإلهية أن يرفضه الولاة الرومانيون، لأنهم علموا، كما علم بولس أيضا، أن محاكمة كهذه لا يمكن أن تنتهى إلا بنهاية واحدة معروفة.

وأخيرا، عندما أظهر فستوس بعض علامات الخضوع، طالب بولس بحقه ـ كأحد الرعايا الرومانيين ـ أن ترفع دعواه إلى قيصر نفسه؛ **أولا**: للتخلص من تحامل اليهود المحليين، **وثانيا**: لكى يضمن للكنيسة المسيحية نفس الحقوق التى كانت مقررة لمجمع اليهود، **وثالثا**: لكى يتمم أمنيته التى طالما كان يحلم بها نحو المناداة بالإنجيل فى رومية.

لم يكن ممكنا رفض ذلك الطلب. إلى قيصر رفع دعواه، وإلى قيصر يجب أن يذهب. وبأسرع ما يمكن، وُضع فى حراسة قائد مائة لينقله إلى عاصمة الإمبراطورية.

﴿٤﴾ أخيرا حل موعد الرحلة:

ويبدو أن الرسول حاول بذل كل جهوده لاستخدام كل خطوة فيها لمجد ربه. كانت وجهة نظره: لى الحياة هى المسيح. كان يحسب نفسه كل حين فى كل مكان مدينا لكل الناس، وملزما بأن يسدد لكل إنسان جزءا من الدين الخطير الذى عليه نحو فدائه.

وأبحر الجميع، أولا فى سفينة شراعية عادية، ثم من ميرا فى سفينة إسكندرية معدة لنقل القمح، وكانت إحدى سفن الأسطول العظيم المستخدم بصفة مستمرة لتموين رومية. لم يذعن قائد السفينة لمشورة بولس، الذى كان معتبرا حتى فى هذا الموقف من الرحلة، رجلا ممتازا محنكا، بل حاول أن يعبر الخليج المكشوف، من الموانى الحسنة إلى

فينكس، وكلتاهما جنوب كريت، ولكن الريح تغير فى منتصف الطريق، وفجأة هبت عاصفة عنيفة من الجبال، ودفعت السفينة الكبيرة إلى البحر، وفى الفترة الوجيزة التى سافروا فيها فى مأمن من الريح تحت جزيرة كلودى الصغيرة، تمكنوا بالجهد من أن يملكوا القارب الذى كانت تخبطه المياه خلفهم، وحزموا السفينة بحبال حولها لتقويها، ولم يكن هنالك سوى أن يُحملوا فى عرض البحر. بعد ثلاثة أيام دعى الجميع ــ حتى الأسرى ــ لتخفيف السفينة بطرح البضاعة وباقى المنقولات فى الماء. وبعد أن استمرت العاصفة أياما كثيرة، لم تظهر فيها الشمس أو القمر، انتُزع كل رجاء فى النجاة.

عندئذ، تقدم بولس هادئا، ثابت الجنان، مطمئنا، برسالة الله، لينعش نفوسهم الخائرة، ويشدد عزائمهم الفاترة. كان عبد الله الأمين نائما وسط العاصفة كما فعل بطرس قبل استشهاده. وقد خدمته ملائكة كبطرس أيضا، وفى وسط ذلك الجو المكفهر، تقدم إليه أحد هذه الأرواح الخادمة، بكلمات مطمئنة من العرش، أن لا يخاف، مؤكدا له أنه لابد أن يقف أمام قيصر. وواضح أن الرسول كان يصلى من قبل من أجل نجاة البحارة، لأن الملاك أضاف على ذلك قائلا: «وهو ذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك». هنا، كانت الفرصة للكرازة بالإيمان بالله، والثقة بقوة الصلاة.

وإذ كان بولس دواما سريع الخاطر، تبين محاولة البحارة النزول إلى القارب، ولكنه بحكمة أخرى، غير الحكمة البشرية، بحكمة إلهية، ونعمة أزلية، أخذ خبزا وكأنه متقدم به إلى مائدة الرب فى كورنثوس أو فيلبى، شكر الله أمام الجميع، وكسر وابتدأ يأكل.

وعندما وصلوا إلى شاطئ مالطة فى صباح أحد أيام نوفمبر القاسية البرودة، كان يبدو أنه لم يبق بعد شىء يمكن عمله لتقدم الإنجيل. ولكن، عندما سقطت الأفعى عن يد بولس، وشُفى أبو مقدم الجزيرة من الدوسنتاريا، استجابة لصلاته، وشُفى أيضا كل من كان مريضا بالجزيرة بلمسته، فإنه عمل الكثير ليعظم ذاك الذى كان يفخر بأن يقول عنه دواما: «الذى أنا له والذى أعبده».

﴿٥﴾ إلى رومية:

هل خان قلبه، عندما اقترب أخيرا من المدينة، وبدأت تظهر رويدا بعض علامات عظمتها، وحياتها الصاخبة؟ لطالما فكر فى هذه اللحظة وتاق إليها. عندما كتب إلى كنيسة رومية قبل ذلك بثلاث سنوات قال: «إنى مشتاق أن أراكم لكى أمنحكم هبة روحية». لقد اعترف بأنه كثيرا ما صلى وقصد أن يذهب إليهم، ولكنه لم يكن يخطر بباله أن يأتيهم بهذه الحالة، واحدا من جماعة من الأسرى تحت حراسة بعض الجند الرومانيين، ولكنه كان يستطيع، وهو فى وثقه، أن يقدم إليهم خدمة أكثر انتاجا مما لو كان حرا، فإنه لو كان حرا لذهب من مجمع إلى مجمع، ولكن لم تكن تتاح له الفرصة للتكلم مع الحرس الإمبراطوى وبيت قيصر.

وهكذا يستجيب الله لصلواتنا بطرق لم نكن نتوقعها. فى بعض الأحيان، نضع قلوبنا على بعض المشروعات، ولكننا نظل سنوات نرى أن هناك جبالا من الصعوبات تحول دون تحقيقها، فنصلى، ونبذل الجهود المضنية من أجلها نهارا وليلا، وتحدثنا نفوسنا أننا سنفرح يوما بتحقيق آمالنا المشتهاة، ولكننا عندما نصل رومية أخيرا، يبدو كأننا أسرى مكبلة أيدينا بالأغلال.

ولعل الله تمم رغبة بولس نحو رؤية رومية بهذه الطريقة لسببين؛ **الأول**: لحمايته فى الطريق، **والثانى**: ليكون لديه عدد وافر من المستمعين الذين كانوا ينتظرونه. وقد يتطلب هذان السببان ذهابنا إلى رومية فى سلاسل، وإلا لانعدمت لذة أفراحنا، بل ربما لم ننعم بتحقيق أحلامنا. فخير لنا أن نكون فى سلاسل. لا رومية دون السلاسل، ولا السلاسل دون رومية، بل رومية والسلاسل معا.

فلا تنزعج إذا ما وجدت محدودية فى حياتك أو ضعفات؛ إنها لازمة كثقل للموازنة، ولتقديم بعض الفرص إليك. إن واجهت العاصفة وانكسار السفينة، قائد المائة، وقائد السفينة، الجندى والجلاد، قيصرية ورومية، فاعلم أن كل هذه جزء من الخطة المرسومة، كلها تعمل للخير، كلها تتمم قصد الله، وتؤهلك لما كنت تتمناه لنفسك فى أحسن حالاتك.

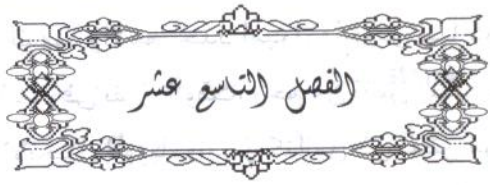

﴿ أكثر منهم جميعا ﴾

﴿ ١ كو ١٥ : ١٠ ﴾

❖ «إن أردت أن أصف خادما كبولس، وكان هو على الأرض، وسمع ووافق، لأرشدنى بولس نفسه.»

﴿ كوپر ﴾

قال أدولف مونود «Adolphe Monod»، البليغ العبارة: «ترك الله لليهود الرسل الاثنى عشر الأوائل، وأعطى الأمم واحدا فقط أعده خصيصا لأجلهم. وقد حمل بولس العالم الوثنى كله على كتفه. إنه احتاج إلى ربع قرن فقط لتجديد الإمبراطورية الرومانية، أقوى إمبراطورية ظهرت على وجه الأرض، التى احتاجت إلى سبعة قرون لتأسيسها. كان يسوع أعظم من ظهر بين البشر، وكان بولس أعظم من ظهر بين الرسل.»

يعتبر تاريخ بولس كرحالة فريدا فى هذه الأيام التى سهلت فيها المواصلات فى كل العالم، وكم يكون فريدا جدا عندما نذكر اللصوص الذين كانت تحفل بهم جبال آسيا الصغرى، السيول الجارفة التى كانت تقطع الطرق، المسافات الشاسعة التى كان يجب قطعها على الأقدام، صعوبة الإقامة بالفنادق فى الطرق، شكوك اليهود فيه دواما، وبغضهم المستمر له.

ولكن، يا له من تاريخ حافل تركه. فى رحلته التبشيرية الأولى، أسس كنائس كحاميات مسيحية على طول الطريق المخترق لآسيا الصغرى، وأثار حمية الغاليين بأرق العواطف، وكرز لليهود والأمم، جدد أميرا، وأخرس نبيا كاذبا. فى أحد الأوقات، قدمت إليه العبادة كإله، وفى نفس الوقت، رُجم من نفس الأشخاص فى ثورة غضبهم. وفى الثانية، نادى بالإنجيل لأوربا، وأسس كنائس فى بعض من أهم وأخطر مدنها: فيلبى، تسالونيكى، بيرية، أثينا، كورنثوس، منيرا فى كل مكان كأنوار خاطفة فى الظلام. وفى الثالثة، كان جبارا عبر بحر اليونان، واضعا إحدى قدميه على آسيا الصغرى، والأخرى على اليونان، حيث كرز إلى الليريكون. وفى الرابعة، بعد أن دافع عن قضيته، أمام ثلاث محاكم مختلفة على الأقل، عبر البحر الأبيض المتوسط، نجى بصلاته وشجاعته البحارة والركاب من السفنية التى حملتها زوبعة عنيفة، ألزم جزيرة البرابرة باحترامه ومحبته، ووصل رومية كأسير شكلا، وفى الواقع، كظافر منتصر، لكى يرفع راية سيده على قصر قيصر.

وبعد إطلاق سراحه ثانية، قام باستئناف رحلاته التى ربما وصلت به إلى إسپانيا، ومن المؤكد أنها وصلت إلى المناظر التى ألفها فى آسيا الصغرى واليونان، وهكذا، يتمم المسير حتى رومية، فيمثُل أمامه ثانية تاج الاستشهاد.

عندما بدأ خدمته، كان العالم يسير إلى حتفه رغم ما استطاعت أن تفعله الفلسفة والآداب والتشريع لإيقاف تيار فساده الأدبى، ولكن عند انتهائها ــ بعد نحو ثلاثين عاما ــ كانت بذار الحياة والخلاص قد زُرعت، بل نمت وترعرعت، حتى استطاعت أن تستأصل بقية العبادة الوثنية بعد ثلاثة أجيال بواسطة المدينة المسيحية.

ويحق لنا أن نتساءل عن سر هذه الخدمة العجيبة (خدمة بولس) التى كان يعزى إليها وقتئذ مركز المسيحية فى العالم بعد خدمة الرب يسوع. وبعد البحث والاستقصاء، نجد أنها لا تعزى إلى مواهبه العلمية وبلاغته الكلامية، لأن هذه وتلك قد حدثت من قوتها ضعفاته الجسدية، وشوكته، وكلامه العامى الذى كان ينظر إليه بازدراء (٢ كو ١١: ٦)، بل تعزى إلى مصادر القوة التى هى فى متناول كل واحد منا مهما بلغ بنا

الضعف، والتى إن طلبها أضعف إنسان جعلته بين صفوف أحكم الحكماء، وأعظم العظماء فى كل الأجيال، وصار أعظم من أساتذة الفكر والبيان واللسان، الذين كانت تفخر بهم اليونان قديما.

﴿١﴾ **يجب أن نضع فى المقدمة** أن الرسول كان يذكر دواما الرحمة التى أظهرت إليه. فى إحدى المناسبات، نراه يقول: «قد رحمنا»، وذلك عندما حاول أن يبين مصادر مثابرته العظيمة وسط المطاعن والمثالب والضربات والميتات اليومية، وكأنه لم ينس قط، كيف أنه سبق أن أغرق فى الخطية، وكيف أنه سبق أن قاوم بشدة تلك النعمة التى كان ينادى بها وقتئذ. كان على الدوام يعود إلى ذلك التفكير الغالى. وكيف يمكن أن ييأس من خلاص أى إنسان إن كان شخص مثله قد وجد رحمة؟ وكيف يكل أو يمل، إن كانت النعمة التى أمسكت به لا تزال منتظرة لتقويه؟ كيف يمكن أن يكافئ قوة الاحتمال وطول الأناة التى صبرت على طبيعته المتمردة؟ واحتملت عصيانه، إلى أن جعلته مثلا أعلى لتأثيرها؟ كانت كقرار ترنيمة عذبة طالما رن فى أذنيه فى أوقات الشدة والآلام والاضطهاد العنيف «نلت رحمة، لذلك لا أفشل ولن أفشل».

كان بولس من بداية حياته حتى نهايتها يسوده هذا الشعور الواحد؛ أنه قد نال الفداء ليخدم، ونال الخلاص ليخلص آخرين. كلما تذكر الخطية التى نال الخلاص منها، والغرض الذى نال الخلاص لأجله، كان ذلك حافزا له على جهوده المضنية. لذلك، يحسن بنا أن نخلى أنفسنا فى بعض الوقت من مشاغل الحياة وتيارها الجارف، لنقف عند الصليب، حيث صلب يسوع، عالمين أن كل نقطة من جراحاته تحثنا على أن ننفق وننفق من أجل القضية التى كلفته هذا الثمن الغالى.

﴿٢﴾ **بجانب هذا مباشرة**، يجب أن نذكر **الغرض العظيم الذى لأجله عاش الرسول**. لقد بذل كل قوته لخلاص البشر، ومن أجل هذا كان مستعدا لكل تضحية. كان كذلك يحرص على بذل أقصى جهده لإنشاء وترتيب جماعات مسيحية قليلة، لأن ذلك كان لازما جدا للاحتفاظ بالحياة التى بدأت أولا، ولإنمائها، ولكن كل هذه الغايات كانت ثانوية بجانب ما أعلنه فى أول رسائله «لا كما نرضى الناس، بل الله الذى يختبر قلوبنا»

(١ تس ٢: ٤). كانت لا تعنيه كثيرا النتائج الظاهرية لجهوده، ولا ما يقوله أو يفعله الناس، طالما كانت له الشهادة فى أعماق قلبه أنه قد أرضى الله.

ويتجلى الباعث المحرك له تحت نور آخر، عندما يظهر أشواقه الملتهبة فى الرسالة الثانية «لكى يتمجد اسم ربنا يسوع المسيح» (٢ تس ١: ١٢). نحن لا يمكن أن ننسى أن شهوة قلب المسيح أثناء خدمته على الأرض كانت أن يمجد أباه، وكانت هنالك شهوة مماثلة فى قلب بولس أن يمجد الابن. كانت هذه الغاية تزداد قوة إلى نهاية خدمته، كان انتظاره ورجاؤه على الدوام أن لا يخزى فى أى شىء، وكما فى كل حين، الآن يتعظم المسيح فى جسده، سواء بحياة أم بموت (فى ١: ٢٠).

ليت هذه تكون غايتنا الوحيدة نحن أيضا، إذن لجعلت حياتنا فى بساطتها الكاملة. نحن نميل أن نقيم أنفسنا لإتمام بعض المقاصد التى، وإن كانت صالحة فى حد ذاتها، إلا أنها ليست هى الأصلح. وعندما لا ننجح فيها، عندما لا تأتى النهضة الروحية، أو عندما لا تربح نفوس الكثيرين، أو عندما لا تصغى إلينا الكنيسة، فإننا نميل لكتابة كلمات قاسية ضد أنفسنا وضد الله، بينما لو طلبنا بكل بساطة مسرة سيدنا ومجده، تبيّنا أننا قد نجحنا وسط الفشل الظاهر، وصرنا أعظم من منتصرين، إذ نهرب لحياتنا.

سعيد هو الشخص الذى يستطيع أن يستشهد بالنتائج الواضحة، وبزملائه، وبأقرب أصدقائه، بل بقلبه، ويقول: «وأما أنا، فأقل شىء عندى أن يُحكم فىّ منكم أو من يوم بشر، بل لست أحكم فى نفسى أيضا، فإنى لست أشعر بشىء فى ذاتى، لكنى لست بذلك مبرَّرا، ولكن الذى يحكم فىّ هو الرب. إذن، لا تحكموا فى شىء قبل الوقت، حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام، ويظهر آراء القلوب، وحينئذ، يكون المدح لكل واحد من الله (١ كو ٤: ٣ - ٥).

كل منا اؤتمن على وكالة، على ثروة، أو وقت، أو نفوذ، أو مواهب فى التفكير أو الكلام؛ وكل منا يستطيع أن يقول مع بولس: «قد استؤمنت على وكالة» (١ كو ٩: ١٧). والمطلوب من كل وكيل، لا أن يحقق كل ما يجيش بصدره من أحلام، بل أن يكون أمينا لمن أقامه، لا تحكموا على حياتكم بالنتائج، بل بالبواعث، وبمقدار رضى من أقامكم.

﴿٣﴾ وقد ساعد على نجاحه أيضا خطة حياته: إنه فى الواقع لم تكن له خطة على الإطلاق، فإنه كان يعتقد أن الطريق سبق أن أعد له بمشورة الله قبل تأسيس العالم، ولم يكن عليه إلا أن يتبين آثاره. سبق أن أعد مشروع هيكل حياته بواسطة المهندس الأعظم، ولم يكن عليه إلا أن يتسلمه بالاتصال به على الجبل. لم يكن فى حاجة إلى أن يعمل شيئا من تلقاء نفسه إلا ما رآه أن الله يفعله فى العالم غير المنظور، الأبدى.

هذا ما جعل الرسول فى غاية الحذر عند الإشارة إلى برنامجه فى المستقبل. كان يجب أن يحفظ نفسه فى إرادة الله مهما حدث من أحداث. لم يكن من عادته أن يعزم بحسب الجسد كى يكون عنده نعم نعم، ولا لا، حسب التفكير البشرى. كان على الدوام معتمدا على الروح القدس للإرشاد، ولإعلان المقاصد الإلهية، لكى يستطيع، من بعض الظروف الطفيفة الواضحة، أن يتبين حركات عمود السحاب نهارا، وعمود النار ليلا، ولم يكن يسمح بأن تمر فترة بين إعلان المقاصد الإلهية وسعيه لإتمامها (أع ١٦: ٦ و٧).

عندما برزت فى القرن الحالى فكرة تكملة تلك البناية القوطية المثالية (كاتدرائية كولونيا)، لم يكن ضروريا إعداد رسومات جديدة تتركز فيها نتائج فن العمارة فى كل العصور الماضية، ليخرج البناء فى شكل هندسى جديد، وإنما كان على المهندس الذى أوكلت إليه عملية تكملة البناء أن يفتش على الرسومات القديمة التى سبق أن وضعها الأستاذ چيرار فى القرن الثالث عشر، ويدرسها وينفذها. هكذا ينبغى على كل خادم مسيحى أن لا ينسى قط الوصية التى أعطيت لموسى أربع مرات أن يصنع كل شىء حسب المثال الذى أُظْهِرَ له على الجبل. لقد وضع قبل تأسيس العالم مثال جسد المسيح، ومركز كل مؤمن بين أعضائه، والعمل الذى ينبغى أن يتممه كل عضو. يجب أن تكون صلاة كل خادم مسيحى هكذا: ماذا تقصده لى يا الله من خَلْقى وفدائى وترتيب حياتى؟ «علمتنى أن أعمل رضاك (مشيئتك) لأنك أنت إلهى. روحك الصالح يهدينى فى أرض مستوية» (مز ١٤٣: ١٠).

﴿٤﴾ **ولكن، لعل سر نجاح بولس يعزى أكثر من كل شيء إلى قدرته على أن يستمد من ضعفه قوة.** كانت له مواهب ممتازة جدا فى الصفات وفى النشاط، فى القدرة على الإشراف والقيادة والإرادة، فى التفكير والكلام، ولكن، لو لم يكن ضعفه، ربما لم يصر قط رسول الأمم العظيم، أو ربما لم يتمم مثل هذه الأعمال الجليلة. ربما كان قد اتكل فى أعماق قلبه على الثقة فى ذاته، واعتمد على مواهبه الخارقة العادة، بدلا من الاعتماد على قوة الله، كما اضطر أن يفعل، ونتيجة لذلك، تمت خدماته الرائعة، لا بشخصه، بل بقوة الله الذى عمل فى الهيكل الضعيف لجسده المائت.

ويتضح من كلمات ثالبيه، التى يبدو أنه صادق عليها، أن حضوره بالجسد كان ضعيفا، وكلامه حقيرا (٢ كو ١٠: ١٠)؛ وتشير العبارة الأولى إلى شوكة جسده السابق التحدث عنها، والثانية إلى عدم مقدرته فى الفصاحة التى تعود اليونانيون أن يتوقعوها من معلميهم. كان فى ذلك إذلال للجسد، ولكنه أخلاه مما فيه من كبرياء بشرى، وتركه ـ كما تركت عزلة السنين الأربعين موسى ـ إناء مستعدا لخدمة سيده، لأنه اعتمد اعتمادا كليا على يد سيده للإرشاد والقوة.

كان فى فجر حياته أحد تلاميذ غمالائيل النابهين، قويا، يعتمد عليه، متوقدا، صافى الذهن، حازما فى الكلام، سريع الحركة. لم يبز شاول الطرسوسى من بين أقرانه سوى القلائل جدا، فإنه على غير العادة، أصبح عضوا فى مجلس السنهدريم فى سن متقدمة. أتريد أن تعرفه فى ضعف هذا الإنسان المحطم، وخوفه، ورعدته الكثيرة؟ وإن فعلت هذا، أتأسف لأنه قاوم المسيح فى قوته، ولم يخدمه إلا بضعفه؟ ولكن لا مبرر قطعا لهذا الأسف، فإنه لو كان بولس قويا، لما أمكن إلا أن يكون بولس، أو يوحنا ذهبى الفم، أو أوغسطينوس، ولما صار بولس. لقد كان قويا، لأنه كان ضعيفا، ولقد حل الكثيرين من قيودهم، لأنه مقيدٌ، ولقد أغنى الكثيرين، لأنه كان فقيرا.

بعد هذا، يجب أن لا يتذمر أى إنسان. إن الأمر الوحيد الذى يجب التأكد منه، هو: هل دعينا من الله لإتمام عمل معين لأجله؟ بعد ذلك؛ إن وجدنا أنه من المستحيل إتمامه، بسبب بعض الصعوبات والموانع، فلنفتخر بها، ولنجد فيها أساسا للاعتقاد، بأنه

قد صار اختيارنا لهذا العمل، الذى تحاول تلك الصعوبات أن تقف سدا منيعا بيننا وبينه؛ وبعبارة أخرى، لنتمم بالإيمان العمل الذى يتممه الآخرون بقوتهم البشرية.

﴿٥﴾ **هنالك سبب آخر لنجاح الرسول فى عمله، هو إنكاره لذاته.** لقد كانت له آراء حرة عن الحق والحياة، وكان من الممكن أن يبيح لنفسه أمورا كثيرة، حرص على الابتعاد عنها، لئلا تتعطل خدمته. فى (١ كو ٨: ١٣)، يخبرنا بأنه إن كان طعام يعثر أخاه، فلن يأكل لحما مادامت الدنيا قائمة. وفى (١ كو ٨)، يضح بأنه إن كان من جهة ضميره يستطيع أن يأكل فى هيكل وثن دون دينونة، فلن يتجاسر بأن يفعل هكذا، لئلا يضع عثرة فى سبيل الأخ الضعيف. وفى (١ كو ٩)، يبين تصميمه على تضحية راحة وبهجة وجود زوجة وأولاد له، رغم أنه كان فى أشد الحاجة لمعونة الزوجة بسبب طبيعته الرقيقة جدا، كما يبين استعداده للتخلى عن المساعدات التى قد يقدمها إليه تلاميذه اختيارا، رغم أنه كان له الحق فى قبولها، كما كان للكاهن الحق فى مشاركة ذبائح الهيكل.

وفى ختام هذا الإصحاح، يوضح كيف أنه قمع جسده وأذله، لئلا يعجز عن بذل أقصى جهد ممكن لخير النفوس، ولئلا يعطى مجالا للرب لاستبداله بآلة أخرى، أكثر استعدادا لخدمته. وفى (٢ كو ٦: ٣)، يتحدث عن عدم جعل عثرة فى شىء، لئلا تلام الخدمة.

هنا أيضا، يجب أن نقتفى آثار هذا الخادم العظيم. على كل خُدام المسيح الذين يغارون على مجىء ملكوت الله، أن يضحوا فى الحال، بالملذات والأمور التى ليست فى حد ذاتها غير شرعية، لئلا تلام الخدمة، أو تتعثر النفوس. يجب أن يكون الحكم لنا فى أى عمل نشك فى جوازه من عدمه، هو مقدار تأثيره على الآخرين. كلما ازداد نفوذنا على الآخرين، وجب أن يزداد حرصنا على مراعاة تأثيرنا عليهم؛ إذا ما سلكنا بعض السبل، أو تصرفنا بعض التصرفات التى لنا كل الحرية فى اختيارها.

﴿٦﴾ **وفى هذه المناسبة، يجب أن لا ننسى وفرة دموعه.** قال مرة لقسوس أفسس «متذكرين أنى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد»

(أع ٢٠: ٣١)، لكل كلمة هنا أهميتها. لم يكتف بتعليمهم نهارا، بل وجد أنه من الضرورى صرف الليالى أيضا، رغم شدة حاجته لإراحة جسده ليلا من تعب بالجهود المتواصلة، والتعليم المستمر نهارا، ولم تكن فترة كد وعناء تعقبها فترة راحة واسترخاء، فإنه لم يكف عن خدمتهم ثلاث سنوات متواصلة، بل واصلها دون توقف أو استراحة، ثم إن هذه الخدمة لم يتممها من باب تأدية الواجب، أو الغيرة الجسدية، بل بدموع النفس الراغبة، المتأججة بنار المحبة.

قال أحد الكتاب: «لا تتذمر من لجاجته. اعلم أيها المتذمر أنه إنما أزعجك مرة واحدة، أما هو، فقد ضحى براحته كل ليلة، إن لم يكن من أجلك، فمن أجل الآخرين. بل الأكثر من ذلك، أنك مهما كنت، فهو لن يتركك حتى يحصل على كل شىء، وأى شىء؟ هل يطمع فى خدمة منك، أو فى معروف تسديه إليه؟ إن أجل خدمة وأعظم معروف تصنعها أن تقبل الرب يسوع المسيح مخلصا، أو تخدمه بأمانة أوفر. قد ترفضه، أو تطرده رغم توسلاته، ولكن انظر إليه قبل أن تتركه، هو ذا يبكى، إنه يبكى على خطاياك التى أنت باق فيها، وعلى الضرر الذى أحدثه مثالك السىء للكنيسة، على العثرات التى وضعتها أمام العالم، وأكثر من كل شىء، على المستقبل الذى تعده لنفسك. ماذا تقول لهذا الرسول الذى بدموع أمامك، ولا أقول المنبطح عند قدميك؟ إن الله الذى يعبده لخص، فى عبارة واحدة، كل ما يجب أن يكون عليه رسول وقال: «هو ذا يصلى»، وأنت بدورك الذى يتوسل إليك، يصح أن تلخص كل ما يفعله لأجلك فى عبارة واحدة قائلا: «هو ذا يبكى».

لماذا يبدو كأن هذا الينبوع من الدموع بعيد عنا؟ نعرف أن نبكى بدموع غزيرة على كل شىء ما عدا تلك الخسارة اللانهائية، خسارة أولئك الذين رفضوا الإنجيل، من أجل هذه الخسارة لا تنسكب دمعة واحدة مع الأسف الشديد. لقد ضُربنا بجفاف مروع، وأصبحت قلوبنا برية جرداء. ينابيع مياهنا تجمدت بسبب البرودة القاسية، أو جفت بسبب الحرارة اللافحة. إننا بخسارة قوة الدموع، قد خسرنا القوة العظيمة التى تسببها... فبالقلوب المنسحقة، تنسحق القلوب، وبالعيون الدامعة، تدمع العيون بدموع التوبة.

﴿٧﴾ وأخيرا، يجب أن لا ننسى اهتمام الرسول الشخصى بأولاده الروحيين... «ليلا ونهارا أنذر بدموع كل واحد». هذه العبارة أحد الأدلة على هذه الحقيقة، وإليك دليل آخر ما ورد فى (كو ١: ٢٨): «الذى ننادى به منذرين كل إنسان ومعلمين كل إنسان بكل حكمة لكى نحضر كل إنسان كاملا فى المسيح يسوع». انظر كيف يحرص على هاتين الكلمتين: «كل إنسان». كان يبذل الجهود الجبارة من أجل النفس الواحدة. كان كسيده، يترك طريقه لإخراج الروح النجس من شخص واحد، أو لإقناع أغريباس ليصير مسيحيا. كانت للنفس الواحدة، التى مات المسيح لأجلها، قيمة لا تقدر فى نظره.

﴿٨﴾ ولكن، وراء كل هذه تستتر تلك الفكرة الرئيسية. أنه لم يكن هو العامل، بل نعمة الله التى فيه، وقوة الله التى عملت فيه. لم يكن نشاطه يعزى لقوته الشخصية، بل لقوة شخص أعظم، يعمل فيه باقتدار. ولم يكن هو العامل، بل المسيح عمل فيه. كل ما لم يعمله المسيح فيه، كان خشبا وعشبا وقشا، مما لم يجسر أن يحسب له حسابا. إنه لم يخدم المسيح كأجير مسخر، بل قدم ذاته إليه بدون تحفظ، لكى يخترق المسيح كيانه، ويشع بنوره من هذه الألواح الزجاجية المطهرة لينير قلوب البشر. كان كل اهتمامه أن يطهر نفسه، لكى يكون مستعدا لخدمة السيد كل حين، كانت رغبته الوحيدة أن يسلم نفسه، وأن تستخدم أعضاؤه كأسلحة فى الحرب الشعواء ضد قوات جهنم.

هذا هو الدرس الأول والأخير للخادم المسيحى. لتكن حياتك نقية، وقلبك طاهرا، ومشاعرك بسيطة. احرص على أن لا يكون هناك أى تصادم بين إرادتك وإرادة المسيح. كن مرتبا، متأهبا، مستعدا. سلم لله نشاطك، وسلم له أيضا خمولك الطبيعى. قف صامتا، حتى يحركك الله. انتظر حتى يعمل فيك، وأن تعمل من أجل مسرته. آمن بأن الله يستطيع أن يأتى على يديك بأعظم النتائج التى فى وسع طبيعتك. لا تفكر فيما تستطيع أن تعمله من أجل الله، بل فيما يستطيع أن يفعله الله بواسطتك. لا شىء كهذه الحقائق يبعث فيك النشاط المتواصل.

عندئذ، تتلاشى كل آثار الجبن والكبرياء. الجبن، لأنك تجد نفسك مدفوعا بقوة لن تقاوم، والكبرياء، لأنك لا تجد فرصة للافتخار، ولا تجد ما تفخر به سوى ما فعله المسيح بواسطتك. «هل تفتخر الفأس على القاطع بها أو يتكبر المنشار على مردده» (إش ١٠: ١٥).

هذه الكلمات تنطبق على كل واحد منا، على من حباهم بركة الآلام، وعهد إليهم العناية بالأطفال الصغار، والاهتمام بالأعمال اليومية العادية، بهذه نحن نخدم ذاك الذى يحكم، لا بنوع خدمتنا، بل بروحها، لا بطولها، بل بعمقها، لا بالنتائج، بل بالروح الباعث والمحرك.

وفى كل هذه، لنثق من معاونة الروح القدس. فى أى وقت نقف لنتكلم يشهد روح الله لكلماتنا. وبذلك، نتقدم من القلوب التى قد أعدها، وفى أى مكان نحمل الشهادة، سواء بالكلام أم القدوة، فإن النتائج التى تحصل، تشهد لوجود قوة أعظم منا. وفى أى وقت نتقدم إلى نفس جديدة، أو بيت جديد، أو أرض جديدة، فإن الناس يحسبون أن الإنجيل قد أتى إليهم بالكلام فقط، بل بالقوة أيضا، وبالروح القدس، وبيقين شديد (١ تس ١: ٥). فلنعش، ولنشهد، ولنخدم، لكى نكون عاملين لا نخزى (٢ تى ٢: ١٥) كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة (١ بط ٤: ١٠) عاملين مع الله، سفراء، يسعى بهم الله نفسه للبشر، ليتصالحوا معه.

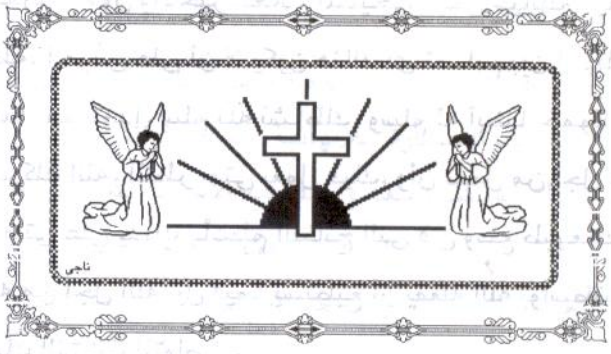

الفصل العشرون

« محصور من الاثنين »

« فى ١ : ٢٣ »

❖ «إلى الأرض المجهولة ألبى دعوتك مع أب الآباء الذى ملأت قلبه بهجة...

❖ «إنى أؤمن، عالما بك بمن آمنت، فالحياة والموت عندى متساويان، وكل غايتى أن أعيش لك.»

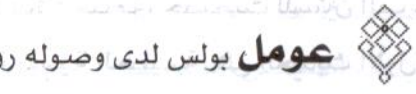

« ينج »

عومل بولس لدى وصوله رومية، بكل رفق، وذلك بترتيب العناية الإلهية، وربما بتوسط قائد المائة، الذى كان يحمل له كل إعجاب واحترام خلال الشهور التى سافروا فيها معا، والذى كان فى الواقع مدينا له بحياته؛ سمح له أن يستأجر منزلا، أو شقة، بجوار الثكنات العسكرية، ويعيش وحيدا. وكانت العلامة الوحيدة على أنه أسير تلك السلسلة التى ربط بها معصمه، وأمسك بها جند الرومان، وكان كل عسكرى يستلم نوبته كل أربع أو ست ساعات.

كانت هنالك امتيازات كثيرة فى هذا الترتيب، فإنه جعله فى مأمن من بغض شعبه له، وحقدهم عليه، ومهد له فرصة ذهبية لبذر بذار

الإنجيل فى تلك العاصمة التى تدفقت منها الجماهير إلى كل العالم المعروف، وفى نفس الوقت، لابد أن هذا الترتيب كان مملا؛ فقد كان عليه أن يكون على الدوام رفيقا لشخص أممى ينفر من العادات اليهودية، ولا يلين قلبه أمام الغيرة المسيحية. كان لا يتحرك حركة دون صليل السلاسل، وبغير رضا الحارس. كان يقود اجتماعاته، ويرفع صلواته، ويملى رسائله تحت أبصار تلك الأعين القاسية، أو وسط التهجمات والتجديفات المرة. لابد أن هذه كلها كانت أليمة لنفس رقيقة حساسة، كنفس الرسول. ولابد أن هذا كان تدريبا أليما طويلا، علمه أن يتقبل حتى هذا من أجل الإنجيل. على أن هذا أيضا استطاع أن يفعله فى المسيح الذى قواه، وقد آل أيضا إلى تقدم القضية التى أحبها؛ فإن الكثيرين من هؤلاء القوم الشرسين أصبحوا تلاميذ وديعين غيورين. استمع إليه وهو يخبر أهل فيلبى بكل غبطة وفرح أن وُثُقَه صارت ظاهرة فى المسيح فى كل دار الولاية وبين كل الحرس الإمبراطورى (فى ١ : ٣). ونحن نعلم أن هذه كانت بداية نهضة عظيمة، كان معيّنا أن تمتد بين الجيش برمته فى مدى ثلاثة أجيال، وتلزم قسطنطين باتخاذ المسيحية ديانة للدولة. كانت هذه نتيجة مباركة لتلك الحقبة المليئة بالآلام، التى طالما دفعت الرسول ليصرخ قائلا: «اذكروا وثقى».

وبعد ثلاثة أيام من وصول بولس إلى رومية، استدعى إلى محل إقامته المؤقت، قادة المجامع اليهودية، التى يقال أنها كانت سبعة، خصصت للستين ألف يهودى الذين كانوا موضوع سخط وسخرية مدينة رومية العظيمة. فى الحديث الأول، اكتفوا بأن يقفوا موقف الحياد، وأظهروا رغبتهم ليسمعوا ويحكموا بأنفسهم من جهة هذا المذهب الذى يعلمون أنه يقاوم فى كل مكان. وفى الحديث الثانى بعد الإصغاء إلى حجج بولس وتفسيره يوما كاملا، حدث انقسام فى الرأى حسب العادة «فاقتنع بعضهم بما قيل وبعضهم لم يؤمنوا». وهكذا، إذ قدم شهادته أولا لشعبه كعادته التى لم تتغير، لم يكن هنالك مانع من التحدث فى دائرة أوسع؛ فوجهت رسالة الخلاص إلى الأمم «وهم [لا شك] سيسمعون» (أع ٢٨ : ٢٨). لذلك، لا نعجب مما قيل أنه خلال السنتين التاليتين اللتين كان متهموه يستعدون فيهما لتحضير دعواهم، أو اللتين كان الإمبراطور يسمح فيهما بأن تتدخل الملذات المخزية فى تصريف الشئون العامة، «كان (الرسول) يقبل

جميع الذين يدخلون إليه كارزا بملكوت الله، ومعلما بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع».

ويصح أن يقال عن الرسول، كما قيل عن ربه، أنهم أتوا إليه من كل ناحية، فتيموثاوس ابنه فى الإيمان، ومرقس الذى أصبح الآن نافعا، ولوقا بخبرته الطبية ورقته، ارسترخس الذى شاركه سجنه لتكون له الفرصة لخدمة حاجاته، وتيخيكس من أفسس «الأخ الحبيب والخادم الأمين للرب»، وابفراس من كولوسى «العبد الحبيب الذى هو خادم أمين للمسيح» بالنيابة عن كنيستها، وأبفرودتس من فيلبى الذى أتى بالتقدمات الاختيارية من الدائرة المحبوبة التى لم تنس قط صديقها ومعلمها مدة سنوات طويلة، وديماس الذى لم يكن بعد قد زحزحه العالم الحاضر عن العالم الأبدى غير المنظور ـ هؤلاء وغيرهم، قال عنهم فى ختام رسائله أنهم كانوا معه. كان يرحب دواما بأعضاء كنيسة رومية الذين لابد كانوا يتدفقون على مسكنه المتواضع كالسيل الجارف، ابينتوس ومريم، وأندروكس ويونياس، ترفينا وتريفوسا، برسيس المحبوبة، وابلس المزكى فى المسيح، هؤلاء لابد أنهم كانوا يترددون بصفة دائمة على ذلك المنزل الذى كانت تشع منه دواما أنوار حضرة المسيح. لقد خرجوا إلى فورن أبيوس والثلاثة الحوانيت لاستقباله لدى وصوله إليهما أولا، ولم ينسوه إذ حل بينهم.

ويا لأهمية الحوادث التى حدثت فى هاتين السنتين، مرض ابفرودتس حتى الموت، العثور على أنسيمس العبد الهارب وتجديده، كتابة وإرسال الرسائل التى تحمل طابع سجنه. لا شك فى أن هاتين السنتين كانتا أهم وأكثر إنتاجا، ولقد مرتا أسرع من السنتين اللتين قضاهما فى السجن فى قيصرية.

ويكاد يكون مؤكدا أن بولس برّىء فى محاكمته الأولى، وأخلى سبيله، وسُمح له باستئناف خدمته المحبوبة مدة سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل. وواضح أنه كان يتوقع هذا، فعندما كتب لأهل فيلبى، قال: «وأثق بالرب أنى أنا أيضا سآتى إليكم سريعا» (فى ٢: ٢٤). وأيضا، فى رسالته إلى فيلمون، يذهب إلى أبعد من هذا، ويطلب إعداد منزل له، لأنه يرجو أن يوهب لهم بصلواتهم. تقول كل التقاليد أنه توسطت بين

سجنيه فترة من الحرية، وإلا، فمن المستحيل تعليل الإشارة إلى الحوادث الكثيرة فى رسائل تيموثاوس وتيطس، التى لا يمكن أن تشير، حسب رأينا، إلى الفترة الواقعة فى حدود سفر الأعمال.

لم يذكر التاريخ إن كان إخلاء سبيله يعزى إلى مساعى قائد المائة أو إلى التقارير الأكثر وضوحا التى وصلت من قيصرية. وعلى أى حال، فقد صدر أمر عال ممن هو أعلى، من نيرون، بفك السلاسل من معصم الرسول، وترك الحرية له ليذهب أينما أراد. أن يبقى فى الجسد، كان فى نظر رأس الكنيسة الأعظم، ألزم لأجل تقدم الإيمان بين الجماعات القليلة التى كانت تتطلع إليه كأب، وكان لابد أن يزداد فرحهم فى المسيح بعودته إليهم.

وإذ تحرر بولس مرة أخرى، فكان لابد له من إتمام قصده لزيارة فليمون وكنيسة كولوسى، بعد ذلك يتجه إلى كنيسة أفسس لتكملة حديثه معهم عن تلك الأسرار المقدسة التى كان قد بدأ يكشف عنها فى رسالته؛ ولعله أثناء إقامته هناك، قد خدمه أنسيفورس خدمة رقيقة، استحقت أن يشير إليها فى الرسالة الأخيرة (٢ تى ١: ١٦-١٨). وإذ ترك تيموثاوس خلفه بعد أن أوصاه لكى يوصى قوما أن لا يعلموا تعليما آخر غير الذى سمعوه من فمه (١ تى ٣)، سافر إلى مكدونية وفيلبى، وهناك لابد أن يكون قد قوبل بترحاب عظيم؛ فقد كانوا إخوته، أحباءه المشتاق إليهم، سروره وإكليله الذين حفظهم فى قلبه، وكانوا شركاء فى المحاماة عن الإنجيل وتثبيته. ولابد أن يكون قد التف حوله لخدمة جسده الضعيف الذى حمل روحه النشيطة ليديا وأكلمندس، أفودية وسنتيجى، أبفرودتس والسجان، وكثيرون غيرهم من الزملاء فى الخدمة، الذين كتبت أسماؤهم فى سفر الحياة.

ومن فيلبى، لابد أن يكون قد اتجه إلى كنائس أخرى فى اليونان، سيما كورنثوس. وأخيرا، أقلع مع تيطس إلى كريت، حيث تركه لكى يكمل ترتيب الأمور الناقصة، ويقيم فى كل مدينة قسوسا (تى ١: ٥). ولدى رجوعه إلى اليابسة، كتب رسالة إلى تيطس، نستنتج من فقراتها الختامية أنه كان معتزما أن يشتى فى نيكوبوليس، مصحوبا

بالكثيرين من الأصدقاء، مثل أرتيماس، وزيناس، وتيخيكس، وأبلوس، الذين ألهبهم بروحه، والذين ساعدوه بسرور فى تنظيم هذه الكنائس الحديثة وتطهير التعليم فيها. إذا كانت كل منها قد جازت بعض الصعوبات من ناحية التعليم، كما يبدو من رسالتى كورنثوس (١ كو ٣: ١٢و١٣).

على أن فترة الحرية المباركة هذه، انتهت عاجلا. لقد حدثت إحدى الحوادث المروعة فى تاريخ العالم القديم ـ أى حرق رومية ـ عام ٦٤م، ولكى يبرئ نيرون نفسه من تهمة إشعالها، ألصقها بالمسيحيين. وللحال، شبت نيران الاضطهاد الأول العام، فألقى القبض على المقيمين فى العاصمة، والذين كانوا بلا شك أصدقاء الرسول الحميمين، ومثل بهم تمثيلا وحشيا، ثم حدث بحث دقيق عن قادتهم فى كل الإمبراطورية، وكان اليهود المُضطَهِدين. لم يكن معقولا أن يفلت قائد عظيم كبولس، فإن العاصفة التى تكتسح الغابة، تعصف أولا، وبأشد عنف، على أضخم الأشجار.

كان مقيما مؤقتا فى ترواس، فى بيت كاربس، التى كان قد قدم إليها من نيكوبوليس. وكان إلقاء القبض عليه مباغتا، حتى أنه لم يتوفر لديه الوقت لجمع كتبه الثمينة، ورقوقه التى ربما كانت تتضمن صورا من رسائله، وكتابا مقدسا بالعبرانية، ونسخا قديمة من أقوال الرب يسوع، ولم يتوفر لديه الوقت حتى ليلتف بالعباءة التى كانت تلازمه فى كثير من عواصف الشتاء، لذلك، حُمِل إلى رومية على جناح السرعة.

رافقته جماعة قليلة من الأصدقاء فى هذه الرحلة الأخيرة الأليمة، لأن أمانتهم له دفعتهم إلى ملازمته إلى النهاية، مثل ديماس، وكريسكيس، تيطس وتيخيكس، لوقا وأراستس. لكن أراستس لبث فى كورنثوس، التى لابد أن تكون قد مرت عن طريقها تلك الجماعة، وتروفيمس مرض فى ميليتس، وكان لابد من تركه فيها، لأن الجند الرومانيين لم يحتملوا أى إبطاء، وهكذا وصل بولس رومية للمرة الثانية.

على أن ظروف سجنه الثانى، كانت تختلف كل الاختلاف عن ظروف سجنه الأول. فى الأول، سمح له باستئجار بيت، وفى الثانى، أودع سجنا محكما. ويذكر التقليد أن سجن مامرتين هو الذى شهد أسابيعه أو شهوره الأخيرة. فى الأول، كان من الميسور

الاتصال به، وفى الثانى، بذل انيسيفورس أقصى الجهد فى طلبه، وكانت شجاعة عظيمة منه أن لا يخجل بسلسلته. فى الأول، التفت حوله دائرة متسعة من الأصدقاء والمشفقين، وفى الثانى، غربلهم رفش الضيق، وأرسل البعض فى إرساليات بعيدة. «لوقا وحده معى»، هذا تعبير أليم، انبعث من قلب ذلك الشيخ مشعرا بوحشته. فى الأول، قد جاز بنجاح، الخطوة الأولى من المحاكمة، التى ربما كانت تتعلق بتهمة الاشتراك فى حرق رومية، وأنقذ من فم الأسد، إلا أنه لم يكن لديه أمل فى أن يجوز الخطوة الثانية، التى كانت تتضمن التهمة العامة نحو إدخال عوائد جديدة لا تتفق مع توطيد أركان الحكومة الإمبراطورية. كان غموض هذه التهمة سببا فى صعوبة الدفاع عنها، وكان محتما أن يمسك فى حبائلها.

كان وقتئذ يسكب سكيبا، وحضر وقت انحلال السفينة للإقلاع، ولكن ذلك لم يسبب له حزنا. فى الأيام السالفة، كان يتمنى أن يلبس جسده الذى من السماء، ويختطف ليكون مع الرب إلى الأبد. أما الآن، فلم يكن معقولا أن تكون هذه هى طريقة انتقاله إلى تلك الراحة التى تحدث عنها بطريقة تثير الشجون. كان لابد أن يجتاز إلى حضرة الرب، لا عن طريق الهواء المنير، بل عن طريق الموت، والقبر المظلم. وعلى أى حال، فإنه لم تهمه كثيرا طريقة ذهابه إلى وطنه، إذ كان يكفيه لدى مراجعة ماضى حياته، أن يقول شاكرا متواضعا، صادقا: «جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعى، حفظت الإيمان، وأخيرا، قد وضع لى إكليل البر».

يلذ لنا جدا، أن نلاحظ كيف يفخر بالعدد العظيم من مستمعى الأمم، الذين أتيح له أن ينادى إليهم بالإنجيل، بكل حرية، فى المرحلة الأولى من محاكمته. ويلذ لنا كذلك، أن نستمع إليه، وهو يؤكد أن سهولة ونجاح شهادته، لم يعزيا لنفسه، بل لشعوره باقتراب الرب منه، إذ وقف بجانبه وقواه.

وماذا كانت الإجراءات التالية لتلك المحاكمة؟ كم من الوقت مضى وقضيته معلقة؟ هل وصل تيموثاوس فى الوقت المناسب ليراه ويقف بجانبه فى اللحظة الأخيرة الرهيبة؟ وماذا كانت طريقة استشهاده تماما؟ لا توجد إجابة لهذه الأسئلة. ولكن التاريخ

يحدد مكانا يبعد عن رومية بثلاثة أميال، واقع على طريق أوستيان، هنالك قطعت رأسه، وتركت روحه هيكل جسده الضعيف، ودخلت البناء الذى فى السموات، غير المصنوع بيد، الأبدى.

ولكن، يا له من فرق شاسع بين هذا المنظر، الذى لم يثر اهتماما سوى لجماعة قليلة من الأصدقاء، وبين ذلك المنظر الآخر، الذى حفل بخدمة مجيدة، لدى قدوم تلك الروح النبيلة إلى حضرة الرب. وإن كان المسيح قد قام لاستقبال استفانوس، ألم يقم أيضا للترحيب ببولس؟ لقد رأى مرة أخرى، ذلك الوجه الذى سبق أن تطلع إليه من السماء المفتوحة عند تجديده، وسمع الصوت الذى ناداه باسمه. لقد تحققت أمنيته التى طالما اشتهاها ليكون «مع المسيح»، ووجد أن «ذاك أفضل جدا» مما كان يخطر بباله.

كان نصيبه ميراث القديسين فى النور الذى كان الروح القدس عربونه. لقد وصل إلى الغرض، ونال جعالة دعوة الله العليا فى المسيح. لقد وجد فى المسيح، وليس له بره، بل البر الذى من الله بالإيمان. لم يكن هو نفسه مرفوضا. وكما حفظ وديعة المسيح، هكذا حفظ المسيح وديعته. وعندما أعطى حساب وكالته، من ذا الذى يشك فى أن الرب حياه قائلا: «نعما أيها العبد الصالح والأمين. ادخل إلى فرح سيدك».

يا له من ترحيب مفرح، ذلك الذى لقيه من الألوف الذين حوّلهم من الظلمة إلى النور، ومن سلطان الشيطان إلى الله، والذين أصبحوا له الآن إكليل افتخاره فى حضرة الرب. هؤلاء من أعالى غلاطية، وأولئك من شواطئ آسيا الصغرى. هؤلاء من تعصب اليهودية، وأولئك من رجاسة الأمم. هؤلاء من العبيد المحترفين، وأولئك من السادة الأشراف الموقرين، المتعلمين. على أن هذا الترحيب لم يكفِ بعد، بل هنالك الكثيرون فى كل الأجيال المتعاقبة، ممن دخلوا المدينة المقدسة، المعترفون بالشكر العظيم لهذا الشخص، الذى استطاع أن يوضح طريق تبرير الخطاة وخلاصهم، أكثر من غيره.

نحن لا نستطيع أن نصف مقدار النصيب الذى يناله المفديون، الذين هم الآن وراء الحجاب، من تعجيل مجىء المسيح الثانى. ولكن، يقينا، أنه بين الكثيرين الذين ينتظرون تلك الساعة التى يُحضر فيها العريس الكنيسة لنفسه، لا دنس فيها، ولا غضن، أو شىء من مثل ذلك. لا يوجد شخص أكثر انتظارا لها من ذاك الذى كان ينتظر بصفة دائمة الرجاء المبارك وظهور المخلص المُمَجَّد، والذى جاهد كثيرا لإعداد الكنيسة لربها. وبين حجارة أساسات أورشليم الجديدة، التى كتب عليها أسماء رسل الخروف الاثنى عشر، سيوجد يقينا أخيرا، اسم شاول، الذى دُعِى بولس، الذى كان قبلا، مجدِّفا ومضطَهِدًا ومتلفا، ولكنه رُحِمَ وَحُسِبَ أمينا.

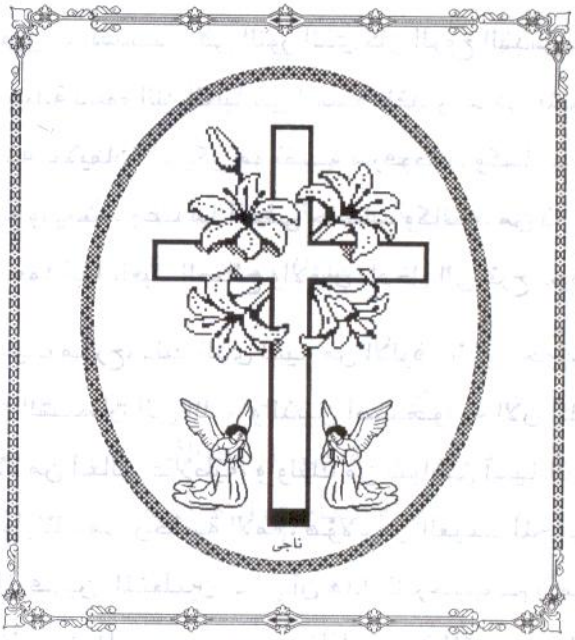

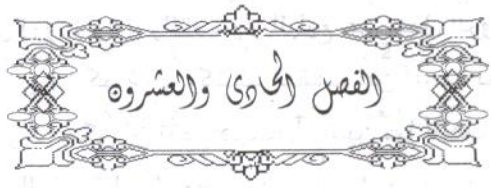

﴿ ما أكبر الأحرف ﴾

﴿ غل ٦ : ١١ ﴾

❖ «كان لكل كلماته التى نطق بها طابع الله عليها.»

﴿ كوبر ﴾

المرجح جدا أن الرسول، فى ختام رسالة غلاطية، أخذ القلم من كاتبه وكتب بعض كلمات أزيد من تحيته العادية الوجيزة. كان يقنع عادة بكتابة كلمات كتلك التى اختتم بها رسالة كولوسى: «السلام بيدى أنا بولس. اذكروا وُثُقى. النعمة معكم». أما فى الرسالة إلى أهل غلاطية، الذين يبدو أن نفوذه بينهم كان قد ضعف كثيرا، فقد وجده لازما أن يزيد كلماته قوة وأهمية بفقرة ختامية أطول يكتبها بنفسه. وهنا، يستميحهم عذرا بسبب شكل خط يده غير المتقن، نظرا لضعف بصره، الأمر الذى ربما كان يشير إليه عندما وصف نفسه بأنه حامل فى جسده سمات يسوع (غل ٦ : ١٧).

ويمكن تفسير كلماته أيضا، بأنها كلمات من باب الاستعارة. فما أكبر وأوفر الأحرف التى كتبها بالنسبة لحجم العهد الجديد. إذا كنا نحكم بمقدار كميتها فى العهد الجديد، وجدناها تُكَوّن ربعه. على أن

أهميتها لا تقاس بطولها، بل بثقلها، وقبل أن تضعها فى الميزان، اذكر الكنوز الثمينة التى تمسكها بيدك؛ فإن الإصحاح الرائع عن المحبة (١ كو ١٣)، والحجج المنقطعة النظير عن التبرير فى (رو ٤ و٥)، والتفسير البليغ عن عمل الروح القدس فى (رو ٨)، ورجاء القيامة المجيد فى (١ كو ١٥)، وكشف النقاب عن المحبة بين يسوع وخاصته فى (أف ٥). هذه كلها كنوز لا يمكن أن تقدر قيمتها، تدين بها الكنيسة أولا للروح القدس، وثانيا للرسول بولس، الذى كان الروح القدس يعمل فيه وبه. وكم من فقرة ثمينة نافعة مماثلة فى الكتاب المقدس تحمل آثار روح رسول الأمم الرقيقة المتأججة، العميقة فى روحانيتها.

إن الرسائل تعكس شخصيته بشكل عجيب. قيل عن أحد عظماء الرسامين أنه تعود أن يمزج ألوانه بدم مأخوذ من جرح سرى. ويحق أن يقال عن بولس، أنه كان يغمس قلمه بدم قلبه. كانت كل المؤثرات الأخيرة التى انطبعت على طبيعته الرقيقة تتبين آثارها فى تفكيره وفى تعبيره، سواء فى حديثه عن محبة أهل فيلبى، التى ظهرت بمجىء أبفرودتس، أو عن أخبار الانشقاقات التى رواها أهل خلوى. ولعله، لأجل نفس هذا السبب، قد حرك، ولا زال يحرك قلوب العالم، لأنه كتب بملء مشاعره، كأنه كان يتحدث حديثا طبيعيا، وسط جماعة من الأصدقاء.

وليست مبالغة فى القول إذا ما ذكرنا أن هذه الرسائل كان لها أثر فعال فى زيادة انتشار الإنجيل بين أمم الغرب القوية. كان تفكير الرسول يوحنا يميل إلى التعمق فى الروحانيات، كانت بصيرته الروحية ترى الطريق إلى حقائق الإنجيل أكثر من مناقشتها، وكان تفكير الرسول بطرس عبرانيا بصفة خاصة، ينظر إلى كل شىء من وجهة نظر تعليمه الذى تلقاه فى فجر حياته، الذى أكمله تعليم سيده. أما الرسول بولس، فمع أنه كان يكتب كعبرانى من العبرانيين، ويستخدم طرقا فى تفسير الكتاب عويصة وغريبة على أفهامنا، تتفق لحد ما مع طريقة الربيين، إلا أن رسائله تتميز بقوة التعبير والتناسق المنطقى، وأسلوب تقديم الحجج، والتدقيق فى الكلمات والعبارات، وهذه قريبة الشبه بالمدنية الغربية. عندما ولد، كانت الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الذهبى، وكانت الثقافة اليونانية قد تغلغلت فى أرجاء العالم فى التفكير والتعبير، لدرجة أن اليهود أيضا تأثروا بها مع شدة تحفظهم ومبالغتهم فى تعصبهم.

فى هذه الرسائل، تتبين آثار الثقافة، كان تيار الأجيال القادمة بدأ يتدفق فى مصب النهر، وكانت التقاليد اليهودية الراسخة قد بدأت تتزعزع أركانها. لهذا السبب، اعتبرت عقلية بولس متمشية مع المدنية الغربية فى كل الأجيال. هو الذى ألهب روح أوغسطينوس وغيره من قادة الغرب. لقد تشبع رجال الكنيسة فى العصور الأولى بآرائه وطريقة تفكيره. ولقد أتت البذور التى بذرها بمحصول عظيم فى التربية الحديثة، والتشريع، والحرية، والمدنية.

ما أعذب ما قاله أحدهم: «ما أعظم الدَّين الذى يدين به العالم لهذا الرسول، والذى استدانه، والذى سوف يدين به. إنه مدين له بالكثيرين من الزعماء والأتقياء، والمراسلين الغيورين، والمسيحيين الممتازين، والكتب النافعة، والهبات الخيرة، والأمثلة العالية فى الإيمان، والمحبة، والطهارة، والقداسة. من ذا الذى يستطيع إحصاءها؟ سوف يقوم الجنس البشرى كله، ويعترف أنه بين أسماء الذين أحسنوا إليه، التى سجلتها كل الأجيال، لا يوجد كاسم الرسول بولس ينادَى به ببهجة وشكر ومحبة».

فى العهد الجديد ثلاث عشرة رسالة تحمل اسم بولس وتوقيعه، وتعترف جميع الكنائس بصحتها وصحة نسبتها إليه. وقد اضطر أعظم ناقدى الكتاب المقدس تطرفا للاعتراف بأن رسائل كورنثوس، وغلاطية، ورومية، هى بلا شك رسائله، وقد كتبت فى فترات مختلفة بين عام ٥٢ وعام ٦٨م، وفى ظروف مختلفة. كتب بعضها لما كان الرجاء غضا وجديدا، فى فجر حياته المسيحية، وبعضها وسط أشد ظروف المقاومة، وبعضها بينما كان مقيدا بالسلاسل فى أعماق السجون، وبعضها لما كانت شمس حياته قد بدأت تحين إلى المغيب. كل رسالة تتميز بطابع خاص من أسمى التعابير. على أنها كلها مكرسة للرب المقام من الأموات، الذى طالما قاده لأن ينعت نفسه بأنه عبده المكرس لخدمته «بولس عبد ليسوع المسيح».

لنضع هذه الرسائل حسب ترتيب كتابتها، لكى نرى الخطوات المتعاقبة فى تقديم تفكير الرسول عن المسيح. لقد كان دواما مملوءًا بالمحبة والولاء والروح القدس، ولكنه حسب تعبيره، كان بصفة دائمة ينسى ما هو وراء، ويمتد إلى ما هو قدام، ليعرف

المسيح، وقوة قيامته، وشركة آلامه. فليس عجيبا إذن أن تتضمن كل رسالة فكرة أعمق من سابقتها عن ملء ومجد الرب المقام من الأموات. وكما قيل عن يسوع أنه كان يتقدم فى الحكمة والقامة، هكذا كان رسوله بولس يتغير إلى صورته، من مجد إلى مجد. كانت كل حياته تقدما من قوة إلى قوة. كان كلما ازداد ارتفاعا فوق الجبال الشامخة، جبال الطاعة والإيمان، ومشابهة يسوع المسيح، والتضحية، واختبارات الصليب، ازداد أفق معرفته اتساعا، ليصل إلى طول وعرض وعمق معرفة محبة المسيح التى كانت لا تزال تفوق معرفته. لنقارن فقط بين رسالة تسالونيكى الأولى، ورسالة أفسس، لكى ندرك لأول وهلة، كيف أن هذه الطبيعة المباركة قد ازدادت نضوجا تحت تثقيف روح الله القدوس.

وأفضل تبويب عثرت عليه لهذه الرسائل هو الآتى:

الرسائل التى تتحدث عن الآخرة: رسالتا تسالونيكى الأولى والثانية.

الرسائل التى تهاجم الروح اليهودية الناموسية: رسالتا كورنثوس الأولى والثانية، رسالة غلاطية، رسالة رومية.

الرسائل المتعلقة بشخص وطبيعة المسيح، أو التى تهاجم مذهب اللادريين (الأغسطسيين): رسائل فيلبى، كولوسى، فيلمون، أفسس.

الرسائل الرعوية: تيموثاوس الأولى، تيطس، تيموثاوس الثانية.

والآن، لنتأمل فيها حسب هذا الترتيب:

رسالتا تسالونيكى الأولى والثانية:

المرجح أن الأولى كتبت أواخر سنة ٥٢، والمؤكد أنها كتبت من كورنثوس. كان تيموثاوس قد ترك فى مكدونية، ليتمم العمل الذى انتزع منه الرسول بتعجل. وبعد بذل أقصى جهده لتعزية ومساعدة الكنائس الفتية، أتى إلى بولس هو وسيلا، وعقد الثلاثة اجتماعات للصلاة، وللتفكير فى أنجح وسيلة لإرشاد ومساعدة التلاميذ، وسط عاصفة الاضطهاد الشديد التى كانوا يجوزونها. كان مستحيلا أن يذهب أى واحد منهم

لإغاثتهم، لذلك، أرسلت هذه الرسالة الأولى. وأرسلت الثانية من نفس المدينة، بعد بضعة شهور، عندما علم الرسول أن الأولى فُسّرت بأنها تعنى بأن مجىء الرب قريب جدا، لدرجة يجب معها توقع سرعة انحلال الهيئات القائمة.

فى كل من هاتين الرسالتين، يتحدث الرسول بتوسع عن مجىء الرب الثانى أكثر من غيرهما. كان نور المجىء الثانى ينير كل كيانه بضيائه المجيد. فى مجىء ابن الله يوجد الباعث على كل خدمة، الدوافع لكل موقف مسيحى، أساس الطهارة والرجاء والعزاء والفضيلة العملية «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات فى المسيح سيقومون أولا. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعا معهم» (١ تس ٤: ١٦ و١٧).

إن الباعث الذى يبعث المؤمن على الحياة المسيحية، لا يتضمن فى الشعور بحلول المسيح فى القلب، بقدر ما يتضمن فى توقع مجىء المسيح، وهو يتطلع إلى المجد أكثر مما يتطلع إلى الصليب، إلى حضور المسيح بشخصه فى مجيئه الثانى، أكثر مما يتطلع إلى الرئاسة فوق كل الأشياء فى السماء وعلى الأرض، الأمر الذى يُكثر فى التحدث عنه فى الرسائل المتأخرة. لأجل هذه الغاية، أمر الرسول الكنيسة بأن تقف على المرصد، متطلعة إلى مجد إلهها ومخلصها. على أن رسائله الأخيرة، غزيرة بمادتها أكثر من رسائله الأولى.

رسالة كورنثوس الأولى:

فى أواخر فترة الثلاث سنوات التى قضاها بولس فى أفسس، أتته الأنباء، بعضها عن طريق أبولس، والبعض الآخر عن طريق أهل خلوى، بأن الأحوال فى كورنثوس لا تسر بالمرة، فإنه وسط المؤثرات الشهوانية بتلك المدينة الفاجرة، كان يبدو أن جماعة المتنصرين القلائل على وشك الانجراف فى التيار الشديد الذى كان يقاومهم، والانتكاس برذائل معاصريهم. وبعد ذلك بوقت وجيز، وصلت رسالة من الكنيسة نفسها، حملها إلى أفسس استفاناس وفرتوناتوس وأخائيكوس، لمعرفة رأيه بصدد بعض المشاكل العملية. ويا لهول ما كُشف له عن الخصومات والانشقاقات

والانقسامات، وعن شرور أشد هولا، كانت كافية لتقض مضجع أى شخص. وهل كان ممكنا أن يكون لديه أمل لمعالجة مثل هذه المشاكل دون الذهاب شخصيا؟ وإن ذهب، فأى ترحيب يلقاه؟ فى ذلك الوقت، كان ملزما بالبقاء فى أفسس بسبب الصراع الشديد الذى واجهه هناك. لذلك، رأى أن يكتب إليهم حسبما يرشده به الروح القدس، وكانت النتيجة تلك الرسالة العجيبة، التى تضمنت، أكثر من غيرها، إرشادات عملية للكنيسة فى كل الأجيال المتعاقبة، مبينة لها كيف تطبق مبادئ الإنجيل على المشاكل الأدبية والاجتماعية المعقدة، وقد حملها تيطس إلى كورنثوس، وفى هذه الرسالة أيضا، لا نزال نجد القليل من التعاليم عن المجىء الثانى. علاوة على هذا، نجد فيها الفكرة الرائعة عن آدم الثانى، وعن إعلان الروح القدس بين حين وآخر للأمور التى لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب إنسان.

رسالة كورنثوس الثانية:

لما نشبت الثورة فى أفسس، كان الرسول ينتظر بفارغ الصبر مجىء تيطس، حاملا إليه الأنباء عن كيفية قبول رسالته، وعند طرده من المدينة، ذهب إلى ترواس، متأكدا بأنه سوف يلتقى به هناك، ولكنه، إذ خاب أمله، ازداد قلقه، فأسرع إلى مكدونية للبحث عنه. كان مكتئبا فى كل شىء «من خارج خصومات، من داخل مخاوف»، إلى أن تعزى أخيرا بمجىء تيطس الذى أتى بأنباء سارة، إذ أخبره بشوقهم ونوحهم وغيرتهم لأجله. وبناء على ذلك، كتب رسالته الثانية، وبعث بها إلى الكنيسة على أيدى تيطس وشخص آخر.

وتعتبر هذه الرسالة، رسالة شخصية، أكثر من أية رسالة أخرى، فيها يكشف قلبه، ويسمح لنا بأن نرى فيه أشواقه الرقيقة، مقدار حساسيته للمحبة أو للبغضة، تمنياته العميقة نحو سعادة تلاميذه. «جميع الأشياء هى من أجلكم. لذلك لا نفشل» (٢ كو ٤: ١٥و١٦). هنا يكشف عن النواحى الروحية العميقة للحياة المسيحية، والأمر الذى تتميز به الرسائل الأخيرة. هو يكتب كأنه ــ تحت إرشاد الروح القدس ــ يتمتع بقسط أوفر من الحياة المخبأة مع المسيح فى الله. ومع أنه كان يسلم دائما للموت من

أجل يسوع، إلا أن حياة يسوع التى فيه كانت تظهر فى جسده المائت (ص ٤: ١١). لقد عرف المسيح، ليس حسب الجسد، بل حسب الروح، وكانت محبة المسيح تحصره لدرجة أنها كانت تدفعه بصفة دائمة لحياة إنكار الذات، والاتشاح بتلك الخليقة الجديدة التى هى عطية الرب المقام من الأموات (ص ٥: ١٤-١٧). ومهما كانت الصعوبات التى لقيها، والتضحيات التى بذلها، فإنه عوض عنها تعويضا طيبا من الدائرة الروحية الأبدية التى كان يعيش فيها (ص ٦: ٤-١٠)، وإن كانت شوكة الجسد قد كلفته ضيقا مستمرا، فإن نعمة المسيح جعلته يفتخر ويسر بهذا الضيق كمصدر إيجابى للقوة (ص ١٢: ١٠).

رسالة غلاطية:

تبع بولس تيطس حتى كورنثوس، ولبث فيها فترة سعيدة نحو ثلاثة شهور، على أن فرح شركته مع جماعة الأصدقاد المباركين الكثيرين، الذين التفوا حوله هناك، لابد أن يكون قد غطت عليه الأنباء عن تقلب الغلاطيين الذين كانوا قد انتقلوا سريعا «عن الذى دعاهم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر». فإن بعض الخوارج لبثوا بين المجددين الذين تجددوا على يديه، مدعين أنهم يمثلون كنيسة أورشليم، وباسم المسيحية الأولى حطوا من قدر بولس كرسول، منكرين سلطانه، ومصرين على ضرورة ختان الأمم، وخضوعهم للناموس الطقسى.

كانت ساعة حرجة، فلو أن هذه الآراء سادت، لتضاءلت المسيحية، وصارت مجرد شيعة يهودية، وتلاشى نهر الحياة والأعمال المسيحية الذى تفجر من الأرض يوم الخمسين، وانعدم بين رمال الخزعبلات الربينية. كان موضوع انتشار المسيحية بين الأمم فى موقف حرج، وكان رجاء العالم فى خطر. احتدت روح الرسول، واندلعت نيران غضبه المقدس فى كل عبارة، وبكل قوة فند حجج أولئك الذين كانوا يفسدون الغلاطين عن بساطة المسيح وحريته «كما سبقنا فقلنا أقول الآن إن كان أحد يبشركم بغير ما قبلتم ليكن أناثيما».

وفى ثورة غضبه، لا نجد التفكير الجلى القوى فحسب، بل نجد أيضا إعلانا عن بعض نواحى المعرفة المسيحية التى كُشفت له. وتحت ضغط مستلزمات مركزه

ـ وكم من مرة كان قيام البدع الجديدة سببا فى زيادة تعمق خدام الله فى الملء المكتنز فى المسيح لكل حاجة ولكل وقت ـ قاده الرب لكى يتأكد بأن أصل الشعب اليهودى لم يكن موسى بل إبراهيم، ليس سيناء، بل خيام أبى الآباء. ولقد دعى إبراهيم لما كان فى العزلة، وآمن وتبرر بالإيمان قبل أن يتقبل الطقس المميز اليهودى بثلاثين سنة. كانت هذه رؤية عظيمة جدا، كرؤية كولومبس لشواطئ العالم الجديد. ومن تلك اللحظة، نهض بولس إلى موقف جديد، استطاع منه أن يرد بقوة ونجاح كل هجمات المتهورين، ويبين أن جميع المؤمنين من الأمم أبناء إبراهيم المؤمن، وورثة عهد الموعد.

رسالة رومية:

قبيل انتهاء زيارة بولس لكورنثوس، كان عقله مشغولا بالكنيسة التى فى أهم مدينة فى العالم، التى كان يرجو أن يزورها سريعا. وتمهيدا لزيارته أعد بعض الآراء الوجيزة المحكمة عن الحقائق التى أعلنت له بروح الله. وهكذا نشأت أعظم رسالة له، أى رسالة رومية.

فى هذه الرسالة ـ كما فى الرسالة السابقة ـ لا نجد فقط تفسيرا جليا قويا للعقيدة العظيمة، عقيدة التبرير بالإيمان، بل نجد أيضا فكرة متسعة جدا عن الاندماج فى المسيح، وحلوله فى القلب. فهو يقول أننا تصالحنا معا لله بموت ابنه، ولكننا خلصنا بحياته. ويقرر بأننا سنملك فى الحياة بفيض النعمة المكتنزة فى الواحد يسوع المسيح. وتشع كلماته مجدا، عندما يتحدث عن الاتحاد بذلك الذى أقيم من الأموات، وعن التحرر من تلك العبودية القديمة التى كنا مستعبدين لها. كان اتحاد المسيح به، واتحاده هو بالمسيح، كاملين، حتى أنه أحس بأنات شفاعته التى لا ينطق بها، كما أحس بحنينه نحو نفوس البشر. كان قد سلم أعضاءه كأسلحة ففى حربه الشعواء ضد الخطية وصُلب مع المسيح. ولذلك، كان يحيا، لا هو، بل المسيح يحيا فيه. كانت حياته حياة الإيمان بابن الله الذى أحبه وأسلم نفسه لأجله. كان الصليب واسطة، لا للتبرير فقط، بل للتقديس أيضا. وقد وقف بين حياته الحاضرة وحياته الماضية، وبالروح القدس صار ابن الله مستقرا فيه والسائد عليه.

رسالة فيلبى:

لا شىء من الجدل فى هذه الرسالة، كان فى الرسائل السابقة ما يكفى للرد على أعدائه والمفترين عليه وإخراسهم. إن كانت هنالك خصومات وانقسامات بين الكنائس، فإنها لم تخترق أبواب السجن لكى تصل إليه. ولم تعبر المسافة الطويلة لكى تصل إلى مكان إقامته فى رومية. كان سلام الله الذى يفوق كل عقل، يحفظ قلبه وفكره. ومن أعماق ذلك القلب الهادئ، تدفق تيار من المحبة العميقة، الرقيقة، لأحبائه وأعزائه فى فيلبى.

كان يملأ قلبه الرجاء بأنه سيكون حيا عند مجىء الرب. كانت سيرته ومسكنه مركّزين فى السموات التى منها أيضا انتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح، ولكن عقله كانت تملأه هذه الفكرة؛ أن الرب قد يتعظم فى موته. وعلى أى حال، فإنه رأى أن إرادة الله هى الأفضل، وتعلم من سيده سِيَر التواضع وإنكار الذات. كان أبفرودتس قد حمل من فيلبى تقدمات المحبة، ولذلك حمّله الرسول هذه الرسالة، علامة المحبة، والاعتراف بالجميل.

رسالة كولوسى:

كان ضمن الذين زاروا بولس فى البيت الذى استأجره لنفسه ـ قبيل انتهاد مدة حبسه فى رومية ـ أبفراس الكولوسى، الذى كان يمثل أيضا لاودكية وهراپوليس، وهما مدينتان من مدن آسيا الصغرى فى وادى ليكوس. وقد أخبر الرسول عن بدعة غريبة جديدة كانت تنتشر بسرعة مزعجة فى الكنائس التى أسست فى تلك المدن السحيقة.

كانت الفلسفة المسيحية المزعومة وقتئذ، تحاول أن تسد الثغرة بين الإنسان الخاطئ والله القدّوس بسلم من الخرافات لتصعد عليه إلى الله صلوات الإنسان، وتنحدر عليه بركات الله للإنسان. كانت الفكرة كلها خيالية، لا يمكن أن تصل إلى الغرض مطلقا فى أسمى أوضاعها، لأن بين أسمى رؤساء الملائكة أو الأرواح وبين الله الأبدى، لا تزال هنالك هوة سحيقة تفصل بين الخليقة والخالق، ولا يمكن اجتيازها إلا إذا عبرها الخالق بنفسه.

وللرد على هذه الآراء السخيفة، أعلن الروح القدس فكرة أوسع وأعمق عن الملء الذى فى يسوع، وكشف للرسول عن المعنى الكامل لصعود الرب إلى يمين القوة. لقد رأى كل الرياسات والسلاطين، وكل المخلوقات والكائنات التى فى السماء وعلى الأرض، وتحت الأرض، كلها تحت موطئ قدميه، هو الرب والملك، يدبر الكل، ويملأ الكل، ويحفظ الكل «فيه خلق الكل، ما فى السموات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به، وله قد خُلِق. الذى هو قبل كل شىء، وفيه يقوم الكل، وأنتم مملوءون فيه، الذى هو رأس كل رياسة وسلطان» (كو ١: ١٦، ٢: ١٠).

وفى نفس الوقت، كان اقتناعه عن اتحاده بالرب المقام من الأموات واضحا كل الوضوح، وكان شعوره بحلوله فى قلبه سببا فى امتلائه رجاء ومجدا. كان لا يبالى كثيرا إذا دُعى ليكمل ما بقى من آلام المسيح. ألم يعط له أن يظهر غنى مجد هذا السر بين الأمم، الذى هو المسيح فى القلب، رجاء المجد؟ وقد حمل تيخيكس هذه الرسالة إلى كولوسى، وتلك إلى الأفسسيين.

رسالة فليمون:

كان أنسيمس، عبد فليمون، قد هرب منه، فدفعته الحاجة إلى بيت الرسول، أو عثر عليه رفقاؤه منغمسا فى إحدى الرذائل، بينما كانوا يتممون خدماتهم الرحيمة، فتجددت حياته، وأصبح بعد ذلك لا عبدا، بل أخا محبوبا، ورده بولس لسيده، الذى كان صديقا له، وكانت بينهما على ما يبدو علاقات مالية (ع ١٨ و١٩)، وهذه الرسالة، التى هى مثل أعلى فى الأدب المسيحى، والكياسة، قد أعطيت لأنسيمس لتقديمها لسيده.

وأهم نقطة نلاحظها هنا، هى قوة الصبر والاحتمال الكاملة، التى يتوقع الرسول أن تغلب بها المحبة الإلهية الكاملة. لابد أنه قد أحس بأن أنسيمس له الحق الكامل فى الحرية، فى نظر الله، ولكنه وجد أنه ليس من الحكمة أن يتدخل بين السيد وخادمه. فليتعلم فليمون أن ينظر إلى أنسيمس بأنه مرتبط معه فى الإنجيل، وبعد ذلك، سوف

لا ينقضى وقت طويل حتى يقترح هو بنفسه تحريره. وقبل أن يفعل ذلك، فإن بولس لن يتعجل الأمور، وأنسيمس يجب أن يعود ليخدم، ولا شك فى أن المبدأ الذى تصرف بموجبه الرسول، فى هذه المناسبة الواحدة، قد أصبح القانون الرئيسى لحل الكثير من المشاكل الأخرى المعقدة، التى يُترك التصرف فيها لروح المحبة.

رسالة أفسس:

تردد هذه الرسالة الفكرة العظيمة عن سلطان الرب يسوع، ومقدرته على سد الثغرة بين الله والإنسان، التى أشارت إليها الرسالة السابقة، وتشرح بكل وضوح وقوة، عقيدة الاندماج بيسوع المسيح، فى موته، وقيامته، وصعوده. وتبين بتفصيل محاب، وجمال ممتاز، الفكرة الرائعة بأن الكنيسة هى جسد المسيح وعروسه. ولكن أعظم ما تتميز به هو إشارتها إلى الحياة العائلية فى علاقة الزوج بالزوجة، والآباء بالأبناء، والسادة بالعبيد.

فى أوائل أيام الرسول، تحدّث ــ بصفته الشخصية دون أن يكون متأكدا من أن كلامه موحى به ــ كأن مشاكل الحياة الزوجية تزيد عن مميزاتها، وذلك بسبب الضيق الحاض (١ كو ٧). أما فى هذه الرسالة الأخيرة، فإنه يتحدث عن الحياة الزوجية كرمز للمحبة الكائنة بين العريس السماوى وخاصته، ويذهب إلى مدى أبعد فيقرر ــ عكس الآراء التى كانت تسود عصره ــ بأن رابطة الزواج الحقيقية هى تضحية القوى من أجل الضعيف، تضحية الزوج من أجل الزوجة. لم تعد الزوجة بعد، أسيرة الرجل أو ألعوبته، بل أصبح الرجال مسئولين أن يبذلوا أنفسهم بالمحبة المضحية من أجل زوجاتهم، كما أحب المسيح الكنيسة، وبذل نفسه لأجلها.

رسالتا تيموثاوس الأولى وتيطس:

بعد إطلاق سراح بولس، زار البلاد السابق الخدمة فيها حول شواطئ بحر اليونان. وفى أثناء رحلته هذه، كتب هاتين الرسالتين لإرشاد هذين الخادمين الشابين

عن كيفية إدارة حسنة، وهما رسالتان فى غاية الأهمية، لأنهما تتصلان بالكثير من التفاصيل العملية. إنه لم يمل من أن يبين بأن مبادئ الإنجيل العظمى قصد بها أن تسمو بأبسط واجبات الحياة العادية «إن التقوى لها موعد الحياة الحاضرة»، «وقد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس معلمة إيانا أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى فى العالم الحاضر» (١ تى ٤: ٨ ، تى ٢: ١١ و١٢).

رسالة تيموثاوس الثانية:

كان الرسول وقتئذ فى أيام الشيخوخة الرقيقة الحال، كان وحيدا، بعيدا عن الأحباء الأعزاء، محروما من أمور كثيرة، من الرداء، والكتب، وعناية الأصدقاء. كان يرتعش فى السجن، كان ينتظر النهاية المحتومة. كان يريد أن يرى مرة أخرى ابنه المحبوب فى الإيمان، ولذلك كتب هذه الرسالة، يستحثه لسرعة الحضور، وهى رسالة رقيقة، وجميلة، مليئة بالعواطف البشرية، ولكن الشجاعة التى لا تلين، والإيمان، تغلبا على اللجج المتلاطمة. لقد حفظ وديعة ربه، ولذلك، كان واثقا أن الوديعة التى أودعها لتلميذه منذ بضع سنوات محفوظة فى أمان؛ وهكذا يمسك القلم بيده للمرة الأخيرة، ويضيف بعض عبارات رقيقة فى ختام الرسالة بأحرف كبيرة: «**الرب مع روحك. النعمة معكم.**»

❖ ❖ ❖

تشبه رسائل بولس ألواحا زنكوغرافية، تُطبَع منها نسخ لا تُعد مِن الكثرة. مَن غير الله يستطيع أن يحصى ربوات النفوس الذين اتصلوا بكلماته، وصاروا هم أنفسهم رسائل مخدومة منه «مكتوبة لا بحبر، بل بروح الله الحى»؟ وإلى أن يجىء الرب، سوف تُطبع من هذه الألواح ألواح التفكير المقدس، التى ندين بها للرسول بولس، نسخ عديدة من الصفات السامية، والاختبارات المباركة، والنفوس المكرسة لله.

❖ ❖ ❖

الفهرس

الموضوع	صفحة
مقدمة المؤلف	٥
مقدمة المعرب	٦
تاريخ حياة بولس	٧
الفصل الأول : النعمة قبل أن يولد	٩
الفصل الثانى : لما كنت طفلا	١٧
الفصل الثالث : مُفرَز من البطن	٢٧
الفصل الرابع : استفانوس شهيدك	٣٥
الفصل الخامس : نور من السماء	٤٣
الفصل السادس : إعلان المسيح الداخلى	٥٣
الفصل السابع : الاستعلان الفجائى للغرض من الحياة	٦٣
الفصل الثامن : يقودنا فى موكب نصرته كل حين	٧١
الفصل التاسع : رسول الأمم	٧٧
الفصل العاشر : قبل أربع عشرة سنة	٨٥
الفصل الحادى عشر : صراع الرسول بولس	٩٣
الفصل الثانى عشر : درس فى الإرشاد	١٠١
الفصل الثالث عشر : أيها الفيلبّيون	١٠٧
الفصل الرابع عشر : من فيلبّى إلى أثينا	١١٥
الفصل الخامس عشر : فى ضعف وخوف	١٢١

الموضوع	صفحة
الفصل السادس عشر : يعظم انتصارنا	١٢٩
الفصل السابع عشر : سحب متكاثفة	١٣٧
الفصل الثامن عشر : تقدّم الإنجيل	١٤٥
الفصل التاسع عشر : أكثر منهم جميعا	١٥٣
الفصل العشرون : محصور من الاثنين	١٦٣
الفصل الحادى والعشرون : ما أكبر الأحرف	١٧١

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٧٧٩ / ٢٠٠٠

طبع بشركة هارمونى للطباعة

ت : ٦١٠٠٤٦٤

٢٠١٠
تشغيلة رقم
قرش جنيه
٥/٨٠٠

مكتبة المحبة
٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤ - ٧٧٧٤٤٨